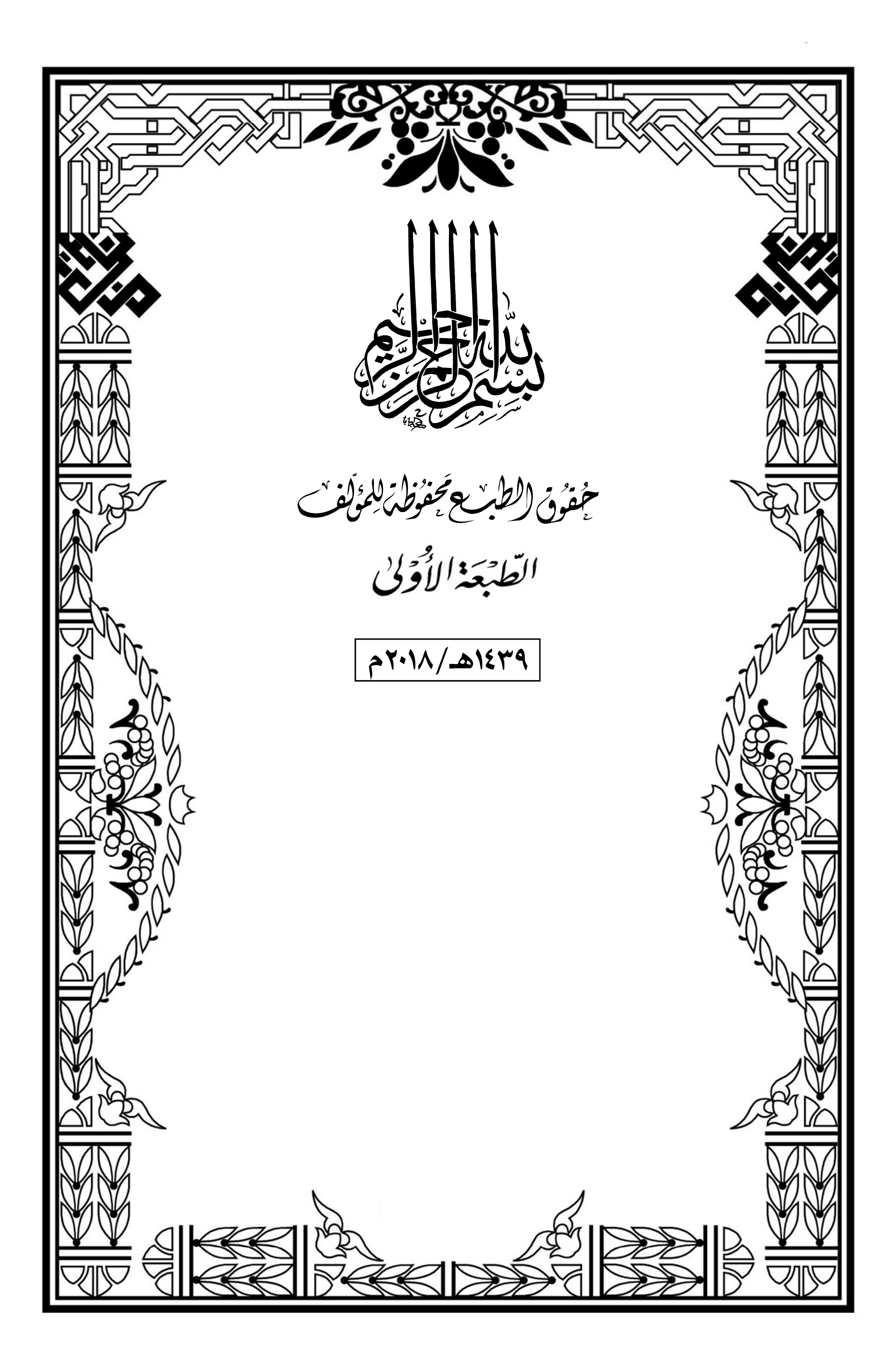


مِلَّة إبراهيم ﷺ

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ/٢٠١٨م



المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وبعد:

فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قصَّ علينا في القرآن أخبار رسله وأنبيائه - عليهم أفضل الصلاة وأتمُّ التَّسليم -، وأمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالاقتداء بهم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ باتِّباع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ وجه الخصوص؛ فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، واتِّباع ملَّة إبراهيم لا يكون إلَّا بمعرفتها، وأولىٰ النَّاس ببيانها هم المسلمون، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]، فإبراهيم - عليه أفضل الصلاة والسلام - حنيف مسلم، ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا.

والتأسِّي بالرُّسل - عليهم السلام - خصوصًا الخليلين -؛ هو ممَّا أمرنا الله به، قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]» رواه مسلم.

وبمدارسة ملَّة إبراهيم نكون قد أخذنا ببعض أسباب العمل بها، فمنها نأخذ صحيح الاعتقاد، وبسيرته نتعلَّم صبره علىٰ الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد.

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١]، قال

شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إذا عرفت قصص الأنبياء، ومن اتَّبعهم، ومن كذَّبهم، وأنَّ متَّبعيهم كان لهم النَّجاة والعاقبة والنَّصر والسَّعادة، ولمكذِّبهم الهلاك والبوار؛ جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعُلم أنَّ من صدقهم كان سعيدًا، ومن كذَّبهم كان شقيًّا، وهذه سنَّة الله وعادته».

والقرآن كلُّه في التَّوحيد، وهذا الذي بُعث به المرسلون والنبيُّون جميعًا - عليهم الصلاة والسلام -، وقد جاءت آيات القرآن كثيرة في ذكر رسل الله — صلىٰ الله عليهم وسلم - وبيان أوصافهم، ومحتوىٰ دعوتهم ومنهجها، وبيان ما قاموا به من الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد بالحكمة.

ولأهميَّة ذكر أحوال رسل الله — صلىٰ الله عليهم وسلم - ومقاماتهم في الدَّعوة إلىٰ الله، ومنهجهم في ذلك؛ كانت آيات القرآن كثيرة التبيين لذلك، لا يكاد تُذكر دعوة التَّوحيد إلَّا ذُكر دعاتها ورسلها، وكاد القرآن كلُّه أن يكون في ذلك، واختصَّت بعض السُّور بذلك خصوصيَّة ظاهرة؛ لأهميَّة ذلك؛ كسورة مريم وطه والأنبياء.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «سورة مريم - عليها السَّلام - قد اشتملت علىٰ تفاصيل عظيمة من ذكر رحمة الله بأنبيائه، وأصفيائه، وأحبابه، وما منَّ عليهم به في الدُّنيا من نِعَم الدِّين والدُّنيا، والنِّعم الظَّاهرة والباطنة، وما يكرمهم به من الذِّكر الجميل، والثَّناء الحسن، ووصفهم بأحسن أوصافهم،

(١) النبوَّات (٢/ ٩٦٤).

(٢) المواهب الرَّبَّانيَّة من الآيات القرآنيَّة (ص٩٨).

ونعتِهم بأشرف نعوتهم، وما يُكرمهم به في الآخرة من الثَّواب والفضل العظيم، وذكر رحمته – أيضًا – بأعدائه؛ حيث عاملهم بالحلم والصَّفح، وتصريف الآيات لعلَّهم يرجعون، مع عظم ما أتوا به من الشرور وعظائم الأمور!

ولذلك أكثر اللهُ فيها من ذكر اسمه الرَّحمن، الذي هذه آثاره، ومن ذِكْرِ الرَّحمة.

فنسأله تعالىٰ أن يدخلنا برحمته في عباده الصَّالحين».

وللعلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب «التحفة المكيَّة» في ملَّة إبراهيم، ذكره في بعض مصنَّفاته[1]، لم أره مطبوعًا إلىٰ الآن، والله أعلم.

وللحافظ العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مصنَّف في تفسير قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، مطبوع ضمن مجموع رسائله[2]، يقع في ثلاث وعشرين صفحة، ذكر فيه بعضًا من فضائل الخليل ومعاني ملَّته.

ولشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة في معنىٰ «الحنيف»، في تسع صفحات، مطبوعة[3]، وفي مجموع مؤلفاته وتلاميذه شرح مفصَّل لملَّة إبراهيم، نقلت هنا ما يسَّر الله جمعه، والحمد لله رب العالمين.

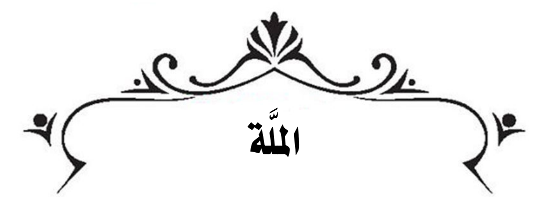


---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٥٢٨).

(٢) الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ط: الأولىٰ، ١٤٢٩هـ.

(٣) جامع المسائل، المجموعة الخامسة، (ص ١٧٩ – ١٨٨).



الملَّة

الملَّة: هي الطَّريقة المستقيمة، هذا معناها في الأصل[(١)].

فالملَّة في المعنىٰ اللُّغويِّ: هي الطَّريق والصِّراط، وهي في اصطلاح الشَّرع: سبيل الله.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «سبيل الله الذي شرعه لعباده؛ سُمِّي سبيل الله لأنَّه طريق موصِّل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ولأنَّ الله تعالىٰ هو الذي وضعه للعباد، ولم يشرعه أحد سواه، فأضيف إلىٰ الله باعتبارين:

الأوَّل: أنَّه موصِّلٌ إليه.

والثاني: أنَّ الله هو الذي وضعه للعباد وشرعه لهم، مع أنَّه يضاف أحيانًا للسَّالكين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، فهنا أضاف السَّبيل إلىٰ المؤمنين باعتبار أنَّهم سالكوه، وعلىٰ هذا فإذا أُضيف السَّبيل إلىٰ الله كان باعتبارين، وإذا أُضيف إلىٰ العباد صار باعتبار واحد».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الملَّة هي الدِّين، وهي مجموع أقوال وأفعال واعتقاد، ودخول الأعمال في الملة كدخول الإيمان، فالملة هي الفطرة وهي

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤/ ٥١٨).

(٢) تفسير سورة النساء (٢/ ٤٥٦، ٤٥٧)، باختصار يسير جدًّا.

(٣) تحفة المودود في أحكام المولود (ص٣٤٠).

الدين، ومحال أن يأمر الله سبحانه باتباع إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مجرَّد الكلمة دون الأعمال وخصال الفطرة، وإنَّما أمر بمتابعته في توحيده وأقواله وأفعاله، وهو ﷺ اختتن امتثالًا لأمر ربِّه الذي أمره به وابتلاه به، فوفَّاه كما أمر، فإن لم نفعل كما فعل لم نكن متَّبعين له».

وقال العلَّامة محمَّد بن عليٍّ الكرجيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وفي قوله: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٣٠]، أبين البيان أنَّ الملَّة والإيمان والإسلام، والدين والشريعة والصراط والمنهاج أسامي تجمع المرتضىٰ من دين الله الذي اختاره لنفسه، ودعا إليه عباده، وينوب بعضها عن بعض، ويقع علىٰ أجزائه التي لا يستغني بعضها عن بعض. ألا تراه - جلَّ ثناؤه - كيف بدأ الآية بذكر الملَّة، ثم أخبر أنَّها الإسلام، والإسلام منها؛ بقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ثمَّ قال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي بالملة - والله أعلم - لرجوع الهاء عليها، ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢]؛ فسماها نبيَّاه مخبرين عنه دينًا بعدما سمَّاها إسلامًا، ثم سمياه إسلامًا بعدما سمياه دينًا بقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ في سورة الحجِّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، فجمع بين الدين والملَّة والإسلام في آيةٍ واحدة».

❁ ❁ ❁

---

(١) نكت القرآن الدَّالَّة علىٰ البيان (١/ ١٤١، ١٤٢).



إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صفوة الله من خلقه، خير البريَّة، وسيِّد الحنفاء، جعل الله في ذريَّته النبوَّة والكتاب.

إبراهيم ﷺ خليل الله، الأوَّاه المنيب، القانت المتألِّه لله، المحسن في عبادته وأعماله، القائم بنصرة الحقِّ، المبارك.

الخليل، زكيُّ الأخلاق، أول من أقرىٰ الضَّيف، وأوَّل من اختتن، وسار الحنفاء بسيرته في ذلك.

إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الإمام الصَّابر علىٰ أمر الله، وعلىٰ الدَّعوة إلىٰ الله، وعلىٰ قضاء الله وقدره، ذو العزم فيما يرضي الله، الشاكر لأَنْعُمِهِ.

إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ المشفق علىٰ أمَّة الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا إسلام بعد مبعث محمَّد ﷺ إلَّا فيما جاء به وطاعته، وهي ملَّة إبراهيم التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، وهو «الأمَّة» الذي يؤتمُّ به، كما أنَّ «القدوة» هو الذي يقتدىٰ به، وهو «الإمام»، كما في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وهو «القانت»، والقنوت دوام الطاعة، وهو الذي يطيع الله دائمًا، و«الحنيف» المستقيم إلىٰ ربِّه دون ما سواه».

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٣٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وإبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين، حيث بُعث وقد طبق الأرض دين المشركين، قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فبيَّن أنَّ عهده بالإمامة لا يتناول الظالم، فلم يأمر الله سبحانه أن يكون الظالم إمامًا، وأعظم الظلم الشرك.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، و«الأمَّة»: هو معلِّم الخير الذي يؤتمُّ به، كما أنَّ «القدوة» الذي يُقتدىٰ به. والله تعالىٰ جعل في ذريَّته النبوَّة والكتاب، وإنَّما بُعث الأنبياء بعده بملَّته، قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقد ثبت في الصحيح، عن النبيِّ ﷺ: «**أنَّ إبراهيم خير البريَّة**»، فهو أفضل الأنبياء بعد النبيِّ ﷺ، وهو خليل الله تعالىٰ.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٠١ - ٢٠٣).

وقد ثبت في الصحيح عن النبيِّ ﷺ من غير وجه أنَّه قال: «**إنَّ الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»، وقال: «**لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الله**» - يعني: نفسه -، وقال: «**لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدَّت إلا خوخة أبي بكر**»، وقال: «**إنَّ من كان قبلكم كانوا يتَّخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنِّي أنهاكم عن ذلك**»، وكل هذا في الصحيح.

وفيه: أنه قال ذلك قبل موته بأيَّام، وذلك من تمام رسالته.

فإنَّ في ذلك تحقيق تمام مُخَالَّتِهِ لله التي أصلها محبَّة الله تعالىٰ للعبد، ومحبَّة العبد لله، خلافًا للجهمية.

وفي ذلك تحقيق توحيد الله، وأن لا يعبدوا إلَّا إيَّاه، وردٌّ علىٰ أشباه المشركين».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إبراهيم - صلواتُ الله وسلامُه عليه - هو الذي جعلَه - الله - إمامًا لمن بعدَه من الناس، فلا يُوجَد قطُّ مؤمن ولا منافق يُظهِر الإيمانَ إلَّا وهو مُعظِّمٌ لإبراهيم، وإن كان فيهم من يُكذِّبُ بكثيرٍ ممَّا كان عليه إبراهيم.

وقد جعلَ الله في ذريَّتِه النبوَّة والكتاب، فالأنبياءُ بعدَه من ذريَّتِه، فلا يُوجَد مَن يؤمن بالأنبياء إلَّا وهو مؤمن بإبراهيم، ولا مَن يدعو إلىٰ عبادةِ الله في الجملة وينهىٰ عن الشرك إلَّا وهو مُعظِّمٌ لإبراهيم، وإن كان فيهم من هو مكذِّبٌ بكثيرٍ ممَّا كان عليه إبراهيم، ومكذِّبٌ ببعض الأنبياء والرسُل؛ فإبراهيم بريءٌ منه،

(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص١٨٧).

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ١١٣﴾ [الصافات: ١١٣]».

فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سيِّد الحنفاء، وهو أبو البشر، وأبو خاصَّة البشر، فالأنبياء من بعده من ذريَّته.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أبونا الثالث، وهو إمام الحنفاء، ويسميه أهل الكتاب عمود العالم، وجميع أهل الملل علىٰ تعظيمه وتولِّيه ومحبَّته، وكان خير بنيه سيِّد ولد آدم محمد ﷺ يجلُّه ويعظمه ويبجله ويحترمه».



(١) جلاء الأفهام (ص٣٩٢).



ملَّة إبراهيم

ملَّة إبراهيم عليه السلام هو ما كان عليه الخليل من توحيد الله وعبوديَّته بالاتِّباع لصراط الله المستقيم، وإقامة شرائع الملَّة، والدَّعوة إليها.

وأساس الملَّة وأصلها هو توحيد الله وعبوديَّته، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «تقوىٰ القلوب لله، وهو عبادتها له وحده دون ما سواه بغاية العبودية له، والعبودية فيها غاية المحبَّة وغاية الذلِّ والإخلاص، وهذه ملَّة إبراهيم الخليل، وهذا كلُّه ممَّا يُبيِّن أنَّ عبادة القلوب هي الأصل، كما قال النبيُّ ﷺ: **«إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ أي: عن طريقته ومنهجه، فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحقَّ إلىٰ الضلال، حيث خالف طريق من اصطُفي في الدنيا للهداية والرشاد».

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «هو اتباع إبراهيم فيما أتىٰ به من الشَّريعة التي صار

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٤/ ٤٢٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٧٢، ٢٧٣).

(٣) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التَّفسير (١/ ٣٥٢).

به إمامًا للنَّاس».

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ جميع ما قصَّه الله علينا من سيرة إبراهيم الخليل ﷺ، فإنَّنا مأمورون به أمرًا خاصًّا، قال تعالىٰ:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أي: الزموها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ [الممتحنة: ٤]، الآية.

فما هو عليه في التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق، وجميع ما قصَّ علينا من نبئه؛ فإنَّ اتباعنا إيَّاه من ديننا.

ولهذا لمَّا كان هذا أمرًا عامًّا لأحواله كلها استثنىٰ الله حالة من أحواله فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤].

أي: فلا تقتدوا به في هذه الحال بالاستغفار للمشركين؛ فإنَّ استغفار إبراهيم لأبيه إنَّما كان ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]».

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي الإخلاص، والقيام بالشَّريعة».

ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي توحيد الله، وإخلاص الدِّين له وحده، وهذا لا يكون إلَّا بتحقيق العبوديَّة لله، فهي اعتقاد التَّوحيد المستلزم للعمل.

---

(١) تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص٢٠٦).

(٢) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٧٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العبادات التي شرعها الله كلُّها تتضمَّن إخلاص الدين كلِّه لله، تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

فالصلاة لله وحده، والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحجُّ لله وحده، إلىٰ بيت الله وحده، فالمقصود من الحجِّ: عبادة الله وحده، في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها؛ ولهذا كان الحجُّ شعار الحنيفية، حتىٰ قال طائفة من السلف: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [الحج: ٣١] أي: حجَّاجًا؛ فإنَّ اليهود والنصارىٰ لا يحجُّون البيت».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله، والملَّة لإبراهيم عليه السلام؛ فإنه صاحب الملَّة، وهي التوحيد، وعبادة الله تعالىٰ وحده لا شريك له، ومحبَّته فوق كل محبَّة، والدين للنبيِّ ﷺ، وهو دينه الكامل، وشرعه التامُّ الجامع، لذلك كلِّه سمَّاه سبحانه إمامًا، وأمة، وقانتًا، وحنيفًا، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤]، فأخبر سبحانه أنه جعله إمامًا للناس، وأنَّ الظالم من ذريته لا ينال رتبة الإمامة، والظالم هو المشرك، وأخبر سبحانه أنَّ عهده بالإمامة لا ينال من أشرك به، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٧٠).

(٢) جلاء الأفهام (ص٣٩٠، ٣٩١).

فالأمة هو: القدوة المعلِّم للخير، **والقانت**: المطيع لله، الملازم لطاعته، **والحنيف**: المقبل علىٰ الله، المعرض عمَّا سواه، ومن فسَّره بالمائل فلم يفسِّرْه بنفس موضوع اللفظ، وإنَّما فسَّره بلازم المعنىٰ، فإنَّ الحنف هو: الإقبال، ومن أقبل علىٰ شيء مال عن غيره.

والحنف في الرِّجلين هو: إقبال إحداهما علىٰ الأخرىٰ، ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠] فـ﴿حَنِيفًا﴾ هو: حال مقررة لمضمون قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، ولهذا فُسِّرت «مخلصًا»، فتكون الآية قد تضمَّنت الصدق والإخلاص، فإنَّ إقامة الوجه للدين هو: إفراد طلبه، بحيث لا يبقىٰ في القلب إرادة لغيره.

والحنيف: المفرد لمعبوده، لا يريد غيره.

فالصدق: أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص: أن لا ينقسم مطلوبك، الأول توحيد الطلب، والثاني توحيد المطلوب».

ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي توحيد الله بعبوديته وشكره، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يمدح تبارك وتعالىٰ عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، ويُبرِّئه من المشركين، ومن اليهودية

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٦٧).

والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾.

فأمَّا الأُمَّة: فهو الإمام الذي يُقتدىٰ به. **والقانت**: هو الخاشع المطيع. **والحنيف**: المنحرف قصدًا عن الشرك إلىٰ التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البَطِين، عن أبي العُبيدين: إنَّه سأل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الأُمَّة القانت؛ فقال: الأُمَّة: مُعلِّم الخير، **والقانت**: المطيع لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ.

وعن مالك قال: قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الأُمَّة الذي يُعلم الناس دينَهم».





الأُمَّة

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمَّةٌ وحده، جمع الله فيه صفات الخير، وكان قدوةً ومعلِّمًا للخير.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كان وحده أمَّة من الأمم، اجتمع فيه ما تفرَّق في الأمم من صفات الخير ونعوت البركة، كما قيل:

وليسَ لله بمستنكرٍ ... أن يَجْمَعَ العالمَ في واحد

وكما قيل:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنا

وقال مجاهد: كان وحده مؤمنًا، والناس كلهم كفَّار.

وقيل: المعنىٰ: كان مؤتمًا به، فهو فُعْلَة في معنىٰ: مفعول، كالنُّخْبَة والرُّحْلَة.

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الأُمَّة: الذي يُعَلِّمُ الخير.

﴿قَانِتًا﴾ مطيعًا، ﴿لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ مائلًا إلىٰ التوحيد والطاعة».

والخليل أمَّة، فخاتم النبيِّين محمَّد ﷺ من ذريَّته يهتدي به المسلمون في عبوديَّة الله، ومحمد ﷺ جدَّد ملَّة إبراهيم، وأعمال الذُّريَّة الصَّالحة كسبٌ لأبيهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]؛

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١٠٥).

فالذريَّة من آثار الوالدين.

ومحمَّد ﷺ سراج منير، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدىٰ به في ظلماتها، ولا علم يُستدلُّ به في جهالاتها، حتىٰ جاء الله بهذا النبيِّ الكريم ﷺ، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلَّم به من الجهالات، وهدىٰ به ضُلَّالًا إلىٰ الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشرَّ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «"الأُمَّة" الذي يؤتمُّ به كما أنَّ "القدوة" هو الذي يُقتدىٰ به، وهو "الإمام" كما في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وهو "القانت"، والقنوت: دوام الطاعة، وهو الذي يطيع الله دائمًا، و"الحنيف" المستقيم إلىٰ ربِّه دون ما سواه».

وقال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «يخبر تعالىٰ عمَّا فضَّل به خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وخصَّه به من الفضائل العالية والمناقب

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٠٧).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التفسير (٤/ ١٨٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٤٧٤).

الكاملة، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير، هاديًا مهتديًا، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي: مُدِيمًا لطاعة ربِّه مخلصًا له الدين.

﴿حَنِيفًا﴾ مقبلًا علىٰ الله بالمحبَّة، والإنابة، والعبودية، معرضًا عمَّن سواه.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله؛ لأنَّه إمام الموحِّدين الحنفاء.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١]؛ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنِعَمٍ ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ ربُّه، واختصَّه بخُلَّته، وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقرَّبين.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في علمه وعمله، فعلم بالحقِّ وآثره علىٰ غيره.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقًا واسعًا، وزوجةً حسناءَ، وذريَّة صالحين، وأخلاقًا مرضيَّة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالىٰ.

ومن أعظم فضائله أنَّ الله أوحىٰ لسيِّد الخلق وأكملهم أن يتبع ملَّة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمَّته».





آل إبراهيم

آل إبراهيم هم أتباع ملته، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إبراهيم – صلوات الله عليه –هو الإمام الذي قال الله فيه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وفي ذريته جعل النبوَّة والكتاب، والرسل بعده فأهل هذه النبوَّة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٢٨].

فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله تعالىٰ، وهي البراءة من كلِّ معبود إلَّا من الخالق الذي فطرنا».

وأهل الكتاب ليسوا من آل إبراهيم، فإنَّ آل إبراهيم هم الحنفاء الموحدون، لا الضَّالُّون ولا المغضوب عليهم.

واليهود قُطَّاع طريق عن ملَّة إبراهيم، فنسبتهم أنفسهم إلىٰ إبراهيم من تحريفهم لأديان الرُّسل، ومن إضلال الخلق في يهوديَّتهم.

قال تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

---

(١) التُّحفة العراقيَّة في الأعمال القلبيَّة (٣٧٩، ٣٨٠).

قال شيخنا العلَّامة المجدِّد محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هم قد صدُّوا أنفسهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، وصدُّوا غيرهم أيضًا بما عندهم من الكتاب الذي يشبهون به، ويموِّهون به علىٰ النَّاس، ويقولون: إنَّ محمدًا ﷺ ليس هو المبعوث المنتظر، أو ما أشبه ذلك».

وقد كان في الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ حفاوة بآل إبراهيم المؤمنين، خصوصًا أقربهم إليه، فأبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد أن رویٰ حديث رسول الله ﷺ في قصَّة سارة مع جبَّار مصر، وما كان من حفظ الله لها، وأمر جبَّار مصر بإخراجها من مصر، وأخدمها هاجر، قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «فتلك أمُّكم يا بني ماء السَّماء»، متَّفق عليه.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قَالَ كَثِيرُونَ: الْمُرَاد بِبَنِي مَاء السَّمَاء؛ الْعَرَب كُلُّهمْ؛ لِخُلُوصِ نَسَبِهِمْ، وَصَفَائِهِمْ. وَقِيلَ: لِأَنَّ أَكْثَرهمْ أَصْحَاب مَوَاشٍ، وَعَيْشهمْ مِنَ الْمَرْعَىٰ وَالْخِصْب، وَمَا يَنْبُتُ بِمَاءِ السَّمَاء.

وَقَالَ الْقَاضِي: الْأَظْهَر عِنْدِي أَنَّ الْمُرَاد بِذَلِكَ الْأَنْصَار خَاصَّة، وَنِسْبَتُهُمْ إِلَىٰ جَدِّهِمْ عَامِر بْن حَارِثَة بْن امْرِئِ الْقَيْس بْن ثَعْلَبَة بْن مَازِن بْن الْأَدَد، وَكَانَ يُعْرَفُ بِمَاءِ السَّمَاء، وَهُوَ الْمَشْهُور بِذَلِكَ، وَالْأَنْصَارُ كُلُّهُمْ مِنْ وَلَد حَارِثَة بْن ثَعْلَبَة بْن عَمْرو بْن عَامِر الْمَذْكُور. وَاللهُ أَعْلَمُ».

ومن أعظم حفاوة الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بآل إبراهيم ما تلقَّوه عنهم من الحنيفيَّة، قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في السَّعي بين الصَّفا والمروة: «هذا ما

---

(١) تفسير سورة النساء (٢/ ٤٥٦).

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٤٥٠).

أورثتكموه أم إسماعيل» رواه الفاكهي في أخبار مكة[1].

وآل إبراهيم منهم الحُنفاء، وفيهم كافرون، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وإبراهيم الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بيَّن من هم أحقُّ وأولىٰ النَّاس به، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، فالحنفاء المتَّبعون لملَّة إبراهيم الذين أخذوا بميراث نبوَّته هم أولياؤه، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥].

فمن كان من قرابة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ نسبًا، ومن أتباع ملَّته مؤمنًا؛ فهذا من آله وأوليائه، ومن لم يكن من قرابته وكان متبعًا لملَّته؛ فهو من أوليائه، ومن لم يكن من قرابته نسبًا ولا من أوليائه دينًا وملَّة؛ فهو ليس من آل إبراهيم ولا أوليائه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «من كان منهم من أقربائه فهو من أوليائه وآله، ومن لم يكن منهم من أقربائه فهم من أوليائه لا من آله، فقد يكون الرجل من آله وأوليائه كأهل بيته والمؤمنين به من أقاربه، ولا يكون من آله ولا من أوليائه، وقد يكون من أوليائه وإن لم يكن من آله، كخلفائه في أمَّته، الداعين إلىٰ سنَّته،

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «بإسناد حسن»، فتح الباري (٣/ ٥٠٣).

(٢) جلاء الأفهام (٣٤٠، ٣٤١).

الذابِّين عنه الناصرين لدينه، وإن لم يكن من أقاربه، وثبت في «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنَّ أوليائي المتقون**»».

وقال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنَّ آله ﷺ أتباعه إلىٰ يوم القيامة، ذكره البيهقي عنه(١)، وآل المتبوع أتباعه علىٰ دينه وأمره، قريبهم وبعيدهم، واشتقاق هذه اللَّفظة تدلُّ عليه؛ فإنَّه من آل يؤول؛ إذا رجع، ومرجع الأتباع إلىٰ متبوعهم؛ لأنَّه إمامهم وموئلهم(٢).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «لا ريب أنَّ الأتباع يُطلق عليهم لفظ «الآل»».

وصفوة آل إبراهيم وخيرتهم هو محمَّد رسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٦٨]، والنبيُّ محمَّد ﷺ جدَّد ملَّة إبراهيم، وأقام التَّوحيد، ومحا الله به الشِّرك والكفر، صلوات الله وسلامه عليه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ(٤): «محمَّد ﷺ هو من آل إبراهيم، بل هو خير آل إبراهيم، كما روىٰ عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فإنَّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «محمَّد من آل إبراهيم – صلىٰ الله عليهما وسلم –» وهذا نصٌّ فإنه إذا دخل غيره من الأنبياء الذين هم من ذريَّة إبراهيم في آله، فدخول رسول الله ﷺ أولىٰ».

---

(١) جلاء الأفهام (ص٣٢٦).
(٢) جلاء الأفهام (ص٣٣٤).
(٣) جلاء الأفهام (ص٣٤٢).
(٤) جلاء الأفهام (ص٤١٦).



الحنيفية

نعت الخليل الحنيف، ونعت ملَّته الحنيفيَّة، والحنيف هو المقبل علىٰ الإسلام، المائل عن غيره من الملل.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥].

قال العلَّامة أبو المظفَّر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الحنيف: هو المسلم، وأصله الميل، ومنه الأحنف، وهو: المائل القَدَم، والمسلم مائل من سائر الأديان إلىٰ ملَّة الإسلام.

وقيل معناه: المستقيم، فسمَّاه حنيفًا علىٰ الضدِّ، كما يُقال للمهلكة: مفازة، وللديغ: سليم».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ﴾؛ أي مقبلًا علىٰ الله، معرضًا عمَّا سواه، قائمًا بالتَّوحيد، تاركًا للشِّرك والتَّنديد. فهذا الذي في اتِّباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملَّته الكفر والغواية».

وحنيفيَّة التَّوحيد ملَّة إبراهيم هو دين الله الذي اصطفاه لجميع الرُّسل، وهو توحيد الله، وعبادته وحده لا شريك له، وهذه دعوة الأنبياء - عليهم الصلاة

(١) تفسير القرآن (١/ ١٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٦).

والسلام - جميعًا، التي دعوا بها أقوامهم، ولأنَّ جميع النبيِّين - عليهم السلام - متَّفقون علىٰ ذلك، فإنَّهم دعوا إلىٰ الإيمان بالرُّسل جميعًا؛ لأنَّ الرُّسل يُصدِّق بعضهم بعضًا.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٧].

ومن عجائب أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ دعواهم أنَّهم علىٰ ملَّة إبراهيم، وقد حرَّفوها وبدَّلوها وغيَّروها، وكتموا ما في كتبهم من البشارة بالنَّبيِّ محمَّد ﷺ، وأتوا بما يضادُّ ملَّة إبراهيم في أصلها وهو التَّوحيد.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٠] أي: الله تعالىٰ يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيُّون - عليهم الصلاة والسلام - من الملل، وأنَّهم لم يكونوا يهودًا ولا نصارىٰ، فالله تعالىٰ يعلم ذلك، فلو كانوا يهودًا أو نصارىٰ، والله لا يعلم ذلك؛ لكنتم أعلم من الله بهم، هذا مع أنَّ عندكم شهادة وبيِّنة من الله تعالىٰ بما كان عليه إبراهيم عليه السلام، وبأنَّ هذا النبيَّ ﷺ علىٰ ملَّته، ولكنَّكم كتمتم هذه الشهادة عن أتباعكم فلم تؤدُّوها إليهم مع تحقُّقكم لها، ولا أظلم ممَّن كتم شهادة استشهده الله بها فهي عنده من الله، إلَّا

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٢).

أنَّه كتمها من الله».

قال أبو قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الحنيف: الذي يؤمن بالرُّسل كُلِّهم».

والحنيف هو مَنْ عَبَدَ الله، ومال عن الشِّرك، واتَّبع الأنبياء، قال محمَّد بن كعب رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الحنيف: المستقيم».

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «هو اتِّباع إبراهيم فيما أتىٰ به من الشَّريعة التي صار بها إمامًا للنَّاس».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البيِّنة: ٥]، وقال تعالىٰ مخاطبًا نبيَّه ﷺ أن يقول للناس ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١].

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «رغبت اليهود والنَّصارىٰ عن ملَّة إبراهيم، وابتدعوا اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، وليست من الله، وتركوا دين إبراهيم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٥): «القرآنُ كلُّه يدلُّ علىٰ أن الحنيفيَّةَ هي ملَّةُ إبراهيم، وأنَّها عبادةُ الله وحدَه والبراءةُ من الشرك.

وعبادتُه سبحانَه إنَّما تكون بما أَمَرَ به وشرعَه، وذلك يدخل في الحنيفية. ولا

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٧٥).

(٢، ٣) جامع المسائل لشيخ الإسلام، المجموعة الخامسة (ص١٨١).

(٤) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التَّفسير (١/ ٣٦٤).

(٥) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص١٨٠).

يدخلُ فيها ما ابتُدِعَ من العبادات، كما ابتدَعَ اليهودُ والنصارىٰ عباداتٍ لم يأمر بها الأنبياءُ، فإنَّ موسىٰ وعيسىٰ وغيرَهما من أنبياء بني إسرائيل ومن اتبعَهم كانوا حُنَفاءَ، بخلافِ من بَدَّلَ دينهم فإنَّه خارج عن الحنيفية.

وقد أمر الله أهلَ الكتاب وغيرَهم أن يعبدوه مخلصين له الدين حنفاء، فبدَّلوا وتصرَّفوا من بعدما جاءتهم البيِّنة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال أبو الحسن الأخفش: الحنيف: المسلم، وقال غيره: إذا ذُكِرَ مع الحنيفِ المسلمُ فهو الحاجُّ.

قال أبو الحسن الأخفش: وكانوا في الجاهلية يقولون لمن اختتن وحجَّ: حنيفًا؛ لأنَّ العرب لم تتمسَّك بشيء من دين إبراهيمَ غيرِ الختانِ والحجِّ، فلما جاء الإسلامُ عادتِ الحنيفية.

وقال الأصمعي: مَن عَدَلَ عن دين اليهودِ والنصارىٰ فهو حنيفٌ عند العرب.

قلتُ: ولهذا يُوجَد في كتب بعض أهل الكتاب من النَّصارىٰ وغيرِهم وفي كلامِهم معاداةُ الحنيف، وهم هؤلاء العرب الذين كانوا يحجُّون ويختتنون وهم مشركون، فإنَّ النصارىٰ لا يحجون ولا يختتنون ولا يتعبدون بالختان، بل أكثرهم ينهىٰ عنه، وفيهم من يختتن.

وفي كلام طائفةٍ ممَّن ينقلُ المقالاتِ والأديانَ المقابلةُ بين الصابئين والحنفاء، وهذا يتناولُ الحنيفيةَ المحضةَ ملَّةَ إبراهيم ومن اتبعَه من الأنبياء وأممِهم، فإنهم كانوا يعبدون الله وحدَه، بخلافِ الصابئين المشركين.

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص١٨٤).

والصابئون نوعان: صابئون حنفاءُ، وهم الذين أثنىٰ عليهم القرآن، وصابئون مشركون. وأمَّا المجوس وسائر أنواع المشركين فليسوا حنفاءَ».

وأوَّل نعوت وصفات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي هو أساس كل فضيلة للملَّة التي بُعث بها؛ هو التَّوحيد الخالص لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كان التوحيد لله نعته».

وقد نعت الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بـ«الحنيف»، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، ونعت الله سبحانه ملَّة إبراهيم بـ«الحنيفية»، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال ربُّنا: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «والقرآنُ كلُّه يدلُّ علىٰ أنَّ الحنيفيَّةَ هي ملَّةُ إبراهيم، وأنَّها عبادةُ الله وحدَه والبراءةُ من الشرك. وعبادتُه سبحانَه إنَّما تكون بما أمَرَ به وشرعَه، وذلك يدخل في الحنيفية، ولا يدخلُ فيها ما ابتُدِعَ من العبادات، كما ابتدَعَ اليهودُ والنصارىٰ عباداتٍ لم يأمر بها الأنبياءُ، فإنَّ موسىٰ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٥).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التَّفسير (١/ ٣٥١).

وعيسىٰ – عليهما السلام – وغيرَهما من أنبياء بني إسرائيل ومن اتبعَهم كانوا حُنَفاءَ، بخلافِ من بَدَّلَ دينهم فإنَّه خارج عن الحنيفية».

والحنيفية هي الفطرة التي خلق الله الخلق عليها، وجاء الشَّرع بحفظها وتكميلها، وهذا الذي بُعث به الخليلان إبراهيم ومحمد – عليهما الصلاة والسلام –.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الرسل – صلوات الله عليهم وسلامه – بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويل الفطرة وتغييرها، وقد قال النبي ﷺ: «**كلُّ مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**». قال تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] وفي الحديث الصحيح عن النبي: «**يقول الله تعالىٰ: إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين وحرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**».

و«الحنيفية» هي الاستقامة بإخلاص الدين لله، وذلك يتضمَّن حبَّه تعالىٰ والذلَّ له لا يُشرك به شيء، لا في الحبِّ ولا في الذلِّ، فإنَّ العبادة تتضمَّن غاية الحبِّ بغاية الذلِّ، وذلك لا يستحقُّه إلا الله وحده، وكذلك الخشية والتقوىٰ لله وحده، والتوكل علىٰ الله وحده».

قال الحافظ العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: ««الحنيف»: المائل إلىٰ ملَّة الإسلام غير

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٤٦٦).

(٢) تفسير ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ (ص٦٠).

الزائل عنه. و«الحنف»: هو الميل عن الضلال إلىٰ الاستقامة، وتحنَّف الرجل: إذا تحرىٰ طريق الاستقامة.

وكان العرب تسمي كل من اختتن أو حجَّ حنيفًا؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه علىٰ دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومنه ما جاء في بعض روايات بدء الوحي: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء في كلِّ سنة شهرًا، وكان ذلك ممَّا تحنف به قريش في الجاهلية.

والتحنف: التبرُّر، قال السهيلي: لأنَّه من الحنيفية دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ثمَّ أكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك بنفي الشرك عنه؛ ردًّا علىٰ قريش في زعمهم أنَّهم علىٰ ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهم مشركون، وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يكن مشركًا، بل كان حنيفًا علىٰ دين الإسلام».

وكما أنَّ الحنيف نعت «الخليل»، و«الحنيفية» نعت ملَّته، فأتباع ملَّته «حنفاء»، قال تعالىٰ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [الحج: ٣١].

واصطلاح الصَّحابة معلوم في وصف المسلم وتسميته بالحنيف، فقد كان أبو موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واليًا للفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال للفاروق: إني قد اتخذت كاتبًا نصرانيًّا، فقال له الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: مالك وله قاتلك الله! أما سمعت قول الله تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، ألا اتَّخذت حنيفًا. قال أبو موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لنا كتابته وله دينه. فقال الفاروق: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزُّهم إذ أذلَّهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله. رواه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» و«شُعب الإيمان»[1].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناد صحيح»، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٨٤).

وقدم عديٌّ بن حاتم علىٰ النبيِّ ﷺ، وكان نصرانيًّا، فقال له النبيُّ ﷺ: «**هل تعلم من إله سوىٰ الله؟**»، قال: لا، فقال له النبيُّ ﷺ: «**أيغرُّك أن تقول: لا إله إلَّا الله؟**»، وقال النبيُّ ﷺ: «**اليهود مغضوب عليهم، والنَّصارىٰ ضالُّون**»، فقال عديٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنِّي حنيف مسلم. قال عدي: فرأيت وجهه ﷺ ينبسط فرحًا. رواه أحمد والتِّرمذي وقال: حديث حسن غريب.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المسلمون كلُّهم مشتركون في إتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وتفاوتهم في معرفتهم بمضمون هذه الشَّهادة وقيامهم بحقِّها باطنًا وظاهرًا أمرٌ لا يحصيه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ».

وأحبار اليهود والنَّصارىٰ المنصفون ذكروا في أجوبتهم لسؤالات العرب أنَّ اليهوديَّة والنَّصرانيَّة ليست من حنيفيَّة دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلىٰ الشام، يسأل عن الدِّين ويتبعه، فلقي عالمًا من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إنِّي لَعَلِّي أنْ أدين دينكم، فأخبرني. فقال: لا تكون علىٰ ديننا، حتىٰ تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيد: ما أفرُّ إلَّا من غضب الله، ولا أحملُ من غضب الله شيئًا أبدًا، وأنا أستطيعه، فهل تدلُّني علىٰ غيره؟

قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا.

قال زيد: وما الحنيف؟

قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولا يَعْبُد إلا الله.

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٥٩).

فخرج زيد فلقي عالمًا من النصارىٰ، فذكر مثله، فقال: لن تكون علىٰ ديننا حتىٰ تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفرُّ إلَّا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا، وأنا أستطيع، فهل تَدُلُّني علىٰ غيره؟ قال: ما أعلمه إلَّا أن يكون حنيفًا. قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولا يعبد إلا الله.

فلمَّا رأىٰ زيد قَوْلَهُم في إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خرج، فلمَّا بَرَزَ رفع يديه، فقال: اللهم إني أشهد أنِّي علىٰ دين إبراهيم[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «المسلمون يقولون كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، والتوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية، وهو أن يُعبد الله وحده لا شريك له، وهو متضمِّن لشيئين: أحدهما: القول العملي، وهو إثبات صفات الكمال له، وتنزيهه عن النقائص، وتنزيهه عن أن يماثله أحد في شيء من صفاته، فلا يُوصف بنقص بحال، ولا يماثله أحد في شيء من الكمال، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾، فالصمدية تثبت له الكمال، والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع.

والتوحيد العملي الإرادي أن لا يعبد إلا إيَّاه، فلا يدعو إلَّا إيَّاه، ولا يتوكل

---

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل (ص٦٤٢ – رقم ٣٨٢٧).

(٢) الصفدية (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

إلا عليه، ولا يخاف إلا إيَّاه، ولا يرجو إلا إيَّاه، ويكون الدين كله لله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]».

وأمُّ القرآن التي ترجع إليها كلُّ معاني القرآن، التي أمرنا الله بقراءتها في كلِّ صلاة وفي كلِّ ركعة، لا تصحُّ صلاة بغير ذلك، فيها بيان ملَّة الهداية من ملل الضَّلالة، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٥-٧].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا الصِّراط هو طريق، و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، بالنِّعمة التامَّة المتَّصلة بالسعادة الأبدية، وهم الأنبياء والصدِّيقون والشهداء، والصَّالحون.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم الذين عرفوا الحقَّ وتركوه كاليهود، ونحوهم. ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، الذين ضلُّوا عن الحقِّ كالنصَّارىٰ، ونحوهم».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥]، فأجيبوا عن هذه الدعوىٰ بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾ [البقرة: ١٣٥] وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمَّن المنع والمعارضة.

أمَّا المنع مما تضمَّنه حرف «بل» من الإضراب، أي: ليس الأمر كما قالوا،

(١) تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص١٣).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٣١، ١٣٢).

وأما المعارضة ففي قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾، أي: أتتبع أو يتبعوا ملَّة إبراهيم حنيفًا، وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجَّة علىٰ أنَّها أولىٰ بالصواب ممَّا دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية؛ لأنَّه وصف صاحب الملَّة بأنَّه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملَّته الحنيفية والتوحيد فهو أولىٰ بأن يُتبع ممَّن ملَّته اليهودية والنصرانية، فإنَّ الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء، الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وهو الفطرة التي فطر عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي؛ لأن من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، فإنَّ الحنيفية تتضمَّن الإقبال علىٰ الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل.

والتوحيد يتضمَّن إفراده بهذا الإقبال دون غيره، فيُعبد وحده، ويُحب وحده، ويُطاع وحده، ولا يَجعل معه إلهًا آخر، فمن أولىٰ بالهداية: صاحب هذه الملة، أو ملَّة اليهودية والنصرانية؟

ولا يبقىٰ بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد: وهو أن يقولوا: فنحن علىٰ ملته أيضًا، لم نخرج عنها، وإبراهيم وبنوه كانوا هودًا أو نصارىٰ، فأجيبوا عن هذا السؤال بأنَّهم كاذبون فيه، وأنَّ الله تعالىٰ قد علم أنَّه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فقال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١٤٠] الآية، وقرَّر تعالىٰ هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧] إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

فإن قالوا: فهب أنَّ إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًّا فنحن علىٰ ملَّته، وإن

انتحلنا هذا الاسم، فأجيبوا عن هذا بقوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] إلىٰ قوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ فهذه للمسلمين.

ثم قال: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ [البقرة: ١٣٧] وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به فهم علىٰ ملَّة إبراهيم وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء، وإنَّما هم في شقاق وعداوة، فإنَّ ملَّة إبراهيم: الإيمان بالله وكتبه ورسله، وأن لا يُفرَّق بين أحد منهم، فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعض، فمن لم يأتِ بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملَّة إبراهيم مشاق لمن هو علىٰ ملَّته».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ ما بعث الله به نبيَّه محمَّدًا ﷺ من الكتاب والحكمة يجمع مصالح العباد في المعاش والمعاد علىٰ أكمل وجه؛ فإنَّه ﷺ خاتم النبيِّين ولا نبيَّ بعده، وقد جمع الله في شريعته ما فرَّقه في شرائع من قبله من الكمال؛ إذ ليس بعده نبيٌّ، فكمل به الأمر، كما كمل به الدِّين؛ فكتابه أفضل الكتب، وشرعه أفضل الشرائع، ومنهاجه أفضل المناهج، وأمَّته خير الأمم».

وقال شيخنا العلَّامة المجدِّد محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كلُّ ما أمر به فهو خير للأمَّة في معادها ومعاشها، وكلُّ ما نهىٰ عنه فهو شرٌّ للأمَّة في معاشها ومعادها.

وما يجهله بعض الناس ويدعيه من ضيق في الأمر والنهي فإنَّما ذلك لخلل البصيرة، وقلَّة الصبر، وضعف الدِّين، وإلَّا فإنَّ القاعدة العامَّة أنَّ الله لم يجعل

---

(١) الفتاوىٰ العراقيَّة (٢/ ٨٤٦).

(٢) الفتاوىٰ (٦/ ١٤٣).

علينا في الدين من حرج، وأنَّ الدين كلَّه يسرٌ وسهولة، قال الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، فالحمد لله علىٰ تمام نعمته وإكمال دينه».

وقال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أما ترون نعمته عليكم بدين الإسلام؛ حيث أنشأكم في بيئة مسلمة تقرأ كتاب الله، وتسمع من سنَّة رسوله، أنشأكم في بيئة تقام بها الصلوات، ويدعىٰ إليها بالأذان بأعلىٰ الأصوات، أنشأكم في بلاد لا ترىٰ - ولله الحمد - فيها كنيسة ولا صومعة، وإنَّما هي مسجد ومدرسة.

وصار الإسلام كأنَّما هو طبيعة من الطبائع، وغريزة من الغرائز، لا يشقُّ عليكم نيله وإدراكه، وهذه - والله - أكبر النعم، فاشكروها أيها المسلمون حقَّ شكرها، اشكروها بالتمسُّك بها، وارعوها حقَّ رعايتها، فلئن لم تفعلوا لتسلبنَّ عنكم هذه النعمة، ويحل بدلها شعار الكفَّار والبدع والضلال، لئن لم تشكروها بالتمسُّك بها لتفتحن في بلادكم مدارس النصارىٰ وكنائس الرهبان.

إنَّ العاقل ليقيس ويفهم، فكما أنَّ نعمة الأمن إذا لم تُشكر أُبدلت بالخوف، ونعمة الرزق إذا لم تُشكر أُبدلت بالجوع، كذلك نعمة الدين إذا لم تُشكر أبدلت بالكفر، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]».

---

(١) الفتاوىٰ (٦/ ٢٣٤، ٢٣٥).



حنيفية الفطرة

ملَّة إبراهيم ﷺ هي الفطرة، والفطرة هي توحيد الله، وهي طهارة القلب وزكاؤه بالتَّوحيد، قال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كل مولود يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه**»، فالتَّوحيد هو الفطرة، وكل ما خالفه من ملل الشِّرك والضَّلال كاليهوديَّة والنَّصرانيَّة والمجوسيَّة فهي مخالفة للفطرة، لذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ في الحديث القدسي: «**خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشَّياطين**»، رواه مسلم من حديث عياض المجاشعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فملَّة إبراهيم هي حنيفيَّة الفطرة بتوحيد الله، وذلك زكاء النُّفوس من الشِّرك والوثنيَّة، قال تعالىٰ في نعت الموحِّدين: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ﴾ [الحج: ٣١].

بُعث سيد الحنفاء الخليل إبراهيم ﷺ بخصال الفطرة، وهي سنن المرسلين، ومن ذلك الختان، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقد روىٰ البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اختتن إبراهيم ﷺ، وهو ابن ثمانين سنة**»، وفي رواية في غير الصَّحيح أنَّ إبراهيم أول من اختتن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الختان كان من الخصال التي ابتلىٰ الله سبحانه بها إبراهيم خليله فأتمهن وأكملهن، فجعله إمامًا للناس، وقد روي أنه أول من اختتن، كما تقدم، والذي في الصحيح: «**اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة**»، واستمر الختان بعده في الرسل وأتباعهم حتىٰ في المسيح فإنه اختتن».

والفطرة تتعلَّق بالرُّوح والبدن، ففطرة الرُّوح توحيد الله، فهذه طهارة الحنيفيَّة، وهي الطَّهارة من رجس الشِّرك والكفر، قال تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وفطرة البدن بتطهيره من الأقذار وتعاهده بالنظافة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الفطرة فطرتان: فطرة تتعلَّق بالقلب، وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره علىٰ ما سواه وفطرة عملية وهي هذه الخصال[٣]، فالأولىٰ تزكي الروح وتطهِّر القلب، والثانية تطهر البدن، وكل منهما تمد الأخرىٰ وتقويها».

فالفطرة هي فطرة الله التي خلق عليها عباده، وكملها بهدىٰ الشرع الذي يهدي للتي هي أقوم، فالتَّوحيد ولوازمه من أمر الله ونهيه هي حقيقة الفطرة، والشِّرك ومخالفة أمر الله ونهيه هي من مخالفة الفطرة ومضادتها.

والشَّيطان قد أرصد نفسه لإغواء بني آدم عن فطرة الله التي فطر الناس

(١) تحفة المودود في أحكام المولود (ص٣١٤).

(٢) تحفة المودود في أحكام المولود (ص٣١٨).

(٣) الختان، وقص الشارب، والمضمضة والاستنشاق، والسواك، وحلق العانة، وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

عليها، وقد حذَّرنا الله من ضلال الشَّيطان، وأمرنا بموالاته، قال تعالىٰ: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ يقول: لأزيغنَّهم بما أَجْعلُ في نفوسهم من الأماني عن طاعتك وتوحيدك إلىٰ طاعتي والشِّرك بك».

وقال الطَّبري[(٢)]: «أولىٰ الأقوال بالصواب في تأويل ذلك؛ قولُ من قال: معناه: ولآمرنَّهم فليغيِّرنَّ دين الله. وذلك لدلالة الآية الأخرىٰ علىٰ أن ذلك معناه، وهي قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وإذا كان ذلك معناه؛ دخل في ذلك فعل كل ما نهىٰ الله عنه».

والذي يدلُّ علىٰ معنىٰ ما رجَّحه الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ النَّبي ﷺ في الإسراء قُدِّم له قدح من لبن وقدح من خمر، فاختار اللَّبن، فقيل له: أصبت الفطرة.

فالتَّوحيد وموافقة الله في أمره واجتناب نهيه هو حقيقة الفطرة، وترك التَّوحيد أو تعطيله هو كفر بالله، وهو من مخالفة الفطرة، قال النبي ﷺ: «**بين العبد وبين الشِّرك ترك الصلاة**»، رواه مسلم.

---

(١) جامع البيان (٧/ ٤٩٢).

(٢) جامع البيان (٧/ ٥٠٢).

فشرائع الإسلام هي خصال الفطرة، وهي شعب الإيمان، وهي الكلمات التي ابتلىٰ الله بها سيد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله تعالىٰ: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: بشرائع وأوامر ونواه».

ملَّة إبراهيم هي فطرة الحنيفيَّة بتزكية القلب بالتَّوحيد والجوارح بالأعمال الصَّالحة، قال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدَّثر: ٤-٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قال أكثر المفسرين: إنَّ المراد به إصلاح العمل وتطهير النفس من الرذائل».

ففطرة الإسلام حنيفية التَّوحيد عبوديَّة الله وحده لا شريك له، والشِّرك هو عبوديَّة غير الله أو عبوديَّته مع غيره أو تعطيل عبوديَّة الله، قال تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فُصِّلَت: ٦، ٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قال أكثر المفسِّرين من السَّلف ومن بعدهم: هي التَّوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان الذي به يزكو القلب».

وقال العلامة أبو العباس أحمد بن علي المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «إنَّ ﴿إِيَّاكَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٤٦).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الرابعة (ص٢٢٥).

(٣) بدائع التَّفسير (٢/ ٤١١).

(٤) تجريد التَّوحيد (ص٢٧).

نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] هي الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]».

وقال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ معنىٰ «لا إله إلا الله» هو: البراءة من عبادة كل ما سوىٰ الله، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالىٰ».

فالله عَزَّوَجَلَّ فطر خلقه علىٰ معرفته وحبه والرغبة إليه والرَّهبة منه، وهذه الهداية فطريَّة في قلوب الخلق، فالعقل الصَّريح يوافق شرع الله ولا يخالفه.

قال تعالىٰ: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قال تعالىٰ ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾؛ قال بعض السلف في الآية: هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر، فإذا سمع بالأثر كان نورًا علىٰ نور؛ نور الإيمان الذي في قلبه يطابق نور القرآن، كما أن الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزل، فإن الله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط».

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ [هود: ١٧]، قال

(١) الدُّرر السنيَّة (٢/ ٢٣٢).

(٢) تفسير شيخ الإسلام (٤/ ٥١٣).

العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [محمد: ١٤] بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة.

﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيمانًا إلىٰ إيمانه».

وقوله سبحانه: «خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشَّياطين»؛ فيه دليل علىٰ أنَّ الخلق مفطورون علىٰ حنيفيَّة التَّوحيد، وأنَّ من انحرف عن فطرة التَّوحيد إلىٰ الشِّرك فهو بإضلال الشَّيطان له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «القلب مفطور علىٰ الحنيفيَّة التي هي الإقرار بالله وعبادته المتضمِّنة معرفته ومحبَّته، ولكن قد يعرض للفطرة ما يغيِّرها».

ومن ضلَّ عن العلم الفطري الضَّروري الذي فطر الله الخلق عليه من توحيد الله؛ فهو من أجهل النَّاس وأظلمهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٩٥).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٤٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٧٢).

أي: عن طريقته ومنهجه فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحقَّ إلىٰ الضلال».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أظلم الظُّلم هو الشِّرك في حقّ الله».

وعندما حرَّف عمرو بن لحيّ الخزاعي ملَّة إبراهيم وعبد الأصنام، واتَّبعه علىٰ ذلك النَّاس في جزيرة العرب، نُعتوا بالجاهليَّة لضلالهم عن آكد المعارف الضَّروريَّة التي فطر الله الخلق عليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الإله يجب أن يكون معبودًا، وهو المعبود لذاته الذي يُحَبُّ غاية الحب بغاية الذل، وهذا لا يصلح إلا لله، ومن عبدَ غيرَه واتخذه إلهًا فهو لفساد عمله وقصده، حيث اتخذ إلهًا فأحبه لذاته، وبذل له غاية الحب بغاية الذل لجهله وضلاله، ولهذا سموا جاهلية إذ كان أصل قصدهم جهلًا لا علمًا».

قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إن أهم ما فرض الله علىٰ العباد: معرفة أن الله رب كل شيء ومليكه، ومدبره، بإرادته، فإذا عرفت هذا فانظر: ما حق من هذه صفاته عليك بالعبودية، بالمحبة والإجلال، والتعظيم، والخوف، والرجاء، والتأله،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٤٩).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السَّادسة (ص١٨٨).

(٣) الدُّرر السنيَّة (١/ ١١٩).

المتضمن: للذل والخضوع، لأمره ونهيه».

فالحنفاء مُنعم عليهم بالعلم بأنَّه لا إله إلا الله بتحقيق هذا العلم بعبوديَّة الله وحده بما شرع، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧].

وفطرة التَّوحيد هي اتِّباع شرع الله.

وهذه فطرة الإسلام، وحنيفيَّة التَّوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البيِّنة: ٥].

قال الحافظ عبد الرزاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: دين الملَّة المستقيمة».

والشِّرك في مضادَّة الله في حكمه واتِّباع ما شرعه الأنداد، قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورىٰ: ٢١].

وبسبب ما وقع من اندراس العلم، وتحريف ملَّة إبراهيم والتَّوراة والإنجيل من بعده، بعث الله الخليل محمد ﷺ ليجدِّد ملَّة إبراهيم، ويقيم فطرة الإسلام حنيفية التَّوحيد، فجاء بالحقّ والشَّرائع التي يُعبد بها الله وحده لا شريك له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «بعث الله محمدًا ﷺ، وختم به الرُّسل، كان الإسلام لله لا يتمّ إلَّا بالدُّخول فيما جاء به من الشَّرع والمناهج والمناسك، وهو الإسلام الخالص».

فلذلك من لم يؤمن بالنَّبي محمد ﷺ ويتَّبعه بعد بعثته فهو كافر، قال النبي ﷺ:

---

(١) رموز الكنوز (٨/ ٦٩٨).

(٢) المجموعة العليَّة من كتب ورسائل وفتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (ص٧٧).

«والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمَّة من يهوديّ أو نصرانيّ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النَّار»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالحنيفيَّة ملَّة إبراهيم هي التي أتمَّ الله بها النِّعمة وأكمل بها الدِّين حيث جاء بها خاتم النبيِّين والمرسلين محمد ﷺ من عند الله، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «الدين واحد، ثم ختم الله الشرائع والملل بالشريعة العامة الكاملة، الحنيفية المحمدية، المحتوية عَلَىٰ جميع محاسن الشرائع، المتضمنة لجميع مصالح العباد في المعاش والمعاد، فأكمل الله بها دينه الذي ارتضاه لنفسه، وختم بها العِلْم الَّذِي أنزله من السماء عَلَىٰ رسله، فلذلك تضمنت جميع محاسن الشرائع المتقدمة، وزادت عليها أمورًا عظيمة وأشياء كثيرة، من العلوم النافعة والأعمال الصالحة، التي خصَّ بها هذه الأمة، وفضلهم بها عَلَىٰ من قبلهم من الأمم.

ولذلك أوجب الله عَلَىٰ جميع من بلغته هذه الدعوة من جميع الأمم الانقياد إليها ولم يقبل من أحد منهم دينًا سواها».

وبعث الله محمدًا ﷺ لضرورة الناس لذلك، بعد أن تحرَّفت ملَّة إبراهيم، ومقت الله أهل الأرض إلا بقايا قليلة ممَّن بقوا علىٰ الحنيفيَّة، فأتمَّ الله النِّعمة علىٰ أهل الأرض بالوحي، والشَّرائع التي أخرج بها من اهتدىٰ من عباده من

---

(١) جامع رسائل الحافظ ابن رجب (٢/ ٥٥٧).

الظُّلمات إلىٰ النُّور، وهدىٰ الله بالإسلام إلىٰ الدِّين القيِّم الموافق للفطرة المستقيمة والعقل الصَّريح الحنفاء من عباده.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «لما بعث الله محمدًا ﷺ كان أهل الأرض صنفين: أهل كتاب، وزنادقة لا كتاب لهم، وكان أهل الكتاب أفضل الصنفين وهم نوعان: مغضوب عليهم وضالون.

فالصنف الأول: الأمة الغضبية، هم اليهود أهل الكذب والبهت والغدر والمكر والحيل، قتلة الأنبياء، وأكلة السحت - وهو الربا والرشا - أخبث الأمم طوية، وأرداهم سجيَّة وأبعدهم من الرحمة، وأقربهم من النقمة، عادتهم البغضاء، وديدنهم العداوة والشحناء، بيت السحر والكذب والحيل، لا يرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم الأنبياء حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، ولا لمن وافقهم عندهم حق ولا شفقة، ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نصفة، ولا لمن خالطهم طمأنينة ولا أمنة، ولا لمن استعملهم عندهم نصيحة، بل أخبثهم أعقلهم وأحذقهم أغشهم، وسليم الناصية - وحاشاه أن يوجد بينهم - ليس بيهودي علىٰ الحقيقة، أضيق الخلق صدورًا وأظلمهم بيوتًا وأنتنهم أفنية وأوحشهم سجية، تحيتهم لعنة ولقاؤهم طِيرة، شعارهم الغضب ودثارهم المقت.

والصنف الثاني: المثلثة، أمة الضلال وعباد الصليب، الذين سبوا الله الخالق مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد، ولم يجعلوه أكبر من كل شيء، بل

---

(١) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنَّصارىٰ (ص١٤-١٧).

قالوا فيه ما ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٩٠] فقل ما شئت في طائفة أصل عقيدتها أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبته وأن المسيح ابنه، وأنه نزل عن كرسي عظمته، والتحم ببطن الصاحبة، وجرىٰ له ما جرىٰ إلىٰ أن قتل ومات ودفن، فدينها عبادة الصلبان، ودعاء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر في الحيطان، يقولون في دعائهم: يا والدة الإله ارزقينا، واغفري لنا وارحمينا. فدينهم شرب الخمور وأكل الخنزير، وترك الختان، والتعبُّد بالنجاسات، واستباحة كل خبيث من الفيل إلىٰ البعوضة، والحلال ما حلله القس والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه وهو الذي يغفر لهم الذنوب، وينجِّيهم من عذاب السعير.

فهذا حال من له كتاب، وأما من لا كتاب له فهو بين عابد أوثان، وعابد نيران، وعابد شيطان، وصابئ حيران، يجمعهم الشرك وتكذيب الرسل، وتعطيل الشرائع وإنكار المعاد وحشر الأجساد، لا يدينون للخالق بدين ولا يعبدونه مع العابدين، ولا يوحدونه مع الموحدين.

وأمَّة المجوس منهم تستفرش الأمهات والبنات والأخوات - دع العمات والخالات -، دينهم الزمر، وطعامهم الميتة وشرابهم الخمر ومعبودهم النار، ووليهم الشيطان، فهم أخبث بني آدم نحلة وأرداهم مذهبًا وأسوؤهم اعتقادًا.

وأما زنادقة الصابئة وملاحدة الفلاسفة فلا يؤمنون بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا لقائه، ولا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، وليس للعالم عندهم رب فعال بالاختيار لما يريد قادر علىٰ كل شيء، عالم بكل شيء، آمر ناهٍ، مرسل الرُّسل، ومنزل الكتب، ومثيب المحسن ومعاقب المسيء».

الإيمان بالرسل

أُمر نبيُّنا محمَّد ﷺ باتِّباع ملَّة إبراهيم، قال الله تعالىٰ له: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣]، فالإيمان بالرسل أساس دين الإسلام؛ لأنَّهم هم المبلِّغون عن الله شريعته، وصراطه المستقيم، وكيفية عبوديَّته وحده لا شريك له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، وأن لا يُفرق بين أحد منهم فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم، فمن لم يأتِ بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملَّة إبراهيم، مشاقٌّ لمن هو علىٰ ملَّته».

ومنزلة إبراهيم من الرسل هي العليا، فهو صفوتهم وأفضلهم وأبوهم، والأنبياء من بعده من ذريَّته.

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الحديد: ٢٥]، ثمَّ قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد: ٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥] من باب ذكر الخاصِّ بعد العامِّ،

---

(١) بدائع التَّفسير (١/ ٣٣٩).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيميَّة في التَّفسير (٦/ ٢٢٩).

وبيان ما اختصَّ به الخاصُّ من الأحكام التي امتاز بها عن غيره ممَّا دخل في العامِّ، كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد، ويأمر فلانًا وفلانًا بأن يفعلوا كذا وكذا، ومثل أن يقال: أرسل رسله إلىٰ فلان، وأرسل إليهم فلانًا، وأمره بكذا وكذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، فنوح هو أبو الآدميين الذين حدثوا بعد الطوفان، فإنَّ الله أغرق ولد آدم إلَّا أهل السفينة، وقال في نوح عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وإبراهيم جعل الله الأنبياء بعده من ذريَّته، كما قال تعالىٰ في إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم، وأنَّه جعل في ذريتهما النبوَّة والكتاب: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧]».

والإيمان بالرسل - عليهم الصلاة والسلام - من ملَّة إبراهيم؛ لأنَّ دعوة الرُّسل جميعًا واحدة، وهي الدَّعوة إلىٰ توحيد الله بعبادته بما شرع، ولهذا كان دين الأنبياء واحدًا وهو توحيد الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] أي: دينكم دين واحد، قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد – بن أسلم - نحو ذلك.

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٣٥، ١٠٣٦).

وقال الحسن: بيَّن لهم ما يتقون وما يأتون، ثم قال: إنَّ هذه سنَّتكم سنَّة واحدة. وهكذا قال جمهور المفسِّرين.

و«الأمَّة»: الملَّة والطريقة، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزُّخرُف: ٢٢، ٢٣] كما تسمَّىٰ الطريق: إمامًا؛ لأنَّ السالك فيه يأتمُّ به فكذلك السالك يؤمُّه ويقصده.

و«الأمَّة» أيضًا: معلِّم الخير الذي يأتمُّ به الناس، كما أنَّ «الإمام» هو الذي يأتمُّ به الناس، وإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ جعله الله إمامًا، وأخبر أنَّه ﴿كَانَ أُمَّةً﴾، وأمر الله الرسل – عليهم الصلاة والسلام – أن تكون ملتهم ودينهم واحدًا لا يتفرقون فيه كما في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**إنا معشر الأنبياء ديننا واحد**»، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه – عليهم الصلاة والسلام – يصدق بعضهم بعضًا، لا يختلفون مع تنوُّع شرائعهم».

والرسل – عليهم الصلاة والسلام – بُعثوا بالفطرة وتكميلها، والدَّعوة إلىٰ توحيد الله وعبوديَّته دون ما سواه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الرسل – صلوات الله عليهم

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٦٥٨، ٦٥٩).

وسلامه - بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويل الفطرة وتغييرها، وقد قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**»، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «**يقول الله تعالىٰ إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطانًا**».

والحنيفية هي: الاستقامة بإخلاص الدين لله، وذلك يتضمَّن حبَّه لله تعالىٰ، والذل له، لا يشرك به شيئًا، لا في الحب ولا في الذل، فإنَّ العبادة تتضمَّن غاية الحبِّ بغاية الذلِّ، وذلك لا يستحقُّه إلا الله وحده، وكذلك الخشية والتقوىٰ لله وحده، والتوكُّل علىٰ الله وحده.

والرسول ﷺ يطاع ويُحبُّ، فالحلال ما أحله، والحرام ما حرَّمه، والدين ما شرعه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. وهذه حقيقة دين الإسلام، والرسل بُعثوا بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

فهذا هو الأصل الذي يجب علىٰ كلِّ أحد أن يعتصم به، فلا بد أن يكون مريدًا محبًّا لما أمره الله بإرادته ومحبته، كارهًا مبغضًا لما أمره الله بكراهته وبغضه».

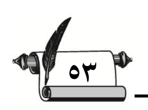
ومن الإيمان بالرُّسل - عليهم الصلاة والسَّلام - نصرتهم والذبُّ عنهم، والقرآن مليء من بيان معنىٰ ومفهوم الإيمان بالرُّسل؛ من ذكر فضائلهم، وما دعوا إليه من العلم النَّافع والعمل الصَّالح، والذبِّ عنهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وروىٰ البخاري عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** دخل النبيُّ ﷺ البيتَ، فوجد فيه صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - بأيديهما الأزلام، فقال: «**قاتلهم الله! والله ما استقسما بالأزلام قط**».

والنبيُّ ﷺ هاجر من مكَّة إلىٰ المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، يقولون: هذا يوم نجَّىٰ الله فيه موسىٰ من فرعون، فقال النبيُّ ﷺ: «**نحن أحقُّ بموسىٰ منهم**»، رواه البخاري ومسلم.







الإخلاص

أساس الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم الإخلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له؛ إخلاص الاعتقاد لله علمًا، واعتقاد تفرُّد الله بالربوبيَّة وما يوجبه ذلك من إخلاص الألوهيَّة له وحده لا شريك له، وإخلاص العمل لله وحده رغبةً ورهبةً ورجاءً وحبًّا، وإخلاص القول له بالكلم الطيب الذي هو حقيقة ما في القلوب، وتجريد العبوديَّة له، وإخلاص العبوديَّة لله يكون بسلوك الصِّراط المستقيم الذي دلَّ عليه خليله خاتم الرُّسل محمَّد ﷺ، فهو الدِّين الذي ارتضاه الله لعباده.

والخليل محمَّد ﷺ بيَّن حقيقة الإخلاص في ملَّة الخليل إبراهيم بيانًا أفاد كلَّ مسلم خلوص الإرادات والأعمال كلِّها لله، حيث قال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣]، فمن هُدي إلىٰ هذه الحنيفيَّة فذلك الذي أخلص دينه لله، فيُخلصه الله ليكون من صفوة عباده المؤمنين.

ويتفاضل النَّاس في إخلاصهم لله، فمنهم من معه مثقال ذرَّة منه، ومنهم من إيمانه يزن الأمة كالنبيِّين والصدِّيقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أوَّل الدِّين وآخره، وباطنه وظاهره،

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٥٨٨).

هو التَّوحيد، وإخلاص الدِّين كله لله، وتحقيق قول: «لا إله إلا الله»، فإنَّ المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها، فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلًا لا نقدر أن نضبطه».

وقول الحنفاء: «لا إله إلا الله» هو اعتقاد يوجب العبودية لله وحده لا شريك له، وذلك تألُّه الموحِّدين لله ربِّ العالمين لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ قول القائل: «لا إله إلا الله» فيه إفراد الإلهية لله وحده، وذلك يتضمَّن التَّوحيد لله تصديقًا وعملًا».

وهذا حقيقة الدِّين كلِّه، وهو الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيِّنة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الدين لا يكون دينًا إلَّا بعمل؛ فإنَّ الدِّين يتضمَّن الطَّاعة والعبادة».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبعبوديَّة الله عَزَّوَجَلَّ وطاعته وطاعة رسوله ﷺ يدخل المسلمون الجنَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٥٩٨).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٥٩٦).

والحنفاء أخلصوا إراداتهم وأقوالهم وأعمالهم لله، فإذا تكلَّموا تكلَّموا بعلم ونصروا السنَّة، قصدهم نصرة الحقِّ والدَّعوة إليه، عباداتهم لله علىٰ الصفة التي أدَّاها النبيُّ ﷺ، يوالون في الله ويدعون إليه، مقاماتهم يبتغون بها وجه الله لتكون كلمة الله هي العليا، لا ينتصرون حميَّة ولا جاهلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلىٰ الله وإقبالهم عليه دون ما سواه، بحيث يكونون حنفاء له، مخلصين له الدين، لا يحبُّون شيئًا إلَّا له، ولا يتوكَّلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلَّا له، ولا يسألون إلا إيَّاه، ولا يرجون إلا إيَّاه، ولا يخافون إلا إيَّاه، يعبدونه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خَلْق، وعند الخَلْق بلا هوًىٰ، قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبَّة ما سواه بمحبَّته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه، وهو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلَّا من له نصيب.

وما من مؤمن إلا له منه نصيب، وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، والله سبحانه أعلم».

والحنفاء إذا مال بهم الهوىٰ جرَّدوا التَّوحيد الخالص لله، وسعوا في اتِّباع أمر الله، وبرئوا من سوىٰ الله، هكذا فعل سادات الحنفاء وأولياء الله وصفوة خلقه وأفضل عباده؛ فإنَّ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ استعجل عذاب الله لقومه الذين كفروا بما بُعث به، وكان ذلك منه خشية أن يكذبه قومه حيث كان يحذِّرهم عذاب الله،

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٦٤٧، ٦٤٨).

فكان تقدير الله الكوني رحمة بقوم يونس حيث آمنوا بعد ذلك، وكان حال يونس بعد أوبته إلىٰ الله أكمل من حاله حين استعجل عذاب قومه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذهب مغاضبًا، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]، ففعل ما يلام عليه، فكان المناسب لحاله أن يبدأ بالثناء علىٰ ربِّه والاعتراف بأنَّه لا إله إلا هو، فهو الذي يستحقُّ أن يُعبد دون غيره، فلا يطاع الهوىٰ؛ فإنَّ اتباع الهوىٰ يضعف عبادة الله وحده، وقد روي أنَّ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ندم علىٰ ارتفاع العذاب عن قومه بعد أن أظلَّهم، وخاف أن ينسبوه إلىٰ الكذب، فغاضب وفعل ما اقتضىٰ الكلام الذي ذكره الله تعالىٰ، وأن يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وهذا الكلام يتضمَّن براءة ما سوىٰ الله من الإلهية، سواء صدر ذلك عن هوىٰ النفس، أو طاعة الخلق، أو غير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنُّه وهو غير مطابق، وفيما يريده وهو غير حسن».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «المقصود هنا أنَّ ما تضمَّنته قصَّة ذي النُّون ممَّا يُلام عليه، كلُّه مغفور بدَّله الله به حسنات، ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم منه قبل أن يقع ما وقع».

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٦٠٧، ٦٠٨).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٦٢٠).

فمن أظهر وأخصِّ حقائق الحنيفيَّة: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، فهو أساسها وروحها وبناؤها.

وتجد هذه الحقيقة صريحة الذِّكر في أعظم ما عُرفت به ملَّة إبراهيم في بناء الكعبة وإقام الصَّلاة ومشاعر الحجِّ ونسك الأضحية.

قال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

والحنفاء المسلمون اصطفاهم الله إليه، فجعلهم من عباده المؤمنين، ولإخلاصهم لله وحده لا شريك له أخلصهم فصارت إراداتهم وأقوالهم وأعمالهم في توحيد الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد ثبت في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**من قال: لا إله إلَّا الله، مخلصًا من قلبه؛ حرَّمه الله علىٰ النار**»، فإنَّ الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين: «لا إله إلا الله»، لم يحقِّق إخلاصها المحرِّم له علىٰ النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمَّة أخفىٰ من دبيب النمل؛ ولهذا كان العبد مأمورًا في كلِّ صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «بيَّن سبحانه أنَّ إقامة الوجه - وهو إخلاص

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٥٨٤).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ١٠٧٨).

القصد، وبذل الوُسع لدينه، المتضمِّنُ محبَّته وعبادته، حنيفًا، مقبلًا عليه، معرضًا عمَّا سواه - هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خُلُّوا ودواعي فِطَرهم لما رغبوا عن ذلك، ولا اختاروا سواه، ولكن غيِّرت الفِطرُ وأُفسِدت، كما قال النبيُّ ﷺ: «**ما من مولود إلَّا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟ حتىٰ تكونوا أنتم تجدعونها**»، ثمَّ يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ جماع الحسنات العدل، وجماع السيِّئات الظلم، وهذا أصل جامع عظيم، وتفصيل ذلك: أنَّ الله خلق الخلق لعبادته، فهذا هو المقصود المطلوب لجميع الحسنات، وهو إخلاص الدين كلِّه لله وما لم يحصل فيه هذا المقصود فليس حسنة مطلقة مستوجبة لثواب الله في الآخرة، وإن كان حسنة من بعض الوجوه له ثواب في الدنيا، وكل ما نهىٰ عنه فهو زيغ وانحراف عن الاستقامة ووضع للشيء في غير موضعه، فهو ظلم».

وقال تعالىٰ: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**﴾ [الأعراف: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أمر بإقامة الوجه له عند كلِّ

(١) تفسير شيخ الإسلام (٣/ ١٥٢).

(٢) تفسير شيخ الإسلام (٣/ ١٥١).

مسجد، وهو التوحيد، وتوجيه الوجه إليه سبحانه، فإنَّ توجيهه إلىٰ غيره زيغ. وبالإخلاص يكون العبد قائمًا، وبالشرك زائغًا، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]، وإقامته توجيهه إلىٰ الله وحده، وهو أيضًا إسلامه؛ فإنَّ إسلام الوجه لله يقتضي إخضاعه له، وإخلاصه له».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأوَّلين والآخرين من الرسل – عليهم الصلاة والسلام –، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمَّة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبويَّة، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، قال الله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ١-٣]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وهذه ملَّة إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أي: أخلص قصده وعمله لله وهو محسن في عمله، فيكون الله هو معبوده بالعمل

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٧٥).

(٢) الصفدية (٢/ ٢٦٢).

الصالح؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اللهمَّ اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»، وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ السنَّة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «إنَّ الإسلامَ له ضدَّان: الإشراك والاستكبار؛ لأنَّه الاستسلام لله وحده، كما يترجم فيه شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمَّدًا عبده ورسوله، فمن استسلم لله ولغير الله؛ فقد أشرك بالله، وجعَل له عِدْلًا وندًّا وشريكًا، ومن لم يستسلم بحالٍ؛ فقد استكبر كحال فرعون وغيره. ولهذا قال: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٧-١٩]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «الإسلام هو الاستسلام لله وحده، ولفظ الإسلام يتضمَّن الإسلام ويتضمَّن إخلاصه لله، وقد ذكر ذلك غير واحدٍ، حتىٰ أهل العربيَّة، كأبي بكر بن الأنباري وغيره.

ومن المفسِّرين من يجعلهما قولين، كما يذكر طائفة منهم البغويُّ: أنَّ

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٢٣).

(٢) النبوَّات (١/ ٣٤٦ - ٣٤٨).

المسلم هو: المستسلم لله، وقيل: هو المخلص.

والتحقيق: أنَّ المسلم يجمع هذا وهذا، فمن لم يستسلم له لم يكن مسلمًا، ومن استسلم لغيره كما يستسلم له؛ لم يكن مسلمًا.

ومن استسلم له وحده فهو المسلم، كما في القرآن: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

والاستسلام له يتضمَّن الاستسلام لقضائه، وأمره ونهيه، فيتناول فعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]».

والإسلام هو الخضوع لله والتواضع له والإخلاص بالانقياد له، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ العبادة والدين والعمل له لا يكون إلَّا مع الخضوع له والتواضع، وهو مستلزم لذلك.

ولكن أولئك – أبو العالية والبغوي – ذكروا مع هذا أن يكون هذا الإسلام لله وحده، فذكروا المعنيَيْن: الاستلام، وأن يكون لله.

وقول من قال: خضع وتواضع لله، يتضمَّن أيضًا أنَّه أخلص عبادته ودينه لله، فإنَّ ذلك يتضمَّن الخضوع والتواضع لله دون غيره».

---

(١) النبوَّات (١/ ٣٥٠).

فالحنيفية هي إخلاص الاعتقاد والإرادة والقول والعمل لله وحده لا شريك له، وهو تألُّه صادق بتحقيق العبوديَّة لله وحده، والإقبال عليه، والميل عمَّا سواه، وبغض ما يُعبد من دون الله والكفر به.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تحقيق قول: «لا إله إلا الله»، وهو إثبات تألُّه القلب لله حبًّا خالصًا وذلًّا صادقًا، ومنع تألهه لغير الله، وبغض ذلك وكراهته؛ فلا يعبد إلَّا الله، ويحب أن يعبده، ويبغض عبادة غيره، ويحب التوكُّل عليه وخشيته ودعاءه، ويبغض التوكُّل علىٰ غيره وخشيته ودعاءه».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الإخلاص أن يُخلص – المسلم – لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيَّته، وهذه هي الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلَّهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهي ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي من رغب عنها فهو من أسفه السُّفهاء».

❁ ❁ ❁

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٠٨، ١٠٠٩).

(٢) الجواب الكافي (ص٣١٢، ٣١٣).



الخُلَّة

الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنَّما نال هذه الرُّتبة باصطفاء الله له لهذه المرتبة العليَّة، ولقيامه بأسباب ما يحبُّه الله ويرضاه، ولن يبلغ أحد مرتبة الخليلين - عليهما الصلاة والسلام - في ذلك، وإنَّما يتفاضل النَّاس في مراتب محبَّة الله بحسب ما يأتون بأسباب ذلك، فمن أخذ بأسباب ذلك فهو ممَّن تبع الخليلين - عليهما السلام -.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الناس في حبِّ الله يتفاضلون ما بين أفضل الخلق محمَّد وإبراهيم – صلىٰ الله عليهما وسلم - إلىٰ أدنىٰ الناس درجة، مثل من كان في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان، وما بين هذين الحدَّين من الدرجات لا يحصيه إلا ربُّ الأرض والسموات، فإنَّه ليس في أجناس المخلوقات ما يتفاضل بعضه علىٰ بعض كبني آدم».

وسبب تفاضل النَّاس في محبَّة الله يرجع إلىٰ اتِّباع النبيِّ ﷺ في الشَّرع الذي بلَّغه، قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٣١]، وكلُّ الأوصاف المترتِّبة علىٰ حبِّ الله إنَّما ترجع إلىٰ هذا المعنىٰ الكلِّي.

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٦٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قد أخبر تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ و﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ و﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] و﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]».

وقال شيخ الإسلام(٢): «قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فاتباع سنَّة رسوله ﷺ وشريعته باطنًا وظاهرًا هي موجب محبَّة الله كما أن الجهاد في سبيله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها، كما في الحديث: «**أوثق عرىٰ الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله**»».

ومحبَّة الله تُدرك بطاعته في أداء فرائضه والنَّوافل، فقد روىٰ البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**قال الله تعالىٰ: ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتىٰ أحبَّه**».

والنَّاس طبقات في طاعتهم وعبوديَّتهم لله، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]، وكذلك السابقون يتفاضلون في سبقهم، قال الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما سبقت أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ خير إلَّا سبقني.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أمَّا المحبَّة لله والتوكُّل عليه

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٦٥).

(٢) التحفة العراقيَّة في الأعمال القلبيَّة (ص٤٤٦).

(٣) التحفة العراقيَّة في الأعمال القلبيَّة (ص٣١٣).

والإخلاص له، ونحو ذلك؛ فهذه كلُّها خير محض، وهي حسنة محبوبة في حقِّ كلِّ النبيِّين - عليهم السلام - والصدِّيقين والشهداء والصَّالحين».

ثمَّ قال شيخ الإسلام متمِّمًا(١): «ولكن هذه المقامات ينقسم النَّاس فيها إلىٰ خصوص وعموم».

ومحبَّة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ هي الأصل والأساس الذي يتحقَّق به الإيمان، فهي علم وعمل، واعتقاد القلب الموجب لعمل الجوارح.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجلِّ قواعده، بل هي أصل كلِّ عمل من أعمال الإيمان والدِّين، كما أنَّ التَّصديق به أصل كلِّ قول من أقوال الإيمان والدِّين».

وقال شيخ الإسلام أيضًا(٣): «جميع الأعمال الإيمانيَّة الدِّينيَّة لا تصدر إلَّا عن محبَّة الله تعالىٰ».

والموحِّدون يعبدون الله حبًّا له ورجاءً لجنَّته وخوفًا من ناره، والرَّجاء والخوف يرجع إلىٰ المحبَّة لله وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «إذا كانت المحبَّة أصل كلِّ عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما تستلزم المحبَّة وترجع إليها، فإنَّ الراجي الطامع إنَّما يطمع فيما يحبُّه لا فيما يبغضه، والخائف يفرُّ من المخوف لينال

---

(١) التحفة العراقيَّة في الأعمال القلبيَّة (ص٣١٣).

(٢، ٣) التُّحفة العراقية في الأعمال القلبيَّة (ص٣٧٣).

(٤) التُّحفة العراقية في الأعمال القلبيَّة (ص٣٩٩).

المحبوب، قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]، ورحمته: اسم جامع لكلِّ خير، وعذابه: اسم جامع لكل شرٍّ، ودار الرحمة الخالصة هي: الجنَّة، ودار العذاب الخالص هي: النار».

والخليلان إبراهيم ومحمَّد - عليهما الصلاة والسلام - والموحِّدون من عباد الله حبُّهم لله تألُّهًا وعبوديَّة لكمال ربِّنا، فهو الذي يُحَبُّ لذاته، فأسماؤه حسنىٰ وصفاته علىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الله هو المستحقُّ لأعلىٰ الكمال، وكل ما في غيره من محبوب فهو منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهوالمستحقُّ لأن يحَبَّ علىٰ الحقيقة والكمال، وإنكار محبَّة العبد لربِّه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلهًا معبودًا كما أنَّ إنكار محبَّته لعبده يستلزم إنكار مشيئته، وهو مستلزم إنكار كونه ربًّا خالقًا، فصار إنكارها مستلزمًا لإنكار كونه ربَّ العالمين، ولكونه إله العالمين، وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود. ولهذا اتفقت الأمَّتان قبلنا علىٰ ما عندهم من مأثور وأحكام عن موسىٰ وعيسىٰ - صلوات الله عليهما وسلامه - أنَّ أعظم الوصايا: أن تحبَّ الله بكلِّ قلبك وعقلك وقصدك، وهذا هو حقيقة الحنيفية ملَّة إبراهيم عليه السلام، التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل

---

(١) التُّحفة العراقية في الأعمال القلبيَّة (ص٤٢٥ - ٤٢٧).

والقرآن، وإنكار ذلك هو مأخوذ عن المشركين والصابئين أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام ومن وافقهم علىٰ ذلك من متفلسف ومتكلِّم ومتفقِّه أو مبتدع أخذ من هؤلاء، وظهر ذلك في القرامطة الباطنية من الإسماعيلية».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا ربَّ إلا الله، ولا إله غيره، والإله هو: المعبود الذي يستحقُّ أن يحَبَّ لذاته، ويُعظَّمَ لذاته، بكمال المحبَّة والتعظيم.

وكلُّ مولود يولد علىٰ الفطرة، فإنَّ الله سبحانه فطر القلوب علىٰ أنَّه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئنُّ إليه وتنتهي إليه إلا الله وحده».

فالمحبَّة أصل الدِّين التي توجب التألُّه لله والإنابة إليه والموالاة له، وإيثار محابِّه علىٰ كلِّ محبوب.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «جاءت محبَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مذكورة بما يختصُّ به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتُّل له، ونحو ذلك، فكلُّ هذه الأسماء تتضمَّن محبَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤].

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٤٢٣).

(٢) التُّحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٩٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ المحبَّة مستلزمة للجهاد، ولأنَّ المحبَّ يحبُّ ما يحبُّ محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضىٰ لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهىٰ عمَّا ينهىٰ عنه، فهو موافق له في ذلك».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «- المحبَّة - هي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلَّا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلَّا بها، فليشتغل بها العبد أو ليُعرض عنها.

ومن لم يتحقَّق بها علمًا وحالًا وعملًا لم يتحقَّق بشهادة أن لا إله إلا الله، فإنَّها سرُّها وحقيقتها ومعناها، وإن أبىٰ ذلك الجاحدون، وقصر عن علمه الجاهلون؛ فإنَّ الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبِّها، وتخضع له، وتذلُّ له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهمَّاتها، وتتوكَّل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه، وتطمئنُّ بذكره، وتسكن إلىٰ حبِّه، وليس ذلك إلَّا لله وحده، ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته، فهذه المسألة قطب رحىٰ الدين الذي عليه مداره».

---

(١) التُّحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٩١، ٣٩٢).

(٢) طريق الهجرتين (ص٣٢٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «محبَّة «التوحيد» إنَّما تكون لله وحده، علىٰ متابعة رسوله ﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٣١]، فلهذا يكون أهل الاتباع فيهم جهاد ونيَّة في محبَّتهم، يحبُّون لله، ويبغضون له، وهم علىٰ ملَّة إبراهيم والذين معه ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: ««الخلَّة» هي: كمال المحبَّة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الربِّ سبحانه كمال الربوبيَّة لعباده الذين يحبُّهم ويحبُّونه، ولفظ العبوديَّة يتضمَّن كمال الذلِّ وكمال الحبِّ، فإنَّهم يقولون: قلب متيَّم؛ إذا كان متعبِّدًا للمحبوب، والمتيم المتعبد، وتيم الله عبده، وهذا علىٰ الكمال حصل لإبراهيم ومحمَّد - صلىٰ الله عليهما وسلم -؛ ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل؛ إذ الخلَّة لا تحتمل الشركة؛ فإنَّه كما قيل في المعنىٰ:

قـد تخللـت مسـلك الـروح منـي ... وبـــذا سُـــمِّي الخليـــل خلـــيلا

بخلاف أصل الحبِّ فإنَّه ﷺ قد قال في الحديث الصحيح في الحسن وأسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**اللهم إني أحبُّهما فأحبَّهما وأحبَّ من يحبهما**»، وسأله عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: **عائشة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. قال: فمن الرجال؟ قال: **أبوها**»، وقال لعليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لأعطينَّ الراية رجلًا يحبُّ الله**

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٦١٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٠٣، ٢٠٤).

ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله»، وأمثال ذلك كثير.

وقد أخبر تعالىٰ أنَّه يحبُّ المتقين، ويحب المحسنين، ويحب المقسطين، ويحب التوَّابين، ويحبُّ المتطهِّرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، فقد أخبر بمحبَّته لعباده المؤمنين، ومحبَّة المؤمنين له، حتىٰ قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأمَّا الخلَّة فخاصَّة. وقول بعض الناس: إنَّ محمدًا حبيب الله، وإبراهيم خليل الله، وظنُّه أنَّ المحبَّة فوق الخلَّة؛ قولٌ ضعيف، فإنَّ محمدًا ﷺ أيضًا خليل الله، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصَّحيحة المستفيضة.

وما يروىٰ أنَّ العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحشر بين حبيب وخليل، وأمثال ذلك؛ فأحاديث موضوعة لا تصلح أن يُعتمد عليها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «المقصود هو أنَّ «الخلَّة» و«المحبَّة لله»، تحقيق عبوديَّته، وإنَّما يغلط من يغلط في هذه من حيث يتوهَّمون أنَّ العبوديَّة مجرَّد ذلٍّ وخضوع فقط، لا محبَّة معه، أو أنَّ المحبَّة فيها انبساط في الأهواء، أو إذلال لا تحتمله الرُّبوبيَّة».

والخلَّة مرتبةٌ اصطفاها الله لمخلوقَيْن اثنين لا ثالث لهما، وبذلك ظهر فضلها علىٰ الخلق جميعًا؛ الخليلين إبراهيم ومحمَّد - عليهما أفضل الصَّلاة

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).

والسَّلام -، وشأن المؤمن الرَّغبة في كلِّ خير، والسَّعي إلىٰ تحصيل كلِّ فضيلة، فسارع إلىٰ تحقيق محبَّة الله التي هي مبدأ الخلَّة وأساسها؛ لعلَّك تدرك منها ما تكون به تلو الأنبياء مباشرةً، ومن سعىٰ في إدراكها أعانه الله.

قال تعالىٰ في شأن عباده المقرَّبين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومحبَّة الله لخلقه صفة حقيقيَّة تليق بجلاله وعظمته، ليس كمثله شيء.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المحبَّة لا تنفكُّ عن تعظيم وإجلال للمحبوب، ولكن يُضاف إلىٰ كلِّ ذات بحسب ما تقتضيه خصائص تلك الذَّات، فمحبَّة العبد لربِّه تستلزم إجلاله وتعظيمه، وكذلك محبَّة الرسول ﷺ تستلزم توقيره، وتعزيزه، وإجلاله.

وكذلك محبَّة الوالدين، والعلماء، وملوك العدل، وأمَّا محبَّة الربِّ عبده فإنَّها تستلزم إعزازه لعبده، وإكرامه إيَّاه، والتنويه بذكره، وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه؛ فهذا المعنىٰ ثابت في محبَّته وحمده لعبده، سُمِّي تعظيمًا وإجلالًا أو لم يُسَمَّ».

❁ ❁ ❁

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).

البصيرة في العلم
والقوَّة في العمل

أصل ملَّة إبراهيم هي العلم النَّافع والعمل الصَّالح؛ والبصيرة في العلم، والقوَّة في العمل؛ فإنَّ الإنسان إذا كانت اعتقاداته وأقواله وأعماله عن علم نافع بالله وبالصِّراط الموصِّل إليه؛ هُدي وكان حنيفًا، وهذا أساس ملَّة إبراهيم ودعوته؛ حيث قال محاجًّا أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قال العلَّامة أبو المظفَّر السَّمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ قال الزجَّاج: معناه: جهل نفسه، وكلُّ سفيهٍ جاهلٌ، وذلك أنَّ من جهل نفسه لم يعرف الله».

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «وصفهم بالقوَّة في العمل والبصيرة في العلم، وأصل القوَّة قوَّة القلب الموجبة لمحبَّة الخير وبُغض الشرِّ؛ فإنَّ المؤمن قوَّته في قلبه وضعفه في جسمه، والمنافق قوَّته في جسمه وضعفه في قلبه.

---

(١) تفسير القرآن (١/ ١٤١).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٤٢٧).

فالإيمان لابُدَّ فيه من هذين الأصلين: التصديق بالحقِّ والمحبَّة له، وهذا أصل القول، وهذا أصل العمل، ثم الحبُّ التامُّ مع القدرة، يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر والعمل الظاهر».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في الأنعام يقرِّر التَّوحيد، ثمَّ النبوَّة في وسطها، ثم يختمها بأصول الشَّرائع والتَّوحيد أيضًا، وهو ملَّة إبراهيم».

فالخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بُعث بالعلم النَّافع، الذي به يتألَّه الحنفاء لربِّهم، وبه يعبدونه وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يكون العلم حقًّا وهو ما أخبرَتْ به الرُّسل، فالعلم الحقُّ هو ما أخبروا به، والإرادة النافعة إرادة ما أُمروا به، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له، فهذا هو السعادة، وهو الذي اتَّفقت عليه الأنبياء كلُّهم، فكلُّهم دعوا إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك إنَّما يكون بتصديق رسله -عليهم السلام- وطاعتهم.

فلهذا كانت السعادة متضمِّنة لهذين الأصلين: الإسلام، والإيمان، عبادة الله وحده، وتصديق رسله، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، قال أبو العالية: هما خصلتان يُسأل عنهما كلُّ أحد؛ يقال: لمن كنتَ تعبد؟ وبماذا أجبت المرسلين؟».

---

(١) النبوات (٢/ ١٠٦٨).

(٢) النبوات (١/ ٤١٠، ٤١١).

والعلم بالله والعمل بطاعته والتألُّه له يورث الحياة الطيِّبة، وسعادة الدَّارين، ونعيم الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قد جعل الله الحياة الطيِّبة لأهل معرفته ومحبَّته وعبادته، فقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقد فُسرت الحياة الطيِّبة بالقناعة والرضا والرزق الحسن وغير ذلك.

والصواب أنَّها حياة القلب، ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان، ومعرفة الله ومحبَّته والإنابة إليه، والتوكُّل عليه، فإنَّه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنَّة، كما كان بعض العارفين يقول: إنَّه لتمرُّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنَّة في مثل هذا إنَّهم لفي عيش طيِّب، وقال غيره: إنَّه ليمرُّ بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا.

وإذا كانت حياة القلب حياة طيِّبة تبعته حياة الجوارح؛ فإنَّه مَلِكُها، ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيِّبة تكون في الدُّور الثلاث؛ أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، والمعيشة الضنك أيضًا تكون في الدور الثلاث، فالأبرار في النعيم هنا وهنالك، والفجَّار في الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ [النحل: ٣٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٤٠٦، ٤٠٧).

تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ٣]. فذِكْرُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ومحبَّته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة».

وحسن القصد في طلب العلم والعمل به يُدرك به الحنفاء أسباب الزِّيادة من هدي الحنيفيَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم، وحسن القصد من أعون الأشياء علىٰ نيل العلم ودركه، والعلم الشَّرعي من أعون الأشياء علىٰ حسن القصد والعمل الصَّالح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قد ذكر القرآن صلاح القوَّة النظرية العلمية، والقوة الإرادية العملية في غير موضع، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ [الفتح: ٢٨]، فالهدىٰ كمال العلم، ودين الحقِّ كمال العمل، كقوله: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، وقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ [فاطر: ١٠] وفي خطبة النبيِّ ﷺ: «**إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد**»».

---

(١) الفتاوىٰ العراقيَّة (٢/ ٧١٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٥٩).

ومن علم أنَّ أساس الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم البصيرة في العلم والقوَّة في العمل؛ فليطلب علم الوحي الذي يدلُّ علىٰ كلِّ خير، ويحذِّر من كلِّ شرٍّ، ويهدي إلىٰ النور ويبصِّر من الضَّلالة، ويغذِّي القلوب بالإيمان بالله.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

قال العلَّامة عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادَّة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشُّبهات، القادحة في العلم اليقيني، فإنَّ ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، ممَّا يوجب للعبد الرغبة والرهبة.

وإذا وُجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة من الشرِّ، ونمتا علىٰ تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن؛ أوجب ذلك تقديم مراد الله علىٰ مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحبُّ إلىٰ العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلَّة التي صرَّفها الله غاية التصريف، وبيَّنها أحسن بيان، ممَّا يزيل الشُّبه القادحة في الحقِّ، ويصل به القلب إلىٰ أعلىٰ درجات اليقين.

وإذا صحَّ القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلُّها، فإنَّها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده. ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٣٨١).

فالهدىٰ هو العلم بالحقِّ والعمل به.

والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدىٰ به، فالهدىٰ أجلُّ الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدىٰ به، ولا يكون رحمة إلَّا في حقِّ المؤمنين».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «العلم به — سبحانه – أصل كلِّ علم وجامعه، وذكره أصل كلِّ كلام وجامعه، والعمل له أصل كلِّ عمل وجامعه، وليس للخلق صلاح إلَّا في معرفة ربِّهم وعبادته، وإذا حصل لهم ذلك فما سواه إمَّا: فضل نافع، وإمَّا فضول غير نافعة، وإما أمر مضر.

ثمَّ من العلم به تتشعَّب أنواع العلوم، ومن عبادته وقصده تتشعَّب وجوه المقاصد الصالحة، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصمٌ مستمسك، قد لجأ إلىٰ ركن وثيقٍ، واعتصم بالدليل الهادي والبرهان الوثيق، فلا يزال إمَّا في زيادة العلم والإيمان، وإما في السلامة عن الجهل والكفر، وبهذا جاءت النصوص الإلهية في أنَّه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وضرب مثل المؤمن – وهو المقرُّ بربِّه علمًا وعملًا – بالحي والبصير، والسميع، والنور، والظل.

وضرب مثل الكافر بالميِّت، والأعمىٰ، والأصمِّ، والظلمة، والحَرُور».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كمال النفس المطلوب ما تضمَّن أمرين:

أحدهما: أن يصير هيئة راسخة وصفة لازمة لها.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ١٦).

(٢) الفوائد (ص١١٩ – ١٢١).

الثاني: أن يكون صفة كمال في نفسه.

فإذا لم يكن كذلك لم يكنْ كمالًا، فلا يليقُ بمن يسعىٰ في كمال نفسه المنافسة عليه، ولا الأسفُ علىٰ فوْتِهِ.

وذلك ليس إلا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها، وإلهها الحقِّ الذي لا صلاح لها ولا نعيمَ ولا لذَّة إلا بمعرفته وإرادة وجهه، وسلوك الطريق الموصلة إليه وإلىٰ رضاه وكرامته، وأن تعتاد ذلك فيصير لها هيئةً راسخةً لازمةً.

وما عدا ذلك من العلوم والإرادات والأعمال؛ فهي بين ما لا ينفعها ولا يُكمِّلُها، وما يَعُودُ بضررها ونقصها وألمها، ولا سيَّما إذا صار هيئةً راسخةً لها، فإنَّها تُعَذَّب وتتألَّمُ به بحسب لزومه لها.

وأمَّا الفضائل المنفصلة عنها كالملابس والمراكب والمساكن والجاه والمال، فتلك في الحقيقة عوارٍ أُعِيْرَتْها مدَّةً، ثم يرجع فيها المعير، فتتألَّم وتتعذَّب برجوعه فيها بحسب تعلُّقِها بها، ولا سيَّما إذا كانت هي غاية كمالها، فإذا سُلِبتها أُحْضِرت أعظم النقص والألم والحسرة.

فليتدبَّر من يريد سعادة نفسه ولذَّتَها هذه النُّكْتة، فأكثر هذا الخلق إنما يسعون في حرمان نفوسهم وألمها وحسرتها ونقصها من حيث يظنُّون أنَّهم يريدون سعادتها ونعيمها، فلذَّتُها بحسب ما حصل لها من تلك المعرفة والمحبَّة والسلوك، وألمها وحسرتها بحسب ما فاتها من ذلك.

ومتىٰ عَدِمَ ذلك وخلا منه لم يَبْقَ فيه إلَّا القوىٰ البدنيَّةُ النفسانية التي بها يأكل ويشرب وينكح ويغضب وينال سائر لذَّاته ومرافق حياته، ولا يلحقه من

جهتها شرف ولا فضيلة، بل خساسة ومنقصة، إذ كان إنَّما يناسب بتلك القوىٰ البهائم ويتَّصلُ بجنسها ويدخُل في جملتها ويصير كأحدها، وربَّما زادتْ في تناولها عليه واختصَّتْ دونه بسلامة عافيتها والأمن من جلب الضرر عليها.

فكمال تُشاركك فيه البهائم وتزيد عليك وتختصُّ عنك فيه بسلامة العاقبة؛ حقيقٌ أن تهجره إلىٰ الكمال الحقيقيِّ الذي لا كمال سواه».





الدعوات الصادقة الصالحة

قال تعالىٰ في وصف خليله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** الأوَّاه: الدَّعَّاء[١].

ومن أعظم أدعية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الصادقة دعوته أن يبعث الله في مكَّة رسولًا نبيًّا منها يُعلِّم الكتاب والحكمة، فاستجاب الله دعاءه وبعث محمدًا رسول الله ﷺ رسولًا وداعيًا إلىٰ الله.

قال تعالىٰ عن دعاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «استجاب الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الدعوة، وبعث هذا الرسول ﷺ كما دعا إبراهيم عليهما السلام، وأنزل الله تعالىٰ إعلامًا لهذه الأمَّة بإجابة الدَّعوة المشار إليها، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٧٥).

(٢) مجالس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (ص٢٣٣، ٢٣٤).

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية.

وقد أشار النبيُّ ﷺ إلىٰ إجابة هذه الدَّعوة الشريفة، فقال فيما خرَّجه أبو القاسم الطَّبراني في «معجمه الكبير» عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله! ما كان بدء أمرك؟ فقال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشَّر بي عيسىٰ، ورأت أمِّي أنَّه خرج منها نور أضاءت له قصور الشَّام**»، وللحديث طرق».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أما قول الخليل وإسماعيل - عليهما السلام - وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فإنَّه توسُّل إلىٰ الله بهذين الاسمين إلىٰ قبول هذا العمل الجليل، حيث كان الله يعلم نيَّاتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعاءهما، فإنَّه يراد بالسميع في مقام الدعاء - دعاء العبادة ودعاء المسألة - معنىٰ المستجيب؛ كما قال الخليل في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وأما ختم قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩] فمعناه: كما أنَّ بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزَّتك، وكمال حكمتك، فإنَّه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدًىٰ هملًا، لا يرسل إليهم رسولًا، فحقَّق الله حكمته ببعثه خاتمًا، كما حقَّق حكمته ورحمته ببعثة إخوانه المرسلين من قبله؛ لئلا يكون للناس علىٰ الله حجَّة، والأمور كلها: قدريها وشرعيها، لا تقوم إلَّا بعزَّة الله، ونفوذ حكمه».

---

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص٦٧، ٦٨).

الإنابة والأوبة إلى الله

أثنىٰ الله علىٰ خليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالإنابة إلىٰ الله، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ [هود: ٧٥].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإنابة إنابتان:

إنابة لربوبيَّته؛ وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامٌّ في حقِّ كل داعٍ أصابه ضرٌّ، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالىٰ في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و«الإنابة» الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبَّة، وهي تتضمَّن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه، فلا يستحق اسم «المنيب»، إلَّا من اجتمعت فيه هذه الأربعة، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور علىٰ ذلك، وفي اللفظة معنىٰ الإسراع والرجوع والتقدُّم.

و«**المنيب إلىٰ الله**»: المسرع إلىٰ مرضاته، الراجع إليه كلِّ وقت، المتقدِّم إلىٰ محابِّه».

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٦، ٣٣٧).

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، قال الحافظ عبد الرزَّاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال أبو عبيدة – معمر بن المثنىٰ -: هو فَعَّال من التأوُّه، ومعناه: متضرِّع شفقًا وفَرَقًا ولزومًا لطاعة ربِّه.

وقال الفرَّاء: هو الذي يتأوَّه من الذنوب.

ويُروىٰ عن النبي ﷺ في تفسير الأوَّاه: «أنَّه الخاشع الدَّعَّاء المتضرِّع».

وقال إبراهيم النخعي: كان أبو بكر الصدِّيق يسمَّىٰ الأوَّاه؛ لرأفته ورحمته.

وقال أبو سريحة: سمعت عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ المنبر يقول: ألا إنَّ أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أوَّاه منيب القلب، ألا إنَّ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نَاصَحَ الله فنصحه».

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: « - وَرَوَىٰ ابْن أَبِي حَاتِم - من طريق ابن مسعود بإسناد حسن قال: الأواه الرحيم، ولم يقل بلسان الحبشة ومِنْ طَرِيق عَبْد الله بْن شَدَّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَحَد كِبَار التَّابِعِينَ قَالَ: قَالَ رَجُل: يَا رَسُول الله! الْأَوَّاه؟ قَالَ: «**الْخَاشِع الْمُتَضَرِّع فِي الدُّعَاء**».

وَمِنْ طَرِيق اِبْن عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: الْأَوَّاه: الْمُوقِن.

وَمِنْ طَرِيق مُجَاهِدٍ قَالَ: الْأَوَّاه الْحَفِيظ: الرَّجُل يُذْنِب الذَّنْب سِرًّا، ثُمَّ يَتُوب مِنْهُ سِرًّا.

وَمِنْ وَجْه آخَر عَنْ مُجَاهِد قَالَ: الْأَوَّاه: الْمُنِيب الْفَقِيه الْمُوَفَّق».

❁ ❁ ❁

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٦١٨، ٦١٩).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٧٠، ٤٧١).



الهجرة إلى الله

الهجرة إلىٰ الله إقبال القلب والجوارح إلىٰ الله، والميل عن سواه، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الهجرة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، فإنَّها فرض عين علىٰ كلِّ أحد في كلِّ وقت، وأنَّه لا انفكاكَ لأحد من وجوبها، وهي مطلوبُ الله ومراده من العباد؛ إذ الهجرة هجرتان:

هجرة بالجسم من بلد إلىٰ بلد، وهذه أحكامها معلومة، وليس المرادُ الكلامَ فيها.

والهجرة الثانية: هجرة بالقلب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وهذه هي المقصودة هنا. وهذه الهجرةُ هي الهجرة الحقيقيَّة، وهي الأصل، وهجرة الجسدِ تابعةٌ لها، وهي هجرة تتضمَّن «مِن» و«إلىٰ»؛ فيهاجرُ بقلبه من محبَّة غير الله إلىٰ محبَّته، ومن عبوديَّةِ غيره إلىٰ عبوديَّته، ومن خوفِ غيرِه ورجائِه والتوكُّلِ عليه، إلىٰ خوفِ الله ورجائِه والتوكُّلِ عليه، ومن دعاء غيرِه وسؤالِه والخضوع له والذُّلِّ له والاستكانةِ له، إلىٰ دُعاءِ ربِّه وسؤالِه والخضوعِ له والذلِّ والاستكانةِ له. وهذا هو بعينه معنىٰ الفرار إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]؛ فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

وتحت «من» و«إلىٰ» في هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد؛ فإنَّ الفرارَ إليه

(١) الرسالة التَّبوكيَّة (ص١٥ - ٢٠).

سبحانَه يتضمَّنُ إفرادَه بالطلبِ والعبوديَّةِ، ولوازمها من المحبَّة والخشية والإنابة والتوكُّل وسائر منازل العبودية، فهو متضمِّن لتوحيد الإلهية التي اتفقتْ عليها دعوةُ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -.

وأمَّا الفرار منه إليه؛ فهو متضمِّن لتوحيدِ الربوبيَّة وإثباتِ القَدَر، وأنَّ كلَّ ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفرُّ منه العبد، فإنَّما أوجبتْه مشيئةُ الله وحدَه؛ فإنَّه ما شاء اللهُ كان ووجبَ وجودُه بمشيئته، وما لم يَشَأْ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته، فإذا فرَّ العبدُ إلىٰ الله فإنَّما يَفِرُّ من شيء إلىٰ شيء وُجِدَ بمشيئة الله وقَدَره؛ فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه. ومن تصوَّرَ هذا حقَّ تَصَوُّرِه فَهِمَ معنىٰ قوله ﷺ: «**وأعوذُ بك منكَ**»، وقوله: «**لا مَلْجَأَ ولا منجَا منك إلا إليك**». فإنَّه ليس في الوجود شيءٌ يُفَرُّ منه ويُستَعاذ منه ويُلْجَأ منه إلا وهو من الله خلقًا وإبداعًا. فالفارُّ والمستعيذ فارٌّ ممَّا أوجبه قَدرُ الله ومشيئتُه وخَلْقُه، إلىٰ ما تقتضيه رحمته وبِرُّه ولُطْفُه وإحسانه؛ ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، ومستعيذ بالله منه.

وتصوُّر هذين الأمرين يُوجِب للعبد انقطاعَ عَلَقِ قَلْبِه من غير الله بالكُلِّية خوفًا ورجاءً ومحبَّةً؛ فإنَّه إذا عَلِمَ أنَّ الذي يفرُّ منه ويستعيذ منه إنَّما هو بمشيئة الله وقدرته وخَلْقه، لمْ يَبْقَ في قلبه خوف من غير خالقه ومُوجِده؛ فتضمَّنَ ذلك إفرادَ الله وحدَه بالَخوف والحُبِّ والرَّجاء، ولوَ كان ذلك فراره ممَّا لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته لكان ذلك موجبًا لخوفه منه، مثل من يفرُّ من مخلوق آخرَ أقدرَ منه، فإنَّه في حال فراره من الأول إلىٰ الآخر خائفًا منه؛ حذرٌ أن لا يكون

الثاني يُعِيذه منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفرُّ إليه هو الذي قضىٰ وقدَّر وشاء ما يفرُّ منه؛ فإنَّه لا يبقىٰ في القلب التفات إلىٰ غيره بوجهٍ.

فتفطَّنْ لهذا السرِّ العجيب في قوله: «**أعوذ بك منك**»، و«**لا ملجأ ولا منجا منك إلَّا إليك**»؛ فإنَّ الناس قد ذكروا في هذا أقوالًا، وقلَّ منهم من تَعرَّض لهذه النكتة التي هي لُبُّ الكلامِ ومقصوده، وبالله التوفيق.

فتأمَّلْ كيف عاد الأمن كلُّه إلىٰ الفرار من الله إليه؛ وهو معنىٰ الهجرة إلىٰ الله تعالىٰ. ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**المهاجر من هَجَرَ ما نهىٰ الله عنه**».

ولهذا يَقْرِنُ سبحانَه بين الإيمان والهجرة في القرآن في غير موضع؛ لتلازمهما واقتضاءِ أحدِهما للآخر.

والمقصود أنَّ الهجرة إلىٰ الله تتضمَّنُ هُجران ما يكرهه، وإتيان ما يحبُّه ويرضاه، وأصلها الحبُّ والبُغْضُ؛ فإنَّ المهاجر من شيء إلىٰ شيء لابدَّ أن يكون ما يهاجر إليه أحبَّ إليه ممَّا يهاجر منه؛ فيؤثرُ أحبَّ الأمرين إليه علىٰ الآخر، وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنَّما يدعوهُ إلىٰ خلاف ما يحبُّه الله ويرضاه، وقد بُليَ بهؤلاء الثلاث، فلا تزال تدعوه إلىٰ غير مرضاة ربِّه، وداعي الإيمانِ يدعوه إلىٰ مرضاة ربِّه. فعليه في كلِّ وقت أن يهاجر إلىٰ الله، ولا يَنفكَّ في هجرة حتىٰ الممات».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا

---

(١) جلاء الأفهام (٣٩٠، ٣٩١).

وإذا أمسوا أن يقولوا: «**أصبحنا علىٰ فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبيِّنا محمَّد ﷺ وملَّة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**».

وتأمَّل هذه الألفاظ، كيف جعل الفطرة للإسلام! فإنَّه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله، والملَّة لإبراهيم عليه السلام؛ فإنه صاحب الملَّة، وهي التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، ومحبَّته فوق كلِّ محبَّة، والدين للنبيِّ ﷺ، وهو دينه الكامل، وشرعه التامُّ الجامع لذلك كلِّه».



النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قام إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنصيحة لله عَزَّوَجَلَّ بالدعوة إلىٰ التَّوحيد، وبالنَّصيحة للنَّاس كافَّة بدعوتهم إلىٰ التَّوحيد ونهيهم عن الشِّرك، وقام بالدَّعوة إلىٰ لوازم التَّوحيد وحقوقه وحقيقته من شرائع وشعائر الإسلام وأحكامه ومكارم الأخلاق وأنواع المعروف.

ونهىٰ الخليل عن الشِّرك وفروعه، وقام بتحطيم الأصنام، وإنكار أنواع المنكر طاعة لله عَزَّوَجَلَّ ونصيحة للخلق.

والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر هو ممَّا اتَّفقت عليه الشَّرائع كلُّها؛ لأنَّه به يُحفظ الدِّين ويُقوَّم الناس إلىٰ الحق وإلىٰ ما يعصمهم من شرور المنكرات، ومن سخط الله وعقابه.

قال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر هو من السَّاعين إلىٰ حفظ البلاد من أسباب الهلاك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]، وهو من السَّاعين في تزكية الدُّول والمجتمعات،

فيكون ذلك من أسباب صلاح النَّاس، وذلك هو التَّواصي مع الخلق بالحقّ والصبر، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر].

وأوَّل وأعظم ما أنكره إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من المنكر الشِّرك، وهو خاصيَّة دعوته التي قام بها، أنكر علىٰ طوائف المشركين أنواع شركهم، الصَّابئة عبَّاد النُّجوم والكواكب، وعبَّاد الأصنام، وغيرهم، علىٰ قرابته وقومه، والأبعدين، والملوك والضُّعفاء، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ [الزُّخرُف: ٢٦، ٢٧].

وابتُلي إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بابتلاءات شديدة بسبب قيامه بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ومن أعظم تلك الابتلاءات إلقاء المشركين له في النَّار.

وابتلاء الأنبياء بقدر إيمانهم، وأفضل الأنبياء أشدُّهم ابتلاءً، وتأييد الله لهم وتثبيتهم وتقوية عزائمهم وقوَّة إيمانهم بالله؛ كان من أسباب صبرهم علىٰ الأذىٰ بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

قال العلامة عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الإيمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الدين، وهو الجهاد البدني والمالي والقولي، جهاد الكفار بالسيف والسنان، وجهاد الكفار والمنافقين والمنحرفين في أصول الدين وفروعه بالحكمة والحجَّة والبرهان، فكلما قوي إيمان العبد علمًا ومعرفة وإرادة وعزيمة قوي جهاده، وقام بكل ما يقدر عليه بحسب حاله ومرتبته، فنال

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص٦٧، ٦٨).

الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة».

وقد أمر الله الحنفاء بالتأسِّي بسيِّدهم الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنَّهي عن الشِّرك، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وأمر الله الحنفاء بتلقِّي العلم من سيد الحنفاء في الدَّعوة والأمر بالتَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك، قال تعالىٰ بعد أن ذكر محاجَّة الخليل للصَّابئة في التَّوحيد: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فهذا خبر بمعنىٰ الحثّ علىٰ محاجَّة الباطل والدَّعوة إلىٰ التَّوحيد بالاستفادة من علوم إبراهيم في محاجة قومه.

فالواجب علىٰ المسلمين اتِّباع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالنَّصيحة للنَّاس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأوَّل ما تجب فيه النصيحة والأمر به التَّوحيد، وأعظم ما يجب النَّهي عنه من المنكر الشِّرك، والدَّعوة إلىٰ كل معروف والنَّهي عن كل منكر به تصلح أحوال البلاد والعباد، والقائمون بذلك هم خير النَّاس، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «علىٰ أهل الإسلام أن ينصَحَ بعضُهم لبعضٍ، كما قال النبي - ﷺ -: «**الدينُ النصيحةُ، الدينُ النصيحةُ، الدين**

(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص٢٣٧، ٢٣٨).

النصيحةُ»، قالوا: لِمَنْ؟، قال: «**لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله ﷺ ولأئمَّةِ المسلمين وعامَّتِهم**».

وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١].

فهؤلاء الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؛ أطِبَّاءُ الأديان، الذين تُشفَىٰ بهم القلوب المريضة، وتهتدي بهم القلوب الضالة، وترشُدُ بهم القلوبُ الغاوية، وتستقيم بهم القلوبُ الزائغة، وهم أعلامُ الهدىٰ ومصابيح الدُّجىٰ.

والهدىٰ والمعروفُ اسمٌ لكل ما أُمر به من الإيمان ودعائمه وشعَبه؛ كالتوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والمحبة والإخلاص والرضَا والإنابة وذكر الله تعالىٰ ودعائه والصدق والوفاء وصلة الأرحام وحسن الجوار وأداء الأمانة والعدل والإحسان والشجاعة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وغير ذلك.

والمُنْكَرُ اسمٌ لكلِّ ما نهىٰ اللهُ عنه من الكفر والكذب والخيانة والفواحش والظلم والجور والبخل والجبن والكبر والرياء والقطيعة وسوء المسألة واتباع الهوىٰ، وغير ذلك».

والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر هو من لوازم الإيمان بالله، فلا يصحّ إسلام مخلوق ما لم يكره ويُنكر الكفر والفسوق والعصيان، فلا ريب أن التألُّه لله عَزَّوَجَلَّ بكراهة الشِّرك والكفر وأنواع المنكر هو حقيقة الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم.

وقد نفىٰ النبي ﷺ الإيمان عمَّن لم يكره الكفر والفسوق والعصيان ولم ينكره حسب استطاعته حيث قال: «**وليس وراء ذلك حبَّة خردل من إيمان**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا يبيِّن أنَّ القلب إذا لم يكن فيه بغض ما يكرهه الله من المنكرات كان عادمًا للإيمان».

فالمسلم يجب عليه أن يعذر من نفسه إلىٰ الله بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو عقد الولاية بين المؤمنين علىٰ آصرة الإيمان بالله وذلك من حنيفية التَّوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مادَّة صلاح الأمم وخيريتها، قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن أعظم وأفضل أوصاف الخليل محمد ﷺ نصحه للناس؛ قال تعالىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتحرَّفت الشرائع من قبلنا شريعة التَّوراة والإنجيل بترك أحبار ورهبان أهل الكتاب إنكار المنكر، بل قصد أحبار السوء من بني إسرائيل تحريف التوراة لأجل ما وقع فيه بنو إسرائيل من المنكر، فكان ما فعله أحبار السوء منهم أعظم من المنكر الذي فعله عامَّتهم.

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٤٩).

وكان أحبار اليهود يكتمون الحق ويلبسون الحقّ بالباطل، وأعظم ما كتموه من الحقّ دلائل نبوَّة الخليل محمد ﷺ، وقد حذَّرهم الله وهو تحذير لنا من كتمان الحق أو تحريفه، قال سبحانه وتعالىٰ لبني إسرائيل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من لبس الحق بالباطل، فلم يُميِّز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتم الحقّ الذي يعلمه وأُمر بإظهاره؛ فهو من دعاة جهنم».

فليحذر العلماء من التشبُّه باليهود بكتمان العلم أو تحريفه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩]، فالعالم إذا أدَّىٰ العلم للنَّاس بعدل وصدق استغفر له كل شيء حتىٰ النَّملة في جحرها، وإذا كتم العلم أو حرَّفه لعنه كل شيء، وتحريف الدِّين بالبدع والكذب هذا من الغشّ للإسلام والمسلمين، وأولئك الذين كادوا الإسلام والمسلمين بشعار الإلحاد «الحرية قبل الشَّريعة» ضارُّوا أنفسهم وعقائد المسلمين.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أما تجويز الخروج علىٰ شريعة النبي ﷺ فإنَّه كفر لا شكَّ فيه، فإنَّه لو قال إنسان: إنَّه يجوز للإنسان أن يخرج عن شريعة النبي ﷺ، فماذا بقي من الإيمان؟ هذا كفر محض، وردَّة».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٨).

(٢) التعليق علىٰ كتاب الحسبة (ص١٥٥).

وفرق ما بين أمَّة الإسلام وبني إسرائيل؛ أنَّ الله اصطفىٰ لهذه الأمَّة من يحفظ عليها دينها وينصح لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله ﷺ ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم، ويحفظ شرائع وشعائر الإسلام، قال النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ يأتي وعد الله**»، رواه البخاري ومسلم.

والمؤمن إذا وُعظ ونُصح فواجبه قبول النَّصيحة، وشكر الآمر بالمعروف النَّاهي عن المنكر، يتواضع للحقّ وللخلق، فإنَّ الكبر بطر الحقّ وغمط الناس، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر**»، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان: ٧٣].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يقول: لم يصمُّوا عن الحقّ، ولم يَعْموا فيه، فهم - والله - قوم عقلوا عن الله، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ هذه من صفات المؤمنين، بخلاف الكافر فإنَّه إذا سمع كلام الله لا يؤثِّر فيه، ولا يُقصر عما كان عليه، بل يبقىٰ مستمرًّا علىٰ كفره وطغيانه وجهله وضلاله».

وواجب النَّاصح الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر موعظة المسلمين برفق؛ ليكون ذلك ترغيبًا للمنصوح للانتفاع بالوعظ، فإنَّ المقصود إصلاح الخلق والتَّواصي معهم علىٰ الحقّ، وليس المقصود سبّهم وتبكيتهم، ولذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨٥)، باختصار.

زجر النبي ﷺ من لَعَنَ شارب الخمر.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من أوصاف المؤمن التواضع للحقِّ وللخلق، والنصيحة لعباد الله علىٰ اختلاف مراتبهم قولًا وفعلًا ونيةً».

وقال العلامة السَّعدي[٢]: «المؤمن سليم القلب من الغشِّ والغلِّ والحقدِ، يحبُّ للمسلمين ما يحبُّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعىٰ بحسب وسعه في مصالحهم».

والنصيحة والكلمة الطيِّبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يبارك الله فيها إذا كانت بصدق وإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ واتِّباع لسنَّة النَّبي ﷺ في صفة النصيحة وإنكار المنكر.

قال العلامة أبو النجا موسىٰ بن أحمد الحجَّاويُّ الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٩٦٨هـ)**[٣]: «ليكن الباعث للمُنْكِرِ علىٰ إنكاره رجاء ثوابه، وخوف العقاب في تركه، وغضبًا لله علىٰ انتهاك محارمه، ونصيحة للمؤمنين، ورحمةً لهم، ورجاءَ إنقاذهم ممَّا أوقعوا أنفسهم فيه من التعرُّض لغضب الله وعقوبته في الدُّنيا والآخرة، وإجلالًا لله، وإعظامًا له ومحبَّةً، وأنَّه يُطاع فلا يُعْصىٰ، ويُشْكر فلا يُكْفَر، ويُذْكر فلا يُنْسىٰ، وأنَّه يُفتدىٰ من انتهاك محارمه بالنُّفوس والأموال، كما قال بعض السَّلف: وَدِدْتُ أنَّ الخلق كلَّهم أطاعوا الله، وأنَّ لحمي قُرِضَ بالمقاريض. ومن لحظ هذا المقام؛ هانَ عليه ما يلقىٰ من الأذىٰ في الله، وربَّما

(١، ٢) سؤال وجواب في أهمّ المهمَّات (ص٢١).

(٣) شرح منظومة الآداب الشَّرْعيَّة (ص١٣٥).

دعا لمن آذاه، كما قال ذلك النبيُّ ﷺ لمَّا ضربه قومه، فجعل يمسح الدَّمَ عن وجهه، ويقول: «**ربِّ اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون**».

ومن نماذج مناصحة الصَّحابة بعضهم بعضًا بالحسنىٰ، وتواصيهم بالحقّ، ورفقهم في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ أنَّ عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأىٰ علىٰ خباب بن الأرت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خاتمًا من ذهب، فقال: ألم يأن لهذا الخاتم أن يُلقىٰ؟!

قال خباب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أما إنَّك لن تراه عليَّ بعد اليوم، فألقاه، رواه البخاري.

ومراعاة أحوال الناس في أسلوب موعظتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ هو من ضروريَّات أدب وفقه النَّصيحة، فالأصل في معاملة المسلمين الرِّفق، قال النبي ﷺ: «**ما كان الرِّفق في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه**»، وإنَّما يُغلظ القول لمن أعلن بفسقه ساعيًا في إفساد الخلق، فالفاسد المُفسد من شرِّ الناس، وكذلك القاصد للنَّاصحين برفق بالاستطالة والأذىٰ والعدوان والسبّ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النَّاس يحتاجون إلىٰ مداراةٍ ورفقٍ في الأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجلًا مباينًا معلنًا بالفسق والردىٰ، فقد وجب عليك نهيه وإعلانه؛ لأنَّه يقال: ليس لفاسق حرمة، فهذا لا حرمة له[1].

ومقصود المسلم بالنَّصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ التعبُّد لله بذلك، وإبراء الذمَّة، وإصلاح الخلق والرحمة بهم، وإصلاح المجتمعات،

---

(١) الجامع لعلوم الإمام أحمد (١٣/ ٢٠١).

فأهل السنة من وسطيتهم أنهم ينصحون الخلق ويرحمونهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وسطية أهل السنة(١): «يرحمون الخلق فيريدون لهم الخير والهدىٰ والعلم، لا يقصدون الشر لهم ابتداءً بل إذا عاقبوهم وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا».

وقال ابن شيخ الحزاميين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «من أقسام المحاسبة الأمر بالمعروف إذا أمكن، والنهي عن المنكر مثله، بالرفق وحسن الإرشاد والتلطُّف، يكون غرضه نصح المسلم ونفعه ونجاته، لا مجرد تخليصه من عهدة الإنكار، ويجتنب فيه من التغليظة الموحشة للقلوب، اللهمَّ إذا أحوج الأمر إلىٰ ذلك، وعلم أنَّه يفيد، قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]».

والنَّاس إذا ظهر فيهم الفساد وضيَّعوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوشكوا أن يعمهم الله بعقابه، فالتَّفريط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هلكة.

عن النُّعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **عن النبيّ** ﷺ **قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استَهَمُوا علىٰ سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا علىٰ من فوقهم، فقالوا:**

---

(١) الرد علىٰ البكري (١/ ٣٨٠).

(٢) مدخل أهل الفقه واللسان إلىٰ ميدان المحبة والعرفان (ص٦٣).

لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا علىٰ أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»، رواه البخاري.

والناس إذا أنكروا المنكر بمنكر أنكر كما هي طريقة الخوارج ربما اصطلمت الأمور ووقع الشر والقتال بينهم وأهلكوا الناس وأوطانهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم، وينكر عليهم آخرون إنكارًا منهيًّا عنه؛ فيكون ذلك من ذنوبهم، فيحصل التفرُّق والاختلاف والشر، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديمًا وحديثًا إذ الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل أنواع، فيكون ظلم الأول وجهله من نوع وظلم كل من الثاني والثالث وجهلهما من نوع آخر.

ومن تدبر الفتن الواقعة رأىٰ سببها ذلك».

فدين الله وسط بين الإفراط والتَّفريط، شُرع فيه الأمر بالمعروف بالحسنىٰ، وشُرع فيه النَّهي عن المنكر بما لا يترتب عليه منكر أعظم منه؛ لأنَّ المقصود إزالة المنكر أو تخفيفه لا أن يعقبه منكر أعظم منه، والأمَّة إذا كانت وسطًا في دعوتها عمومًا وفي أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر خصوصًا ائتلفت واتفقت وتراحمت، وأدركت خيرات إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن ضيَّعت أو غلت في هذه الشَّعيرة العظيمة أصابها الشرّ.

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٧٤).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هو ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ من أسباب اجتماع الأمة واتِّحادها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥]، وهذا يدل علىٰ أنَّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للاختلاف والتفرُّق».

❁ ❁ ❁

(١) مع رجال الحسبة توجيهات وفتاوىٰ (ص٩، ١٠).



التحية بالسلام

دخلت الملائكة علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فحيَّوه بالسَّلام، وردَّ تحيَّتهم بأحسن منها، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فلمَّا دخلوا عليه – الملائكة – ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ﴾؛ أي: سلَّموا عليه، وردَّ عليهم السلام.

ففي هذا مشروعيَّة السلام، وأنَّه لم يزل من ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنَّ السلام قبل الكلام، وأنَّه ينبغي أن يكون الردُّ أبلغ من الابتداء؛ لأنَّ سلامهم بالجملة الفعلية الدالَّة علىٰ التجدُّد، وردَّه بالجملة الاسمية الدالَّة علىٰ الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير، كما هو معلوم في علم العربيَّة».

والله عَزَّوَجَلَّ هو السَّلام، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قوله ﷺ: «**إنَّ الله هو السَّلام**»، صريح في كون «السَّلام» اسمًا من أسمائه».

والجنَّة دار السَّلام، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وفي إضافتها إلىٰ السلام ثلاثة أقوال:

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنان (ص٤٠٣).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٦١٣).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٦٠١).

أحدها: أنها إضافة إلىٰ مالكها السَّلام سبحانه.

الثاني: أنَّها إضافة إلىٰ تحيَّة أهلها، فإن تحيَّتهم فيها «سلام».

الثالث: أنَّها إضافة إلىٰ معنىٰ السلامة، أي: دار السلامة، من كلِّ آفة ونقص وشر.

والثلاثة متلازمة، وإن كان الثالث أظهرها؛ فإنَّه لو كانت الإضافة إلىٰ مالكها لأُضِيفت إلىٰ اسم من أسمائه غير السلام».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وكذلك إضافتها إلىٰ التحيَّة ضعيف من وجهين:

أحدهما: أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة، وما يُضاف إلىٰ الجنَّة لا يكون إلَّا مختصًّا بها، كالخلْد والقرار والبقاء.

الثاني: أن غير التحية من أوصافها أكمل، مثل كونها دائمة، وباقية، ودار خُلْد، والتحيَّة فيها عارضة عند التلاقي والتزاور، بخلاف السلامة من كلِّ عيب ونقص وشرٍّ، فإنَّها من أكمل أوصافها المقصودة علىٰ الدوام، التي لا يتمُّ النعيم فيها إلَّا به، فإضافتها إليه أولىٰ».

وإلقاء المسلم السَّلام في تحيَّته لغيره هو جملة خبريَّة ودعائيَّة، فهو خبر منه بأن معاملته له سلام، ودعاء له بالسَّلامة من الشرِّ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «المعنىٰ: اسم السلام عليكم: و«السلام» هنا هو الله عَزَّوَجَلَّ، ومعنىٰ الكلام: نزلت بركة اسمه عليكم، وحلَّت عليكم».

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٠٢).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٦١٠).

وقال[1]: «إنَّ السَّلام علىٰ المسلم عليه دعاء له وطلب أن يَسْلَم».

والمقصود من السَّلام إيذان المسلَّم عليه بالسَّلام، والأمن من الشرِّ والأذىٰ والظُّلم والعدوان.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وملكه سلام من منازع فيه، أو مشارك، أو معاون مُظَاهِر، أو شافع عنده بدون إذنه.

وإلهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلَّا هو، وحِلْمه، وعَفْوه، وصَفْحه، ومغفرته، وتجاوزه؛ سلام من أن تكون عن حاجة منه، أو ذُلٍّ، أو مصانعة، كما يكون من غيره، بل هو مَحْض جُوْده وإحسانه وكرمه.

وكذلك عذابه وانتقامه وشدَّةُ بَطْشه وسرعة عقابه سلامٌ من أن يكون ظلمًا أو تشفِّيًا، أو غِلْظة أو قسوة، بل هو مَحْض حكمته وعدله، ووضعه الأشياء مواضعها، وهو ممَّا يستحقُّ عليه الحمدَ والثناء، كما يستحقُّه علىٰ إحسانه وثوابه ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضًا لحكمته ولعزَّته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته، فهو سلام ممَّا يتوهَّم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته.

وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجوْر والظلم، ومِنْ تَوَهُّم وقوعه علىٰ خلاف الحكمة البالغة، وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب، وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلافِ حكمته، بل شرعه

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦١١).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٦٠٣، ٦٠٤).

كلُّه حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلىٰ المُعْطىٰ، ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض، لا لمعاوضة ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة، لا يشوبه بخل ولا عجز».

والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سلَّم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من المكاره، قال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩].



التوكُّل على الله

أحوال ومقامات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عظيمة في التوكُّل علىٰ الله؛ لذلك ذكرها الله لنا لنتوكَّل علىٰ ربِّنا كما توكَّل سيد الحنفاء خليل الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]، ثم قال سبحانه عن مقام إبراهيم في التوحيد والبراءة من الشِّرك والتَّوكُّل علىٰ الله أنه قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٧-٨٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التوكُّل من أقوىٰ الأسباب التي يدفعُ بها العبد ما لا يطيق من أذىٰ الخلق وظلمهم وعدْوانهم، وهو من أقوىٰ الأسباب في ذلك، فإنَّ الله حسبه: أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضرُّه إلا أذًىٰ لا بدَّ منه، كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يَضُرَّهُ بما يبلغ منه مراده، فلا يكون أبدًا، وفَرْق بين الأذىٰ الذي هو في الظاهر إيذاء له، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يُتَشَفَّىٰ به منه.

قال بعض السلف: جعل الله تعالىٰ لكلِّ عمل جزاءً من جنسه، وجعل جزاء التَّوَكُّلِ عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ولم يقل: نُؤْته كذا وكذا من الأجْر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسَه سبحانه

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٦٦، ٧٦٧).

كافيَ عبده المتوكِّل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكَّل العبدُ علىٰ الله تعالىٰ حقَّ توكُّلِهِ، وكادَتْه السموات والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه ونصره».

ومقامات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عظيمة في التوكُّل علىٰ الله، وذلك التوكُّل مادته التوحيد والثقة بكفاية الله والطمأنينة إلىٰ ولايته وحفظه ورزقه وتدبيره.

قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّما يتوكَّلون عليه لطمأنينتهم إلىٰ كفايته، وأنَّه سبحانه حَسْبُ من توكَّل عليه، يهديه، وينصره، ويرزقه بفضله، ورحمته، وجوده.

فالتوكُّل عليه يتضمَّن الطمأنينة إليه، والاكتفاء به عمَّا سواه».

ومن أعظم مقامات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في التوكُّل علىٰ الله ترك الالتفات من تخويف المشركين له بآلهتهم وشركائهم التي لا تنفع ولا تضرُّ ولا تنصر ولا ترزق، وثباته علىٰ التوحيد، وتبيينه للمشركين أنَّهم أحقُّ الناس بغضب الله وسخطه وعقابه لشركهم.

قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢].

❁ ❁ ❁

(١) النبوات (١/ ٣٧٩، ٣٨٠).



الحكمة

النبيُّون - عليهم الصلاة والسلام - بُعثوا بالعلم والحكمة، وأساس الحكمة هو دعوتهم للتَّوحيد.

وإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آتاه الله الحكمة في بيان التَّوحيد والتحذير من الشِّرك.

وقد أثنىٰ الله علىٰ من أخذ بالحكمة في أحواله كلِّها، خصوصًا في الدَّعوة إلىٰ الله، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والحكمة تستفاد من العلم النافع، والأخذ بهدي المرسلين – صلىٰ الله عليهم وسلم –؛ فإنَّهم سادات الحكماء، ومقامات إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الدَّعوة إلىٰ الله كلُّها حكمة، دعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة وبعلم، وقوَّة في الحجَّة ونصرة الحقِّ، وسلوك لواضح المحجَّة في تبيين التَّوحيد والتَّحذير من الشِّرك، واستعمال أمثل أنواع الخطاب في مخاطبة المدعوِّين، وصبر علىٰ أذىٰ المكابرين والمعاندين لدعوة التَّوحيد.

ومن حكمة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ معاملته أبيه آزر الكافر بالحسنىٰ في الدَّعوة والصَّبر علىٰ أذاه، فقد حاجَّه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فاستطال آزر علىٰ سيِّد الحنفاء وتهدَّده بالقتل، فقابله إبراهيم بالحلم والصَّبر والردِّ بالحسنىٰ والاستغفار لأبيه.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ

مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٧].

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أمرنا الله باتِّباع ملَّة إبراهيم، فمن اتباع ملَّته سلوكُ طريقه في الدعوة إلىٰ الله، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة، إلىٰ مرتبة، والصبر علىٰ ذلك، وعدم السآمة منه، والصبر علىٰ ما ينال الداعي من أذىٰ الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعلي».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قول إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، فابتدأ خطابه بذكر أبوَّته الدالَّة علىٰ توقيره، ولم يُسَمِّه باسمه، ثم أَخْرج الكلام معه مخرج السؤال، فقال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، ولم يقل: لا تعبد، ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣]، فلم يقل له: إنَّك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلىٰ ألطف عبارة تدلُّ علىٰ هذا المعنىٰ، فقال: ﴿جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣] ثم قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٥٢٠).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٦١، ١٠٦٢).



الإحسان

إحسان الاعتقاد والقول والعمل؛ هو حقيقة الدِّين كلِّه، وهو الإخلاص لله وحده لا شريك له، وعبادته بما شرع، وبذلك يكون العمل حسنًا، ويكون كلُّه خالصًا لله، وتلك هي الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ومَن أحسَنَ العملَ فقد اتَّبع صراط الله المستقيم الذي هو عبادة الله بما شرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «العبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم، ونحو ذلك من الأسماء؛ مقصودها واحد، ولها أصلان: «**أحدهما**»: ألَّا يُعبد إلا الله.

و«**الثاني**»: أن يُعبد بما أمر وشرع، لا بغير ذلك من البدع، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، فالعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات.

و«الحسنات» هي ما أحبَّه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وهو ما أمر به أمر

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٧٢، ١٧٣).

إيجاب واستحباب، فما كان من البدع في الدين التي ليست مشروعة؛ فإنَّ الله لا يحبُّها ولا رسوله، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح، كما أنَّ من يعمل ما لا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات، ولا من العمل الصالح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في المحسنين**[1]: «هؤلاء يعلمون الحقَّ ويقصدونه، ويرحمون الخلق، وهم أهل صدق وعدل، أعمالهم خالصة لله، صواب موافقة لأمر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢]، قال الفضيل بن عياض وغيره: أخلصه وأصوبه، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون علىٰ السنَّة.

وهو كما قالوا، فإن هذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله، كما قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، فالذي أسلم وجهه لله: هو الذي يُخلص نيَّته لله، ويبتغي بعمله وجه الله.

والمحسن: هو الذي يُحسن عمله، فيعمل الحسنات، والحسنات هي: العمل الصالح، والعمل الصالح هو: ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ورسوله ﷺ من واجب ومستحبٍّ، فما ليس من هذا ولا هذا، ليس من الحسنات والعمل الصالح، فلا يكون فاعله محسِنًا».

والإحسان أصله العلم النافع واعتقاده والعمل به.

---

(١) النبوات (١/ ٤١٥، ٤١٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أصل الإحسان هو التصديقُ بالحقِّ ومحبَّتُه، وأصل الشرِّ هو التكذيبُ به أو بُغْضُه، ويَتْبعُه التصديقُ بالباطل ومحبَّتُه.

والتصديقُ بالحقِّ وحبُّه هو أصلُ العلم النافع والعمل الصالح، والتكذيبُ به وبُغْضُه هو من الجهل والظلم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أما الإحسان فقوله ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»، قد قيل: إنَّ الإحسان هو الإخلاص، والتحقيق: أنَّ الإحسان يتناول الإخلاص وغيره، والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبُّه الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا** ﴾ [النساء: ١٢٥] فذكر إحسان الدين أوَّلًا، ثمَّ ذكر الإحسان ثانيًا فإحسان الدين هو - والله أعلم - الإحسان المسئول عنه في حديث جبريل عليه السلام، فإنَّه سأله عن الإسلام والإيمان، ففي إحسان هذا الإسلام والدين الذي يكون صاحبه محسنًا، وتابعًا لما فيه رضوان الله في الأقوال والأفعال، هو المقام الذي أشار إليه النبيُّ ﷺ حين قال: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»، ومراقبة الله هي السرُّ المطلوب في جميع أحوال العبد».

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الرابعة (ص٤٩).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٥٧٨ - ٥٨١).





تعظيم الحرم

مكة حرَّمها الله يوم خلق السموات والأرض، وإبراهيم سيد الحنفاء عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أوَّل من أعلم الخلق بحرمتها، والحنفاء من أتباع إبراهيم يعظِّمون حرمة الكعبة والبلد الحرام، وهذا ممَّا فطر الله عليه قلوب المسلمين، فكل مسلم يجد في قلبه جلالة ومهابة وتعظيمًا لبيت الله العتيق.

عن عبد الله بن عباس رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السَّموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة**»، متَّفق عليه.

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ إبراهيم حرَّم مكَّة ودعا لأهلها، وإنِّي حرمتُ المدينة كما حرَّم إبراهيم مكَّة، وإنِّي دعوت في صاعها ومُدِّها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكَّة**»، متَّفق عليه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: «**إنَّ إبراهيم حرَّم مكَّة**»؛ لا ينافي ما ثبت في الصَّحيحين من قوله ﷺ: «**إنَّ الله حرَّم مكة يوم خلق السَّموات والأرض**»؛ لأنَّ المُحرِّم هو الله، وإبراهيم مبلِّغ، فنسب التحريم إلىٰ إبراهيم باعتبار التَّبليغ، ونُسب إلىٰ الله تعالىٰ لأنَّه منشئ الأحكام، فالمراد بتحريم إبراهيم مكَّة إظهار تحريمها».

(١) شرح بلوغ المرام (٨/ ١٦٩).

وتعظيم الحرم هو تعظيم لله الذي حرَّمه، ومتىٰ قام المسلمون بتعظيم الحرم بحفظ أمنه والحجَّاج والمعتمرين والزوَّار وبإقامة شعائر الله فيه كما أمر أدركوا خيري الدنيا والآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أي: يرفع عنهم بسبب تعظيمها السوء».

ولم يأت وعيد إلهي في منهي عنه كما جاء في قصد البلد الحرام بالإلحاد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أصل الإلحاد في اللغة: العدول عن القصد، وقد سبق ذكرُه.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **في معناه هاهنا:** هو الشرك وعبادة غير الله.

وقال في رواية أخرىٰ: هو الظلم.

وقال عطاء: هو استحلال محظورات الإحرام.

وقال ابن جريج: استحلال الحرم.

والقول الشامل لهذه الأقوال: أن الإلحاد فيه ارتكاب كل شيء نُهِيَ عنه، وإلىٰ عموم هذا نظر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله: «لا تحتكروا الطعام بمكة؛ فإن احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم». وفي هذا دليل ظاهر علىٰ اختصاص الحرم بمزيد مزية علىٰ سائر المواضع، حتىٰ إن كثيرًا من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٥١).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٩).

العلماء ذهبوا إلىٰ وجوب تنزيهه عن الهمَّة والإرادة في المعاصي».

فالبيت الحرام موضع عبادة الله، أخلصه الله من بقاع الأرض لإقامة ركن الحجّ، وليعبد الحنفاء الله، فجعله الله موضع أمن وأمان للنَّاس، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يذكر الله تعالىٰ عظمة البيت الحرام وجلالته، وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: هيأناه له وأنزلناه إياه، بحيث جعل قسمًا من ذريته هم سكانه، وأمره الله ببنيانه، فبناه وأسسه علىٰ تقوىٰ الله ورضوانه هو وابنه إسماعيل، بنية صادقة وخضوع لله وإخلاص ودعاء منهما أن يتقبَّل منهما هذا العمل الجليل، فتقبله الله.

فهذه آثار القبول لهذا البيت في كل وقت وجيل متواصلة، ووصَّاه بأن لا يشرك به شيئًا، بأن ينفي الشرك عنه، وعن ذريته، وعمن وصلت إليه دعوته، ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس، وأضافه إلىٰ نفسه ليكتسب شرفًا إلىٰ شرفه، ولتعظم محبته في القلوب، لكونه بيت محبوبها الأعظم، وتنصب وتهوي إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه للطائفين به، والقائمين عنده للعبادات المتنوِّعة».

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص١٢٤، ١٢٥).

وتحريم مكَّة معلوم عند العرب في الجاهلية، وزاد تعظيمهم لها بعد إسلامهم، وكان النبيُّ ﷺ يُجدِّد فيهم علم ملَّة إبراهيم بحرمتها؛ فازداد بذلك التَّعظيم في نفوس الحنفاء.

ففي الصَّحيحين من حديث أبي بكرة الثَّقفي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** خطبنا النبيُّ ﷺ يوم النَّحر، فقال: أتدرون أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتىٰ ظننَّا أنه سيسمِّيه بغير اسْمه، قال: أليس بالبلدة؟ قلنا: بلىٰ.

قال الحافظ أبو سُليمان حَمْد بن محمَّد الخطَّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: «**أليست بالبلدة؟**» يريد: أليست بالبلدة المُحرَّمة، يَدُلُّ علىٰ ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]».

ومن تعظيم الله لحرمة مكة؛ أنَّه سبحانه حرَّم دخولها علىٰ الكافرين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وبعث النبيُّ ﷺ أبا بكر الصدِّيق وعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في السنة التَّاسعة أن يؤذِّن في النَّاس يوم النَّحر أن: لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُرْيان، متَّفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله ﷺ: «**لا يحج بعد العام مشرك**»؛ موافق لقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ

---

(١) أعلام الحديث (٢/ ٩٠٣، ٩٠٤).

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٠٢١).

عَامِهِمْ هَـٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨]، والمراد بالمسجد الحرام هاهنا الحرم كله، فلا يمكن مشرك من دخول الحرم بحال، حتىٰ لو جاء في رسالة أو أمر مهم، لا يُمَكَّن من الدخول، بل يخرج إليه من يقضي الأمر المتعلق به».

ومن تعظيم الحرمين الواجب علىٰ الولاة والرعيَّة؛ حفظ أمنها الدِّيني من الشِّرك والبدع والضَّلالات، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، فتجب صيانة الحرمين عن الشِّرك، وقد اصطفىٰ الله آل سعود وأزالوا مشاهد الشِّرك وقباب البدع والضَّلال التي كانت في الحجاز من قبل ولايتهم.

فمكَّة أخلصها الله ليخلص المقيمون فيها التَّوحيد الخالص لله وحده لا شريك له، فتكون كما أرادها الله عَزَّوَجَلَّ بلد توحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٢٦]، فمكَّة أخلصها الله للحنفاء أتباع ملَّة إبراهيم.

وممَّا يدلُّ علىٰ معنىٰ الآية في وجوب صيانة الحرمين من الشِّرك والبدع والضَّلالات؛ ما رواه البخاري ومسلم عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**المدينة حَرَمٌ ما بين عير إلىٰ ثور، من أَحْدَثَ فيها حدثًا، أو آوىٰ مُحْدِثًا؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقْبَلُ منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ**».

وهذا وعيد شديد، فاللعنة من الله هي الطَّرد والإبعاد من رحمة الله، ولعنة الملائكة والناس هي دعاؤهم بذلك.

قال العلامة أبو سُليمان حَمد بن محمَّد الخطَّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: «**آوىٰ مُحْدِثًا**»؛ يُرْوىٰ علىٰ وجهين:

أحدهما: بفتح الدَّال، ويكون معناه الرَّأْيَ المُحْدَثَ في أمر الدِّين والسُّنَّة.

ومن قال: محدِثًا - بكسر الدَّال -، فإنه يريد به صاحبه الذي أَحْدَثَهُ وجاء به، يريد من جاء ببدْعةٍ في الدِّين، أو بَدَّل سُنَّة من سنة النبيِّ ﷺ، وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين بعده، الذين أمر بمتابعتهم، والتمسُّك بسُنَّتهم».

فالبلد الحرام صفوة الله من أرضه وخيرته، هي أم القرىٰ، يأتم الناس بنور الوحي الذي أوتيه الخليل محمد ﷺ، ويستقبل الناس في كل الدُّنيا الكعبة في صلاتهم لله، وهي أحب أرض الله إلىٰ الله، قال النبيُّ ﷺ: «**والله، إنِّي أعلم أنَّك خير أرض الله، وأحبُّها إلىٰ الله**»، رواه أحمد والنسائي[(٢)].

والبلد الحرام أخلصه الله للتوحيد والعدل والأمن، والحرم لا يعيذ مشركًا ولا ظالمًا، وقد كانت جرهم سادة مكَّة، فظلموا فسلَّط الله عليهم خزاعة فأخرجوهم من مكَّة، وخزاعة عندما أشركوا بالله وحرَّفوا ملَّة إبراهيم وأدخلوا الشِّرك إلىٰ مكَّة، وبسببهم عُبدت الأصنام ذهب ملكهم، وصارت قريش ولاة الحرم بعدهم، وبسبب شركهم وكفرهم بعث الله فيهم الخليل محمد ﷺ ليجدِّد ملَّة إبراهيم، فيقيم النَّاس التَّوحيد فيأمنوا بذلك بالأمن الإلهي.

---

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري (٢/ ٩٢٦).

(٢) قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا حديث صحيح، رواه أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء جميعًا عن النبي ﷺ». التَّمهيد (٢/ ٢٨٨).

ومن هنا ذكر الله لنا وللنَّاس كافَّة أسباب نصره للمؤمنين في جهادهم لإقامة التَّوحيد؛ ليأخذ المسلمون بتلك الأسباب فيُنصروا، فإن البلد الحرام والأرض المقدسة لا تُقدِّس أحدًا، وإنَّما الذي يُقدِّس المسلم هو توحيده وعمله الصالح.

فصلح الحديبية كان الفتح الأعظم الذي نصر الله به أولياءه، وقد ذكر الله في كتابه أسباب نصره لعباده المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح: ١٨-٢٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله ﷺ، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء، وكمال الانقياد والطاعة وإيثار الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله ﷺ علىٰ ما سواه فأنزل الله السكينة والطمأنينة والرضىٰ في قلوبهم، وأثابهم علىٰ الرضىٰ بحكمه والصبر لأمره فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلىٰ انقضاء الدهر».

والنبيُّ ﷺ خطب الناس في حجَّته بأسباب حفظ أمن أم القرىٰ وسائر الأمصار والقرىٰ، وهو خطاب لأمَّته جميعًا، فكان ممَّا وعظ به في يوم النَّحر في منًىٰ: «**اعبدوا ربّكم، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم؛**

(١) زاد المعاد (ص٤٩٥).

تدخلوا جنَّة ربِّكم».

فأمر النبيُّ ﷺ بالتَّوحيد وإقامة شعبه من أركان الإسلام وواجباته، ولزوم الجماعة، وهذا من معنىٰ قوله ﷺ: «**إنَّ الله يرضىٰ لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم**»، رواه مسلم.

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فيه الحض علىٰ الاعتصام والتمسك بحبل الله في حال اجتماع وائتلاف.

وحبل الله في هذا الموضع فيه قولان: أحدهما: كتاب الله، والآخر: الجماعة، ولا جماعة إلا بإمام، وهو - عندي - معنًىٰ متداخل[2] متقارب؛ لأن كتاب الله يأمر بالألفة وينهىٰ عن الفرقة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟** ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿ **وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]».

ومن أعظم المجدِّدين لملَّة إبراهيم ﷺ الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الملهم للحقّ؛ فإنَّه قال لرسول الله ﷺ: لو اتَّخذْنا من مقام إبراهيم مُصلًّىٰ، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، رواه البخاري ومسلم.

وقام الخليل محمد ﷺ بتحقيق التَّوحيد وتجديد ملَّة إبراهيم بصلاة الرَّكعتين خلف مقام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حيث قرأ في الركعة الأولىٰ بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الركعة الثانية بعد الفاتحة:

---

(١) التمهيد (٢١/ ٢٧٢).

(٢) يعني: متلازم.

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

وقام النبيُّ ﷺ والصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ بتعظيم الكعبة واستنقاذها من المشركين وإزالة الأصنام من حولها، وتجديد ملَّة إبراهيم فصار البيت الحرام علىٰ ما أمر الله بتهيئته لتوحيده، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [الحج: ٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «البيت الحرام كان له فضيلة بناء إبراهيم الخليل ودعاء الناس إلىٰ حجه، وصارت له فضيلة ثانية؛ فإن محمدًا ﷺ هو الذي أنقذه من أيدي المشركين ومنعه منهم، وهو الذي أوجب حجه علىٰ كل مستطيع، وقد حجه الناس من مشارق الأرض ومغاربها، فعبد الله فيه بسبب محمد ﷺ أضعاف ما كان يعبد الله فيه قبل ذلك، وأعظم مما كان يعبد، فإن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم».

وتعظيم الحنفاء للحرم والكعبة خصوصًا هو تعظيم بالمشروع الذي أمر الله به؛ فإنَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أقاما شعائر الله كما أمرهم الله، والحنفاء علىٰ ملَّة إبراهيم، عبدوا الله باتِّباع الخليلين، والمبتدعة والجهَّال ضلُّوا في عبادات مبتدعة ما شرعها الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّما أُمروا أن يُصلُّوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٥٣).

فالعبادات كلها ومن جملتها مناسك الحج والعمرة شرعها الله لعبوديته، أما من ابتدع عبادات يُدعىٰ فيها غير الله أو يُتَّخذ فيها المخلوق واسطة في دعاء الله، أو يُتبرَّك فيها بحجر أو شجر؛ فهذا لم يعبد الله، بل أشرك به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المقصود بجميع العبادات أن يكون الدين كله لله وحده، فالله هو المعبود والمسئول الذي يخاف ويُرجىٰ ويسأل ويعبد فله الدين خالصًا».

وقام سادات الحنفاء من أولياء إبراهيم بإقامة شعائر التَّوحيد معظِّمين شعائر الله عبوديَّة لله في أدائها محذِّرين من إفساد شعائر التَّوحيد بالشِّرك، قال عابس بن ربيعة: رأيت عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُقبِّل الحَجَر، ويقول: إنِّي لأعلم أنَّك حجر ما تَنْفَعُ ولا تَضُرُّ، ولولا أنِّي رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلُك ما قبَّلْتُك، متَّفق عليه.

قال العلامة أبو المظفَّر يحيىٰ بن محمد بن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «في هذا الحديث من الفقه إظهار عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ تقبيله الحجر بموجب الشرع واتِّباعه السُّنَّة، لا علىٰ ما كانت الجاهلية يعظِّمون الأحجار ويتَّخذونها أوثانًا، فأراد أن يُنبِّه بهذا أنَّه إنَّما يُقبِّل الحجر لأنَّه رأىٰ رسول الله ﷺ يُقبِّلُهُ».

وقد تكفَّل الله بحفظ الحرمين إلىٰ قيام الساعة؛ ففي الصَّحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبيُّ ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكنْ جهاد ونيَّة**».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ١٥١).

(٢) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (١/ ١٤٩).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تضمَّن الحديث بشارة من النبيِّ ﷺ بأنَّ مكَّة تستمر دار إسلام».

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تتركون المدينة علىٰ خير ما كانت**»، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قوله «**علىٰ خير ما كانت**»؛ أي: علىٰ أحسن حال كانت عليه من قبل.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد وُجد ذلك صارت حيث صارت: معدن الخلافة، ومقصد الناس، وملجأهم، وحُملت إليها خيرات الأرض، وصارت من أعمر البلاد».

وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**لا يكيد أهل المدينة أحدٌ إلا انماع كما يَنْماع الملحُ في الماء**».

قال عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «من كادها اغتيالًا وطلبًا لغرتها في غفلة؛ فلا يتم له أمر».

وقد حرس الله الحرمين بملائكته، يمنعها الله من أنواع الشُّرور التي من أعظمها الدَّجَّال، والطَّاعون، فهذه حراسة إلهية وحفظ ربَّاني لأعظم أنواع الشُّرور؛ الدجَّال الذي يفسد الأديان، والطَّاعون الذي يكون سببًا للفناء العام للأمم والشُّعوب.

---

(١) فتح الباري (١/ ٦٢).

(٢) فتح الباري (٤/ ١١٧).

(٣) فتح الباري (٤/ ١٢٢).

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**علىٰ أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجَّال**»، رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **عن النبيِّ** ﷺ **قال:** «**ليس من بلد إلا سيطؤه الدجَّال، إلا مكَّة والمدينة، ليس لها من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافِّين يحرسونها**»، رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «قوله: «**علىٰ أنقاب المدينة**»: جمع نقب بفتح النون والقاف بعدها موحدة، ووقع في حديث أنس وأبي سعيد اللذين بعده «علىٰ نقابها» جمع نقب بالسكون، وهما بمعنًىٰ. قال ابن وهب: المراد بها المداخل، وقيل: الأبواب. وأصل النقب الطريق بين الجبلين، وقيل: الأنقاب الطرق التي يسلكها الناس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [ق: ٣٦]».

وليس في الدُّنيا حرم غير مكَّة والمدينة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «ليس في الدُّنيا حرم لا بيت المقدس ولا غيره، إلا هذان الحرمان، ولا يُسمَّىٰ غيرهما حرمًا كما يسمِّي الجهَّال فيقولون: حرم المقدس وحرم الخليل، فإنَّ هذين وغيرهما ليسا بحرم باتِّفاق المسلمين».

وقال شيخ الإسلام[3]: «ولم يتنازع المسلمون في حرم ثالث إلا في «وج»، وهو واد بالطائف، وهو عند بعضهم حرم، وعند الجمهور ليس بحرم».

---

(١) فتح الباري (٤/ ١٢٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ١٧).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ١١٨).

و«وج» قال الفقهاء: هو واد في الطائف، وقال اللغويون: هو بلد الطائف، وقال الحازمي في «المؤتلف والمختلف»: هو حصون الطائف.

والحديث المروي في تحريم «وج» ضعيف، قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «رواه البيهقي بإسناده عن الزُّبير بن العوَّام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ألا إن صيد وج وعضاهه - يعني: شجره - حرام محرم»، وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفًا، لكنَّ إسناده ضعيف، وقال البخاري في تاريخه: لا يصح».

وقال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الحديث ضعيف، ضعَّفه أحمد، ذكره الخلال في كتاب العلل».

❁ ❁ ❁

---

(١) شرح المهذب (٧/ ٤٨٠).

(٢) المغني (٣/ ٣٥٦).



تعظيم الأشهر الحرم

الحنيفيَّة هي الدِّين القيِّم، ومن شرائعه وأحكامه تعظيم الأشهر الحرم، وكفُّ الأذىٰ والعدوان علىٰ النَّاس، وتعظيم الله بعبوديَّته في هذه الأشهر الحرم بطاعة الله واجتناب معاصيه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وتعظيم الأشهر الحرم يكون بإقامة ما فُرض فيها من شعائر وعبادات ونسك؛ لأنَّها مواقيت لذلك، وهذا من جملة ما اشتهر به الحج أخص شرائع وشعائر الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم، قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الأنبياء ما وقتوا العبادات إلا بالهلال، وإنَّما اليهود والنصارىٰ حرَّفوا الشَّرائع».

وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٣٢).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقول تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها، وعدم فعلها.

والنَّهي يشمل النهي عن فعلها، والنَّهي عن اعتقاد حلِّها؛ فهو يشمل النَّهي عن فعل القبيح وعن اعتقاده.

ويدخل في ذلك النَّهي عن محرَّمات الإحرام، ومحرَّمات الحرم، ويدخل في ذلك ما نصَّ عليه بقوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾، أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظُّلم».

وكانت العرب في جاهليتها علىٰ بقيَّة من إرث إبراهيم عليه السلام، يُحرِّمون الأشهر الحرم ويعظِّمونها، قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّهم كانوا يعتقدون تعظيم هذه الأشهر الحرم، ويتحرَّجون فيها عن القتال».

وعرف عن عامَّة العرب هذا التَّحريم والتَّعظيم للأشهر الحرم إلا قبيلتين، قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «لم يكن يستحلُّه أحد من العرب إلَّا حَيَّان: خثعم وطيء؛ فإنَّهما كانا يستحلَّان الشُّهور».

وقال العلامة أبو العبَّاس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «سميت – الأشهر – الْحُرُم حرمًا : لاحترامها وتعظيمها بما خُصَّت به من أفعال البرِّ، وتحريم القتال،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢١٨).

(٢) شرح السنَّة (٧/ ٢٢٠).

(٣) شرح السُّنَّة (٧/ ٢٢٢).

(٤) المُفْهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ٤٥).

وتشديد أمر البغي والظلم فيها. وذلك: أنَّ العرب كانت في غالب أحوالها، ومعظم أوقاتها قبل مجيء الإسلام أهل غارةٍ، ونهب، وقتال، وحرب، يأكل القويُّ الضعيف، ويصول علىٰ المشروف الشريف، لا يرجعون لسلطان قاهر، ولا أمر جامع، وكانوا فوضىٰ فضا، مَنْ غَلَبَ سَلَبَ، ومَنْ عزَّ بزَّ، لا يأمن لهم سِرْبٌ، ولا يستقرُّ بهم حال.

فلطف الله بهم بأن جعل في نفوسهم احترام أمورٍ يمتنعون فيها من الغارة، والقتال، والبغي، والظلم؛ فيأمن بعضهم من بعض، ويتصرَّفون فيها في حوائجهم، ومصالحهم؛ فلا يهيج فيها أحدٌ أحدًا، ولا يتعرَّض له، حتىٰ إن الرَّجل يلتقي فيها بقاتل أبيه وأخيه فلا يتعرض له بشيء، ولا بغدر ؛ بما جعل الله في قلوبهم من تعظيم تلك الأمور.

ولا يبعد أن يكون أصل ذلك مشروعًا لهم من دين إبراهيم وإسماعيل؛ كالحجِّ، والعمرة، وغيرهما ممَّا كان عندهم من شرائعهما».

والنَّبيُّ ﷺ في أدائه لشعائر الحنيفيَّة الحجّ، وعظ النَّاس بتعظيم ما عظَّمه الله في جميع الملل، وما بُعث بتجديده من ملَّة إبراهيم، حيث قال: «**إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا**».

ومن محاسن ما كان عليه العرب في الجاهليَّة؛ ما اجتمعوا عليه في حلف المطيِّبين من منع ظلم الحُجَّاج والمعتمرين والزوَّار للحرم[١].

---

(١) تهذيب الآثار للطَّبري، الجزء المتمِّم (ص٣٠)، جامع الآثار في السِّير (٣/ ٣٠).

وهذا مما يدلُّ علىٰ ما كان عليه العرب بمكَّة من تعظيم الحرم والأشهر الحرم، وهذا من بقيَّة ما كانوا عليه من ملَّة إبراهيم.

ومعلوم ما كان عليه العرب من تعظيم الحرم عندما قصد أبرهة الحبشي هدم الكعبة، قال عبد المُطَّلب الهاشمي: «إنِّي أنا ربّ الإبل، وإنَّ للبيت ربًّا سيمنعه».

وكان من حفظ الله لحرمه وبيته أنْ منع أبرهة وجنوده من قصدهم هدم الكعبة، حيث أرسل عليهم طيرًا أبابيل رمتهم بحجارة من سجِّيل؛ فكان ذلك من أسباب زيادة تعظيم الحرم في نفوس العرب.





مكارم الأخلاق

الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم هي دعوةٌ لمكارم الأخلاق، وأخذٌ بها، وسيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد أن بنىٰ الكعبة قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩]، فالخليل أراد الخير لذريَّته وبنيه؛ حيث سأل الله أن يرسِل فيهم من يُزكِّيهم بالأخلاق التي بُعث بها النبيُّون - عليهم السلام -.

وأجاب الله دعاء سيِّد الحنفاء وتزكَّىٰ بنوه وذريَّته بالتَّوحيد والأخلاق السنيَّة.

قال العلَّامة ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «نعمته عليهم بالتزكية، من قوله تعالىٰ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، فصارت الأمَّة به صالحين، أمَّة وسطًا عدولًا خيارًا».

وأحكام القرآن أوامره ونواهيه كلُّها تحثُّ علىٰ مكارم الأخلاق، وكذلك ما في القرآن من أحوال وقصص النبيِّين - عليهم الصلاة والسلام - خصوصًا الخليلين تهدي إلىٰ أحسن وأقوم الأخلاق، ولا يزال المسلمون يتوارثون مكارم أخلاق الأنبياء خصوصًا عن الخليلين.

وشرح ملَّة إبراهيم وتبيينها هو من الدَّعوة إلىٰ مكارم الأخلاق، فالأنبياء - عليهم السلام - معدن الأخلاق العليَّة.

---

(١) مجالس تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ (ص٣٢٤).

قال العلَّامة أبو عبد الله ابن بطَّة العكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «مِنَ السُّنَّةِ اتِّبَاعُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالِاقْتِفَاءُ لِأَمْرِهِ، وَالِاقْتِدَاءُ بِهَدْيِهِ، وَالْأَخْذُ بِأَفْعَالِهِ، وَالِانْتِهَاءُ إِلَىٰ أَمْرِهِ، وَإِكْثَارُ الرِّوَايَةِ عَنْهُ فِي كُلِّ مَا سَنَّهُ وَاسْتَحْسَنَهُ وَنَدَبَ إِلَيْهِ وَحَرَّضَ أُمَّتَهُ عَلَيْهِ؛ لِيَتَأَدَّبُوا بِهِ، فَتَحْسُنُ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا آدَابُهُمْ، وَيَعْظُمُ عِنْدَ اللهِ قَدْرُهُمْ».

وكان في قريش تعظيم للكعبة، وحفاوة بضيوف الرَّحمن وإكرام لهم، وهذا ممَّا ورثوه من مكارم الأخلاق عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان سيِّدهم قُصي بن كلاب يحثُّهم علىٰ مكارم الأخلاق من ضيافة الحجَّاج وإطعامهم.

قال العلَّامة الوزير ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أحدث لهم قصيٌّ أمورًا التزموها، لم نُرِدْ ذكرها؛ لأنَّ ما جاء الشرع منها بإيجابه فهو الواجب، وكذلك ما حسَّنه الشرع منها وندب إليه؛ فهو الحسن، من ذلك: دار الندوة التي كان قصيٌّ ألزمها قريشًا فبُنيت.

وكان قصيٌّ يقول: «يا معشر قريش، إنَّكم جيران الله، وأهل بيته وأهل الحرم، وإنَّ الحاجَّ ضيفان وزوَّار بيته، وهم أحقُّ الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحجِّ، حتىٰ يصدروا عنكم»، ففعلوا، فكانوا يُخرجون ذلك كلَّ عام من أموالهم خرجًا يترافدون به، فيدفعونه إليه، فيصنع الطعام للناس أيام الحجِّ بمنًىٰ ومكَّة، ويصنع حياضًا للماء من أدم فيسقي فيها بمكَّة وبمنًىٰ وعرفة، فجرىٰ ذلك من أمره في الجاهلية علىٰ قومه حتىٰ قام الإسلام، ثم جَرَوْا في

---

(١) الشرح والإبانة علىٰ أصول السُّنَّة والدِّيانة (ص٣٢٣).

(٢) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٧/ ٦٢).

الإسلام على ذلك إلى اليوم».

وقد أمرنا الله بالتأسِّي بصفوة خلقه المصطَفَيْن الأخيار، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قد امتثل ﷺ فاهتدى بهدي الرُّسل قبله، وجمع كلَّ كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين».

ومن أَخْذ النَّاس بأخلاق المرسلين إقراء الضَّيف، وهو من أخلاق سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال العلَّامة أبو العبَّاس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لم تزل الضيافة معمولًا بها في العرب من لدن إبراهيم ﷺ؛ لأنَّه أوَّل من ضيَّف الضيف».

وإقراء الضَّيف من أعظم خصال الإيمان، ومن أفضل خصاله، قال النبيُّ ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»، رواه البخاري.

وقال عمرو بن عبسة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ **للنبيِّ** ﷺ: ما الإسلام؟

قال: «**طيب الكلام، وإطعام الطَّعام**».

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في الضِّيافة**(٣): «أنَّها من أخلاق المؤمنين، وممَّا لا ينبغي لهم أن يتخلَّفوا عنها؛ لما يحصل عليها من الثواب في الآخرة،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٨٩).

(٢) المفهم (٥/ ١٩٨).

(٣) المفهم (٥/ ١٩٧، ١٩٨).



ولما يترتَّب عليها في الدنيا من إظهار العمل بمكارم الأخلاق، وحُسن الأحدوثة الطيبة، وطيب الثناء، وحصول الرَّاحة للضيف المتعوب بمشقَّات السَّفر، المحتاج إلىٰ ما يخفِّف عليه ما هو فيه من المشقَّة، والحاجة».

ومن أعظم الأخلاق التي علَّمها النبيُّ ﷺ أمَّته وهو يتحدَّث عن سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: خُلق التَّواضع، فقد قال له أحد الصحابة: يا خير البريَّة! قال: «**ذاك إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»، رواه مسلم.

وحثَّ النبيُّ ﷺ المسلمين علىٰ تطلُّب محاسن إسلامهم بما يلزمهم من مكارم الأخلاق، فقال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»، رواه الترمذي من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال: حديث حسن.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ينبغي للإنسان أن يتطلَّب محاسن إسلامه فيترك ما لا يعنيه».

وبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ إيمان المسلم يتأسَّس بالتَّوحيد وحسن الخُلق، فقال: «**الإيمان بضع وستُّون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطَّريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، متَّفق عليه.

❁ ❁ ❁

(١) شرح الأربعين النووية (ص١٩٢).

العمل للآخرة والتَّذكير بها

التَّذكير بالآخرة هو دعوة النبيِّين جميعًا - عليهم السلام -، قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وتذكير الأنبياء باليوم الآخر هو من الحثِّ علىٰ العمل بأسباب السَّعادة والنَّجاة من الشَّقاء في يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وسيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعا بالأمن والرِّزق والتمكين في الدُّنيا - خصوصًا في مكَّة - لمن آمن بالله واليوم الآخر فقال سائلًا ربَّه: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

والإيمان باليوم الآخر هو من الإيمان بالله الذي استخلفنا في الدُّنيا للعمل والحساب للآخرة، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٧].

وبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ من يعبده هو من يرجو الله وثوابه في الدَّار الآخرة، والنَّجاة من عقابه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقال تعالىٰ عن سادات الحنفاء: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص: ٤٥، ٤٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقول تعالىٰ مخبِرًا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يعني بذلك: العمل الصالح، والعلم النافع والقوَّة في العبادة والبصيرة النافذة.

قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ يقول: أولي القوَّةِ والعبادة ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ يقول: الفقه في الدين.

وقال مجاهد: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ يعني: القوَّةَ في طاعة الله ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يعني: البصرَ في الحقِّ.

وقال قتادة والسُّدِّيُّ: أُعطُوا قُوَّةً في العبادة وبَصرًا في الدين.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم هَمٌّ غيرها.

وكذا قال السُّدِّي: ذكْرُهم للآخرة وعملهم لها.

وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حُبَّ الدنيا وذِكْرها وأخلصهم بحبِّ الآخرة وذكرِها.

وكذا قال عطاء الخُراسانيُّ.

وقال سعيد بن جُبَيْر: يعني بالدار: الجنةَ، يقول: أخلصناها لهم بِذكرهم لها.

وقال في روايةٍ أخرىٰ: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: عُقبىٰ الدار.

وقال قتادة: كانوا يذَكِّرون الناس الدارَ الآخرة والعمل لها».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٨، ٨٩).



البركة

ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حنيفيَّة التَّوحيد كلُّها تزكية للعقائد والعبادات والأخلاق، وهذا من أعظم ما يكون بركة وخيرًا وصلاحًا للخلق والأرض.

وذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **من معاني التزكِّي**(١): «البركة والخير والنَّماء».

وكل ما هو مذكور في هذا الكتاب من معاني ملَّة إبراهيم؛ فهو بعض ما يسَّر الله شرحه من الخير والبركة التي تضمَّنتها الحنيفيَّة السَّمحة ملَّة إبراهيم.

والبركة كلُّها مجموعةٌ في الهداية إلىٰ صراط الله المستقيم، قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مخاطبًا أباه: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ٤٣].

وقد أمر الله رسوله محمدًا ﷺ أن يتحدَّث بنعمة الله عليه بالهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم، ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١]، وما من نبيٍّ إلَّا وقد أنعم عليه بالهداية إلىٰ الصراط المستقيم، بالوحي الذي هو سبب هداية أقوامهم وإدراك كل خير وفضيلة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨﴾ [الصافات: ١١٤-١١٨].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ الهدىٰ هو العلم بالله ودينه، والعمل بمرضاته

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٦١).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٤١٤).

وطاعته، فهو العلم النَّافع، والعمل الصَّالح».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّما الصِّراط المستقيم واحد، وهو ما هدىٰ الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين، وهو الصِّراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم».

والسَّالكون لصراط الله المستقيم هم المُنْعَم عليهم من الحنفاء المسلمين، الذين هداهم الله للعلم بالصراط والعمل به، فاجتنبوا ضلال النَّصارىٰ وغضب اليهود، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «اقتضت الآية إثبات الشَّرْع والقدر والمعاد والنبوَّة، فإنَّ النعمة والغضب هو ثوابه وعقابه، فالمُنْعَم عليهم رسله وأتباعهم ليس إلَّا، وهداية أتباعهم إنَّما يكون علىٰ أيديهم، فاقتضت إثبات النبوَّة بأقرب طريق وأبينها وأدلِّها علىٰ عموم الحاجة وشدَّة الضرورة إليها، وأنَّه لا سبيل للعبد أن يكون من المُنْعَم عليهم إلا بهداية الله له، ولا تُنال هذه الهداية إلَّا علىٰ أيدي الرُّسل، وأنَّ هذه الهداية لها ثمرة، وهي النعمة التامَّة المطلقة في دار النعيم، ولخلافها ثمرة، وهي الغضب المقتضي للشَّقاء الأبدي.

فتأمَّل كيف اشتملت هذه الآية - مع وجازتها واختصارها - علىٰ أهمِّ مطالب الدين وأجلِّها، والله الهادي إلىٰ سواء السَّبيل».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ البركة كلَّها له تعالىٰ ومنه، فهو المتبارك،

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤١٦).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٤٤٣).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٦٨٢).

ومن ألقىٰ عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركًا، ورسوله مباركًا، وبيته مباركًا، والأزمنة والأمكنة التي شرَّفها واختصَّها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصىٰ مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة، وتدبَّر قول النبيِّ ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في «صحيحه» عند انصرافه من الصلاة: «**اللهمَّ أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**». فتأمَّل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نَوْعي الثناء؛ أعني: ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنًىٰ، فأخبر أنَّه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا».

وقال ابن القيِّم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «البركة فهو المتبارك في ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خَلْقه، وعليه فيصير بذلك مباركًا ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] و﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزُّخرُف: ٨٥]».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قَوْله: «**وَبَارك علىٰ مُحَمَّد، وعَلىٰ آل مُحَمَّد، كَمَا باركت علىٰ آل إِبْرَاهِيم**»، فَهَذَا الدُّعَاء يتَضَمَّن إعطاءه من الْخَيْر مَا أعطَاهُ لآل إِبْرَاهِيم، وإدامته، وثبوته لَهُ، ومضاعفته له، وزيادته، هَذَا حَقِيقَة الْبركَة.

وَقد قَالَ تَعَالَىٰ فِي إِبْرَاهِيم وَآله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢ و١١٣].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٨٣).

(٢) جلاء الأفهام (ص٤٣٧ - ٤٤٥).

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِيهِ وَفِي أهل بَيته: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وَتَأَمَّل كَيفَ جَاءَ فِي الْقُرْآن: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ﴾، وَلم يذكر إِسْمَاعِيل، وَجَاء فِي التَّوْرَاة ذكر الْبركَة علىٰ إِسْمَاعِيل، وَلم يذكر إِسْحَاق، كَمَا تقدَّم حكايته، وَعَن إِسْمَاعِيل: «سَمِعتك هانا باركته»، فجَاء فِي التَّوْرَاة ذكر الْبركَة فِي إِسْمَاعِيل، إِيذَانًا بِمَا حصل لِبَنِيِّهِ من الْخَيْر وَالْبركَة، لَا سيَّما خَاتِمَة بركتهم، وَأَعْظَمهَا وأجلها برَسُول الله ﷺ، فنبَّههم بذلك علىٰ مَا يكون فِي بنيه من هَذِه الْبركَة الْعَظِيمَة الموافية علىٰ لِسَان الْمُبَارك ﷺ.

وَذكر لنا فِي الْقُرْآن بركته علىٰ إِسْحَاق منبِّهًا لنا علىٰ مَا حصل فِي أَوْلَاده من نبوَّة مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَغَيره، وَمَا أوتوه من الْكتاب وَالْعلم مستدعيًا من عباده الْإِيمَان بذلك، والتصديق بِهِ، وَأَن لَا يهملوا معرفَة حُقُوق هَذَا الْبَيْت الْمُبَارك وَأهل النُّبُوَّة مِنْهُم.

وَلَا يَقُول الْقَائِل: هَؤُلَاءِ أَنْبيَاء بني إِسْرَائِيل لَا تعلُّق لنا بهم، بل يجب علينا احترامهم وتوقيرهم وَالْإِيمَان بهم ومحبَّتهم وموالاتهم وَالثنَاء عَلَيْهِم - صلوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ -.

وَلما كَانَ هَذَا الْبَيْت الْمُبَارك المطهَّر أشرف بيُوت الْعَالم علىٰ الْإِطْلَاق خصَّهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْهُ بخصائص:

مِنْهَا: أَنَّه جعل فِيهِ النُّبُوَّة وَالْكتاب، فَلم يَأْتِ بعد إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نَبِيٌّ إِلَّا من أهل بَيته.

وَمِنْهَا: أَنَّه سُبْحَانَهُ جعلهم أَئِمَّة يهْدُونَ بأَمْره إِلَىٰ يَوْم الْقِيَامَة فَكلُّ من دخل الْجنَّة من أَوْلِيَاء الله بعدهمْ، فَإِنَّمَا دخل من طريقهم وبدعوتهم.

وَمِنْهَا: أَنَّه سُبْحَانَهُ اتخذ مِنْهُم الخليلين: إِبْرَاهِيم ومحمدًا – عليهما الصلاة والسلام –.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وَقَالَ النَّبِي ﷺ: «**إِنَّ الله اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتخذ إِبْرَاهِيم خَلِيلًا**»، وَهَذَا من خَواصِّ الْبَيْت.

وَمِنْهَا: أَنَّه سُبْحَانَهُ جعل صَاحب هَذَا الْبَيْت إِمَامًا للْعَالمين، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وَمِنْهَا: أَنه أجرىٰ علىٰ يَدَيْهِ بِنَاء بَيته الَّذِي جعله قيَامًا للنَّاس، وقبلةً لَهُم، وحجًّا، فَكَانَ ظُهُور هَذَا الْبَيْت من أهل هَذَا الْبَيْت الأكرمين.

وَمِنْهَا: أَنَّه أَمر عباده بِأَن يصلُّوا علىٰ أهل هَذَا الْبَيْت، كَمَا صلَّىٰ علىٰ أهل بَيتهمْ وسلفهم، وهم: إِبْرَاهِيم، وَآله، وَهَذِه خَاصِّية لَهُم.

وَمِنْهَا: أَنَّه أخرج مِنْهُم الأمَّتين المعظَّمتين اللَّتَيْنِ لم تخرجا من أهل بَيت غَيرهم، وهم: أمَّة مُوسَىٰ، وَأمَّة مُحَمَّد ﷺ تَمام سبعين أمة، هم خَيرهَا، وَأَكْرمهَا علىٰ الله.

وَمِنْهَا: أَنَّ الله سبحانه وتعالىٰ أبقىٰ عَلَيْهِم لِسَان صدق، وثناءً حسنًا فِي الْعَالم، فَلَا يذكرُونَ إِلَّا بالثناء عَلَيْهِم، وَالصَّلَاة وَالسَّلَام عَلَيْهِم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات ١٠٨–١١٠].

وَمِنْهَا: جعل أهل هَذَا الْبَيْت فرقانًا بَين النَّاس، فالسعداء أتباعهم ومحبُّوهم

وَمن تولَّاهم، والأشقياء من أبْغضهُم وَأعْرض عَنْهُم، وعاداهم، فالجنَّة لَهُم ولأتباعهم، وَالنَّار لأعدائهم ومخالفيهم.

وَمِنْهَا: أَنَّه سُبْحَانَهُ جعل ذكرهم مَقْرُونًا بِذكرِهِ، فَيُقَالُ: إِبْرَاهِيم خَلِيل الله وَرَسُوله وَنبيُّه، وَمُحَمَّد رَسُول الله، وخليله، وَنبيُّه، ومُوسَىٰ كليم الله وَرَسُوله، قَالَ تَعَالَىٰ لنَبِيِّه يذكِّرهُ بنعمته عَلَيْهِ: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، قَالَ ابْن عَبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «إِذا ذُكرتُ ذُكِرْتَ معي»، فَيُقَال: لَا إِلَه إِلَّا الله، مُحَمَّد رَسُول الله؛ فِي كلمة الْإِسْلَام، وَفِي الْأَذَان، وَفِي الْخُطب، وَفِي التشهدات، وَغير ذَلِك.

وَمِنْهَا: أَنه سُبْحَانَهُ جعل خلاص خلقِه من شقاء الدُّنْيَا وَالْآخِرَة علىٰ أَيدي أهل هَذَا الْبَيْت، فَلهم علىٰ النَّاس من النعم مَا لَا يُمكن إحصاؤها، وَلَا جزاؤها، وَلَهُم المنن الجسام فِي رِقَاب الْأَوَّلين والآخرين من أهل السَّعَادَة، والأيادي الْعِظَام عِنْدهم الَّتِي يجازيهم الله عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهَا.

وَمِنْهَا: أَن كل نفع، وَعمل صَالح، وَطَاعَة لله تَعَالَىٰ حصلت فِي الْعَالم؛ فَلهم من الْأجر مثل أجور عامليها، فسبحان من يخْتَصُّ بفضله من يَشَاء من عباده.

وَمِنْهَا: أَن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ سدَّ جَمِيع الطُّرق بَينه وَبَين الْعَالمين، وأغلق دونهم الْأَبْوَاب، فَلم يفتح لأحد قطُّ إلا من طريقهم وبابهم.

قَالَ الْجُنَيْد رَحِمَهُٱللَّهُ: «يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ لرَسُوله ﷺ: **وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَو أَتَوْنِي من كل طَرِيق، أَو استفتحوا من كل بَاب لما فتحت لَهُم حَتَّىٰ يدخلُوا خَلفك**».

وَمِنْهَا: أَنه سُبْحَانَهُ خصَّهم من الْعلم بِمَا لم يخصَّ بِهِ أهل بَيت سواهُم من الْعَالمين، فَلم يطْرق الْعَالم أهل بَيت أعلم بِالله، وأسمائه، وَصِفَاته، وَأَحْكَامه،

وأفعاله، وثوابه وعقابه، وشرعه، ومواقع رِضَاهُ وغضبه، وَمَلَائِكَته، ومخلوقاته مِنْهُم!

فسبحان من جمع لَهُم علم الْأَوَّلين والآخرين!

وَمِنْهَا: أَنَّه سُبْحَانَهُ خصَّهم من توحيده، ومحبَّته، وقربه، والاختصاص بِهِ بِمَا لم يخُص بِهِ أهل بَيت سواهُم.

وَمِنْهَا: أَنَّه سُبْحَانَهُ مكَّن لَهُم فِي الأَرْض، واستخلفهم فِيهَا، وأطاع أهلُ الأَرْض لَهُم مَا لم يحصل لغَيرهم.

وَمِنْهَا: أَنَّه سُبْحَانَهُ أَيَّدهُم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه وأعدائهم بِمَا لم يُؤَيِّد غَيرهم.

وَمِنْهَا: أَنَّه سُبْحَانَهُ محا بهم من آثَار أهل الضلال والشرك، وَمن الْآثَار الَّتِي يبغضها ويمقتها مَا لم يمحه بسواهم.

وَمِنْهَا: أَنَّه سُبْحَانَهُ غرس لَهُم من الْمحبَّة والإجلال والتعظيم فِي قُلُوب الْعَالمين مَا لم يغرسه لغَيرهم.

وَمِنْهَا: أَنه سُبْحَانَهُ جعل آثَارهم فِي الأَرْض سَببًا لبَقَاء الْعَالم وَحفظه، فَلَا يزَال الْعَالم بَاقِيًا مَا بقيت آثَارهم، فَإِذا ذهبت آثَارهم من الأَرْض، فَذَاك أَوَان خراب الْعَالم.

قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ [المائدة: ٩٧]، قَالَ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرهَا: «لَو ترك النَّاس كلُّهم الْحَجَّ لوقعت السَّمَاء علىٰ الأَرْض»، وَقَالَ: «لَو ترك النَّاس كلُّهم الْحَجَّ لما نُظرُوا»، وَأخْبر النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ فِي آخر الزَّمَان يرفع الله بَيته من الأَرْض، وَكَلَامه من الْمَصَاحِف وصدور الرِّجَال، فَلَا يبْقىٰ لَهُ فِي الأَرْض بَيت يُحجُّ، وَلَا

كَلَام يُتْلَىٰ، فَحِينَئِذٍ يقرب خراب الْعَالم.

وَهَكَذَا النَّاس الْيَوْم إِنَّمَا قيامهم بِقِيَام آثَار نَبِيِّهم وشرائعه بَينهم، وَقيام أمورهم حُصُول مصالحهم واندفاع أَنْوَاع الْبلَاء وَالشَّرِّ عَنْهُم بِحَسب ظُهُورهَا بَينهم وقيامها، وهلاكهم وعنتهم وحلول الْبلَاء وَالشَّرِّ بهم عِنْد تعطلها والإعراض عَنْهَا والتحاكم إِلَىٰ غَيرهَا واتخاذ سواهَا، وَمن تَأَمَّل تسليط الله سُبْحَانَهُ علىٰ من سلَّطه علىٰ الْبِلَاد والعباد من الْأَعْدَاء؛ علم أَن ذَلِك بِسَبَب تعطيلهم لدين نَبِيِّهم وسننه وشرائعه، فَسلَّط الله تعالىٰ عَلَيْهِم من أهلكهم وانتقم مِنْهُم، حَتَّىٰ إِنَّ الْبِلَاد الَّتِي لآثار النبيِّ ﷺ وسننه وشرائعه فِيهَا ظُهُور دفع عَنْهَا بِحَسب ظُهُور ذَلِك بَينهم.

وَهَذِه الخصائص وأضعاف أضعافها من آثَار رَحْمَة الله وَبَرَكَاته علىٰ أهل هَذَا الْبَيْت؛ فَلهَذَا أمرنَا رَسُول الله ﷺ أَن نطلب لَهُ من الله تَعَالَىٰ أَن يُبَارك عَلَيْهِ وعَلىٰ آله، كَمَا بَارك علىٰ هَذَا الْبَيْت الْمُعظَّم - صلوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ -.

وَمن بَرَكَات أهل هَذَا الْبَيْت: أَنَّه سُبْحَانَهُ أظهر علىٰ أَيْديهم من بَرَكَات الدُّنْيَا وَالْآخِرَة مَا لم يظهره علىٰ يَدي أهل بَيت غَيرهم.

وَمن بركاتهم وخصائصهم: أَنَّ الله سُبْحَانَهُ أَعْطَاهُم من خصائصهم مَا لم يُعْطِ غَيرهم، فَمنهمْ من اتَّخذهُ خَلِيلًا، وَمِنْهُم الذَّبِيح، وَمِنْهُم من كَلَّمه تكليمًا وقرَّبه نجيًّا، وَمِنْهُم من آتَاهُ شطر الْحسن وَجعله من أكْرم النَّاس عَلَيْهِ، وَمِنْهُم من آتَاهُ ملكًا لم يؤته أحدًا غَيره، وَمِنْهُم من رَفعه مَكَانًا عليًّا.

وَلما ذكر سبحانه هَذَا الْبَيْت وَذريتهم أخبر أَنَّ كلَّهم فَضَّلَه علىٰ الْعَالمين.

وَمن خصائصهم وبركاتهم علىٰ أهل الأَرْض: أَنَّ الله سُبْحَانَهُ رفع الْعَذَاب الْعَامَّ عَن أهل الأَرْض بهم وببعثتهم، وَكَانَت عَادَته سُبْحَانَهُ فِي أُمَم الْأَنْبِيَاء قبلهم أَنَّهم إِذا كذَّبُوا أنبياءهم ورسلهم أهلكهم بِعَذَاب يعمُّهم، كَمَا فعل بِقوم نوحٍ، وَقوم هودٍ، وَقوم صَالح، وَقوم لوط، فَلَمَّا أنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَالْقُرْآن، رفع بهَا الْعَذَاب الْعَامَّ عَن أهل الأَرْض، وَأمر بجهاد مَن كذَّبهمْ وَخَالفهُم، فَكَانَ ذَلِك نصْرَةً لَهُم بِأَيْدِيهِم، وشفاءً لصدورهم، واتخاذ الشُّهَدَاء مِنْهُم، وإهلاك عدوهم بِأَيْدِيهِم، لتَحْصِيل محابِّه سُبْحَانَهُ علىٰ يديهم، وَحُقَّ لِأَهْل بَيت هَذَا بعض فضائلهم وخصائصهم أَن لَا تزَال الألسن رطبَة بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِم، وَالسَّلَام وَالثنَاء والتعظيم، والقلوب ممتلئة من تعظيمهم ومحبَّتهم وإجلالهم، وَأَن يعرف الْمُصَلِّي عَلَيْهِم أَنَّه لَو أنْفق أنفاسه كلَّهَا فِي الصَّلَاة عَلَيْهِم مَا وفَّىٰ الْقَلِيل من حَقِّهم، فجزاهم الله عَن بريَّته أفضل الْجَزَاء، وَزَادَهُمْ فِي الْمَلأ الْأَعْلَىٰ تَعْظِيمًا وتشريفًا وتكريمًا، وَصلَّىٰ الله عَلَيْهِم صَلَاةً دائمةً لَا انْقِطَاع لَهَا، وَسلَّم تَسْلِيمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين».

والنبيُّ محمَّد ﷺ جدَّد ملَّة إبراهيم، وأدركت النَّاس والدُّنيا كلُّها بتجديده من البركة ما لا يحيط به علم مخلوق، ولا تدركه عبارة تصف ذلك، فقد كان الشِّرك عامًّا في المعمورة، ومن أجل ذلك مقتهم الله جميعًا إلَّا من كان علىٰ ملَّة إبراهيم، وقليلٌ ما هم، فحصل من بعثته استنقاذ الكعبة من المشركين، وإزالة الأصنام من جزيرة العرب، والاهتداء بالقرآن الوحي المحفوظ بعد أن تحرَّفت التوراة والإنجيل، واندرست صحف إبراهيم.

ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا بعد فتح مكَّة، وقامت ألوية الجهاد بالهداية إلىٰ أسباب عتق رقاب النَّاس من النَّار، فأسلمت عامَّة الأمصار في سنوات قليلة، وظهر للنَّاس مصداق قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ [الصف: ٩]، ولا يزال هذا الهدىٰ والخير متجدِّدًا بما يقوم به ورثة ملَّة إبراهيم من الدَّعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، فامتلأت أرجاء الدُّنيا من عباد الله الموحِّدين، واستنارت قلوبهم بوحي الله، وعُمرت الأرض بعبوديَّة الله وتوحيده وذكره.

وإذا شئت أن تعرف هذا المعنىٰ، فتذكَّر من نجا مع نوح؛ قليل! وصار هذا القليل كثيرًا، وبعد فترة من الرُّسل واندراس علم الوحي تضاءل الخير بعد عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلَّا بقايا من موحِّدي الخلق، ثم صار المسلمون أممًا بتجديد النبيِّ ﷺ.

تأمَّل ذلك من لدن الأب الأوَّل آدم، والأب الثاني نوح، والأب الثالث إبراهيم، ثم المجدِّد رسول الله محمَّد ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: ٤٨].

❁ ❁ ❁





حفظ النفس

ظهور ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في واحد من أعظم مقاصدها؛ وهو حفظ النفس؛ أوضح من أن يحتاج إلىٰ شرح، فمن ذريَّة ولده إسماعيل فقط كانت أعظم الأمم زكاءً ودينًا وخُلقًا ونماءً، وإنَّما ذكرت ذلك لإزالة توهُّم معارضة ذلك بسعيه لذبح إسماعيل، وقد ذكرت تفصيل ذلك في مبحث «العزم علىٰ الطَّاعة، والأضحية» من هذا الكتاب.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «استدُلَّ علىٰ تفضيل النِّكاح علىٰ التخلِّي لنوافل العبادة بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ اختار النكاح لأنبيائه ورسله، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨] وقال في حقِّ آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، واقتطع من زمن كليمه عشر سنين في رعاية الغنم مهر الزوجة، ومعلوم مقدار هذه السنين العشر في نوافل العبادات.

واختار لنبيِّه محمَّد ﷺ أفضل الأشياء، فلم يختر له ترك النكاح، بل زوَّجه بتسعٍ فما فوقهن، ولا هدْيَ فوق هديه.

ولو لم يكن فيه إلا سرور النبيِّ ﷺ يوم المباهاة بأمَّتِهِ، ولو لم يكن فيه إلَّا أنَّه بصدد أنَّه لا ينقطع عمله بموته.

ولو لم يكن فيه إلَّا أنَّه يخرج من صلبه من يشهد الله بالوحدانية ولرسوله

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٩٧، ١٠٩٨).

بالرسالة.

ولو لم يكن فيه إلا غضُّ بصره، وإحصان فرجه عن التفاته إلىٰ ما حرَّم الله.

ولو لم يكن فيه إلا تحصين امرأة يُعفُّها الله به، ويثيبه علىٰ قضاء وطره ووَطرها، فهو في لَذَّاته وصحائف حسناته تتزايد.

ولو لم يكنْ فيه إلا ما يُثَابُ عليه من نفقته علىٰ امرأته وكسوتها ومسكنها ورفع اللُّقمة إلىٰ فيها.

ولو لم يكن فيه إلَّا تكثير الإسلام وأهله وغيظ أعداء الإسلام.

ولو لم يكن فيه إلا ما يترتَّب عليه من العبادات التي لا تحصل للمتخلِّي للنوافل.

ولو لم يكن فيه إلَّا تعديل قوَّته الشَّهوانية الصَّارفة له عن تعلُّق قلبه بما هو أنفع له في دينه ودنياه، فإنَّ تعلُّقَ القلب بالشَّهوة ومجاهدته عليها تصدُّه عن تعلُّقه بما هو أنفع له، فإنَّ الهمَّة متىٰ انصرفت إلىٰ شيء انصرفت عن غيره.

ولو لم يكن فيه إلا تعرُّضه لبنات إذا صبر عليهنَّ وأحسن إليهنَّ كُنَّ له سترًا من النَّار.

ولو لم يكن فيه إلَّا أنَّه إذا قدَّم له فَرَطين لم يبلغا الحنث؛ أدخله الله بهما الجنَّة.

ولو لم يكن فيه إلَّا استجلابه عون الله له، فإنَّ في الحديث المرفوع: «**ثلاثة حق علىٰ الله عونهم: النَّاكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والمجاهد**».

❁ ❁ ❁

العزم على الطَّاعة

أُري إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في المنام أنَّه يذبح ابنه إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي من الله، وانقاد الخليل وابنه إسماعيل لأمر الله، وعزما علىٰ طاعة الله، وأخذ الخليل بالعمل بما أمره الله، وأضجع ابنه ليذبحه، فجاء الفرج من الله، وفدىٰ الله إسماعيل بالكبش، فذبحه إبراهيم، فصار في ذلك تشريع لأمرين عظيمين:

أولهما: العزم علىٰ الطاعة، فمن همَّ بحسنة ولم يعملها كُتب له ثوابها.

وثانيهما: ذبح بهيمة الأنعام تقرُّبًا وطاعة لله وحده لا شريك له.

قال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات: ١٠٠-١٠٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٥).

وقد استدلَّ بهذه الآية والقصَّة جماعة من علماء الأصول علىٰ صحَّة النسخ قبل التمكُّن من الفعل، خلافًا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة؛ لأنَّ الله تعالىٰ شرعَ لإبراهيم ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرَفه إلىٰ الفداء، وإنَّما كان المقصود من شرعه أولًا إثابة الخليل علىٰ الصبر علىٰ ذبح ولده، وعزمه علىٰ ذلك».

ونجىٰ الله إسماعيل بالفداء، ليجعل الله من ذريَّته أمَّة مباركة، ويصطفي منها محمَّدًا ﷺ لتُختم به النبوَّات والرِّسالات.

والعزم علىٰ الطَّاعة هو الذي يُبلِّغ المسلم منازل الشُّهداء وإن مات علىٰ فراشه، ولذلك كانت «نيَّة المؤمن خير من عمله»، مع أنَّ النيَّة أوَّل شروط العمل الصَّالح، وشرطه الآخر الاتِّباع للنبيِّ ﷺ؛ لأنَّ نيَّة المؤمن وعزمه علىٰ فعل الطَّاعات ما دام حيًّا.

وأصل الإسلام هو الانقياد لله، فهو العزم علىٰ العمل لله بتوحيده ولوازمه من الأعمال.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الدِّين والإيمان قول وعمل، وأوَّله قول القلب وعمله، فمن لم ينقد بقلبه ولم يَذِلَّ لله؛ لم يكن مؤمنًا».

والعزم علىٰ الطَّاعات والمسارعة إلىٰ فعلها هو فصل ما بين المؤمنين والمنافقين، فالمنافقون لا يعزمون علىٰ الخير من شعب الإيمان؛ لأنَّ بواطنهم منطوية علىٰ الكفر، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قعد بهم الكسل عمَّا أُمروا به من

---

(١) الاستقامة (ص١٢٣).

(٢) مدارج السَّالكين (١/ ٢٨٦).

أوامر الرَّحمن، فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلًا، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]».

وفرق ما بين المؤمنين أهل الجنَّة والكافرين أهل النَّار يرجع في أصله إلىٰ العزم، فالمؤمنون عزموا القصد والنيَّة علىٰ اتِّباع الشرع ما استطاعوا، والكافرون عقدوا العزم علىٰ الاستكبار عن الشَّرع وعدم الانقياد له، فذلك قول النبيِّ ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كِبْرٍ**»، رواه مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفرق ما بين خير أمَّة أُخرجت للنَّاس، الأُمَّة المرضيَّة المرحومة، والأمَّة المغضوب عليها؛ هو عزم المرحومين علىٰ السَّمع والطَّاعة؛ ﴿**قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا**﴾ [النساء: ٤٦]، وعزم المغضوب عليهم علىٰ المعصية والاستكبار عن أمر الله؛ ﴿**قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا**﴾ [البقرة: ٩٣].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يجب علىٰ طالب العلم أن يعزم عزمًا جازمًا علىٰ تقديم قول الله عَزَّوَجَلَّ وقول رسول الله ﷺ علىٰ قول كلِّ أحدٍ، وأن يكون أصله الذي يرجع إليه، وأساسه الذي يبني عليه: الاهتداء بهدي النبيِّ ﷺ، والاجتهاد في معرفة مراده، واتباعه في ذلك ظاهرًا وباطنًا».

والعزم علىٰ الطَّاعة والمسابقة إليها هو الذي تخلَّف عنه المنافقون.

فالكمال والخير كُلُّه في العلم النَّافع والعزيمة علىٰ العمل الصَّالح، وقد

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٢١٠).

تحدَّث ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أقسام النَّاس في ذلك، فقال[١]: «النَّاس في هذا علىٰ أربعة أضرب:

الضرب الأول: من رُزق علمًا وأُعِينَ علىٰ ذلك بقوَّة العزيمة علىٰ العمل به، وهذا الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون في القرآن بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، وبقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فبالحياة نال العزيمة وبالنُّور نالَ العلم، وأئمَّة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل.

الضرب الثاني: من حُرم هذا وهذا، وهم الموصوفون بقوله: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢﴾ [الأنفال: ٢٢]».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **متمِّمًا ذكر أقسام النَّاس**[٢]: «الضرب الثالث: من فُتح له باب العلم، وأُغلق عنه باب العزم والعمل، فهذا في رتبة الجاهل أو شرٌّ منه.

وفي الحديث المرفوع: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**»، ثبَّته أبو نعيم وغيره.

فهذا جهله كان خيرًا له وأخف لعذابه من علمه، فما زاده العلم إلَّا وبالًا وعذابًا، وهذا لا مطمع في صلاحه، فإنَّ التائه عن الطريق يُرجىٰ له العَوْد إليها إذا أبصرها، فإذا عرفها وحاد عنها عمدًا فمتىٰ تُرجىٰ هدايته؟! قال تعالىٰ: ﴿كَيْفَ

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١٩، ٣٢٠).

يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

الضرب الرابع: من رُزق حظًّا من العزيمة والإرادة، ولكن قلَّ نصيبه من العلم والمعرفة، فهذا إذا وُفِّق له الاقتداء بداعٍ من دعاة الله - عَزَّوَجَلَّ - ورسوله - ﷺ - كان من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

رزقنا الله من فضله، ولا حَرَمنا بسوء أعمالنا، إنَّه غفور رحيم».

والمسلم إذا اعتاد فعل الطاعات، وعزماته كانت في المسابقة إلىٰ الخيرات؛ كُتب له ما اعتاده من شُعب الإيمان وخصال البِرِّ والتَّقوىٰ إذا حال بينه وبين فعلها عذر أو مانع.

عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر، كُتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»، رواه البخاريُّ.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُٱللَّهُ[(١)]: «هذا من أكبر مِنَن الله علىٰ عباده المؤمنين؛ أنَّ أعمالهم المستمرَّة المعتادة إذا قطعهم عنها مرض أو سفر كُتبت لهم كلُّها كاملة؛ لأنَّ الله يعلم منهم أنَّه لولا ذلك المانع لفعلوها، فيعطيهم تعالىٰ بنيَّاتهم مثل أجور العاملين، مع أجر المرض الخاصِّ، ومع ما يحصل به من القيام بوظيفة الصبر، أو ما هو أكمل من ذلك من الرضا والشكر،

(١) بهجة قلوب الأبرار وقُرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص١٠٩).

ومن الخضوع لله والانكسار له، ومع ما يفعله المسافر من أعمال ربَّما لا يفعلها في الحضر؛ من تعليم، أو نصيحة، أو إرشاد إلىٰ مصلحة دينية أو دنيوية، وخصوصًا في الأسفار الخيرية؛ كالجهاد، والحجِّ والعمرة، ونحوها».

وإنَّما يلتجئ المسلم إلىٰ ربِّه ويسأله أن يحيي عزماته علىٰ طاعة الله؛ لأنَّه هو الذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من تقرَّب إليك أوَّلًا حتىٰ تقرَّبت إليه، ثم أثابك علىٰ هذا التقرُّب تقرُّبًا آخر، فصار التقرُّب منك محفوفًا بتقرُّبين منه تعالىٰ؛ تقرُّب قبله، وتقرُّب بعده، والحبُّ منك محفوفًا بحُبَّين منه؛ حبٌّ قبله، وحبٌّ بعده، والذكر منك محفوفًا بذِكْرين؛ ذكرٍ قبله، وذكرٍ بعده؛ فلولا سابق ذكره إيَّاك لم يكن من ذلك كلِّه شيء، ولا وصل إلىٰ قلبك ذرَّةٌ ممَّا وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبَّته وخوفه ورجائه والتوكُّل عليه والإنابة إليه والتقرُّب إليه».

فما أعظم إحسان ربِّنا إلينا! هدانا، ويسَّرنا لليسرىٰ، وأعاننا علىٰ طاعته، وهو الغنيُّ عن عباداتنا، ويحسن إلينا كذلك بثوابه ولقائه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هو سبحانه يبيِّن غناه عن أعمال خلقه، وأنَّهم إنَّما يعملون لأنفسهم، وإنَّما هو سبحانه لكمال إحسانه وإنعامه علىٰ عباده المؤمنين أمرهم بالجهاد، وأمرهم بالصدقة، وأخبر أنَّ ذلك نَصْرٌ له، وإقراضٌ منه، فقال تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٨٤، ٨٥).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الرابعة (ص٢٨٢).

ﵟٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاﵞ [الحديد: ١١]، وهم إنَّما يجاهدون ويتصدَّقون بإعانته لهم، وهو المحسن بالأمر إليهم، وهو المحسن بالإعانة لهم، وهو المحسن بالجزاء لهم، وقد قال تعالىٰ: ﵟوَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗﵞ [محمد: ٤]».

ولا ينفك المسلم عن الاستعانة بالله في عبوديَّته، وفي قضاء أموره الدينية والدنيويَّة، فهو سبحانه المستعان علىٰ أداء الأمور والحاجات كلِّها، وربُّنا الله الذي ربَّانا بالهداية إلىٰ كلِّ خير، وكان في صراطه الهداية إلىٰ كلِّ طريق يوصل إلىٰ الجنَّة وينجي من النَّار والمهالك والشُّرور والمعايب.

[إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ العبادة تتضمَّن المقصود المطلوب علىٰ أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يُستعان به علىٰ حصول المطلوب ودفع المكروه.

فالأوَّل من مقتضىٰ ألوهيَّته، والثاني من مقتضىٰ ربوبيَّته؛ لأنَّ الإله هو الذي يُؤله فيُعبد محبَّة وإنابةً وإجلالًا وإكرامًا، والربُّ هو الذي يرُبُّ عبده فيعطيه خَلْقَه، ثُمَّ يهديه إلىٰ جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله، ويهديه إلىٰ اجتناب المفاسد التي بها فساده وهلاكه».

والمسلم مأمور بالاستعانة بالله في عبوديَّته والصَّبر علىٰ ذلك، فالعزائم بالصَّبر لا تنقطع عن الخير.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الصبر سبب في حصول كلِّ كمال ممكن،

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١١٧).

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٥٧٨، ٥٧٩).

فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلَّف عن أحد كماله الممكن إلَّا من ضعف صبره، فإنَّ كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم تكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص.

فإذا انضمَّ الثبات إلىٰ العزيمة أثمر كلَّ مقام شريف، وحال كامل؛ ولهذا في دعاء النبيِّ ﷺ: «**اللهم إنِّي أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة علىٰ الرشد**»، ومعلوم أنَّ شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلَّا علىٰ ساق الصبر، فلو علم العبدُ الكنزَ الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة - أعني اسم «الصبر» - لما تخلَّف عنه، قال النبيُّ ﷺ: «**ما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «خير عيش أدركناه بالصَّبر».

وفي مثل هذا قال القائل:

نــزِّه فــؤادك عــن ســوانا وَالْقَنــا ... فجنابُنــا حِــلٌّ لكــل منــزِّهِ

والصــبر طلســم لكنــز وصــالنا ... مــن حــل ذا الطلســم فــاز بكنــزه

فالصبر طلسم علىٰ كنز السعادة من حلَّه ظفر بالكنز».

والنَّاس طبقات في العزم علىٰ الطاعات، وفي فعلها، أعلىٰ الناس طبقةً في ذلك أولو العزم من الرسل، وبعزمهم علىٰ الطاعة والصدق والإخلاص في فعلها امتدحهم الله، قال تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «العزم الذي مدح الله به خيار خَلْقه، كقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، هو قوَّة الإرادة،

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص٦١).

وجزمها علىٰ الاستمرار علىٰ أمر الله، والهمَّة التي لا تني، ولا تفتر في طلب رضوان الله، وحسن معاملته، وتوطين النَّفس علىٰ عدم التَّقصير في شيء من حقوق الله».

وكمال الأمَّة في مجموعها وأفرادها بالعلم بالحقِّ والعزم علىٰ فعله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾ [العصر].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾ [التين: ٤-٦].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لمَّا كان الإنسان له قُوَّتان: قوَّةُ العلم، وقوَّةُ العمل. وله حالتان:

حالةٌ يأتمر فيها بأمر غيره، وحالةٌ يأمر فيها غيره، استثنىٰ سبحانه من كمَّلَ قوَّته العلميَّة بالإيمان، وقوَّته العَمَليَّة بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمَرَ غيرَه به؛ من الإنسان الذي هو في خُسْرٍ.

فإنَّ العبد له حالتان: حالةُ كمالٍ في نفسه، وحالةُ تكميلٍ لغيره.

وكماله وتكميله موقوفٌ علىٰ أمرين: علمٌ بالحقِّ، وصبْرٌ عليه.

فانتظمت هذه الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصَّالح، والإحسان إلىٰ نفسه بذلك، وإلىٰ أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك».

والمسلم إذا تحقَّق اعتقادًا وعلمًا وعملًا بقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

(١) التِّبيان في أيمان القرآن (ص ١٣٦).

نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، صار دائم الالتجاء إلىٰ ربِّه يسأله الإعانة علىٰ العزم علىٰ الخير والطاعات وفعلها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ مشيئة الله سبحانه تارةً تتعلَّق بفعله، وتارةً تتعلَّق بفعل العبد.

فتعلُّقها بفعله سبحانه هو أن يشاء من نفسه إعانةَ عبده، وتوفيقَهُ، وتهيئتَهُ للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئةُ الله لمشيئة عبده، دون أن يشاء فعله، فإنَّه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئةَ وحدَها، فيشاء العبدُ الفعلَ ويريده ولا يفعله؛ لأنَّه لم يشأ من نفسه سبحانه إعانتَهُ عليه، وتوفيقَهُ له.

وقد دلَّ علىٰ هذا وهذا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [المدثر: ٥٦].

وهاتان الآيتان متضمِّنَتَان إثباتَ: الشرعِ والقَدَرِ، والأسبابِ والمسبِّباتِ، وفعلِ العبد واستنادِهِ إلىٰ فعل الرَّبِّ.

ولكلٍّ منهما عبوديةٌ تختَصُّ بها:

فعبودية الآية الأُولَىٰ: الاجتهادُ، واستفراغُ الوسع، والاختيارُ، والسَّعْي.

وعبودية الثانية: الاستعانةُ بالله، والتوكُّلُ عليه، واللَّجأُ إليه، واستنزالُ التوفيقِ والعَوْنِ منه، والعلمُ بأنَّ العبد لا يمكنه أن يشاءَ ولا يفعلَ حتَّىٰ يجعله الله كذلك.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ينتظمُ ذلك كلَّه ويتَضَمَّنُه، فمن عطَّلَ أحد الأمرين

---

(١) التِّبيان في أيمان القرآن (ص ٢٠٥، ٢٠٦).

فقد جحد كمال الربوبيَّة وعطَّلها، وبالله التوفيق».

ومن أجل هذا كان النبيُّ ﷺ يتعوَّذ بالله من الكسل، قال التوربشتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هو التَّثاقُل عمَّا لا ينبغي التثاقل عنه، ويكون ذلك لعدم انبعاث النَّفْس للخير مع ظهور الاستطاعة».

وقد حذَّرنا النبيُّ ﷺ من أسباب التثاقل عن الطاعات، وحثَّنا علىٰ استباق الخيرات.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «حذارِ من التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإنَّك إن تهاونت به ثبَّطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبةً لك، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣]».

وصبر الخليل إبراهيم عليه السلام علىٰ طاعة الله هو الذي أعلىٰ مقامه عند ربه، وهو الذي بسببه صار أمَّة وإمامًا للحنفاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لم يكن الذبح مصلحة، ولا كان هو مطلوب الربِّ في نفس الأمر، بل كان مراد الربِّ ابتلاء إبراهيم ليقدِّم طاعة ربِّه ومحبَّته علىٰ محبَّة الولد، ولا يبقىٰ في قلبه التفات إلىٰ غير الله، فإنه كان يحبُّ الولد محبَّةً شديدةً».

---

(١) قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي (٣/ ١٠٩٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٢٩).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٢٠٣).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تأمَّل حَال أبينا الثَّالِث إِبْرَاهِيم ﷺ إِمَام الحنفاء، وَشَيخ الأنبياء، وعمود الْعَالم، وخليل ربِّ الْعَالمين من بني آدم، وَتأمَّل مَا آلت إليه محنته وَصَبره وبذله نَفسه لله.

وَتأمَّل كَيفَ آل بِهِ بذله لله نَفسه وَنَصره دينه إلىٰ أن اتَّخذهُ الله خَلِيلًا لنَفسِهِ، وأمر رَسُوله وخليله مُحَمَّدًا ﷺ أن يتَّبع مِلَّته.

وأنبِّهك علىٰ خصْلَة وَاحِدَة مِمَّا أكرمه الله بِهِ فِي محنته بِذبح وَلَده، فَإِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جازاه علىٰ تَسْلِيمه وَلَده لأمر الله بَأن بَارك فِي نَسْله وَكَثَّره حَتَّىٰ مَلأ السَّهل والجبل، فَإِنَّ الله تعالىٰ لَا يتكرَّمُ عَلَيْهِ أحَدٌ، وَهُوَ أكرم الأكرمين، فَمن ترك لوجهه أمرًا أَوْ فعله لوجهه بذل الله لَهُ أضعاف مَا تَركه من ذَلِك الأمر أضعافًا مضاعفةً، وجازاه بأضعاف مَا فعله لأجله أضعافًا مضاعفة.

فَلَمَّا أُمر إِبْرَاهِيم بِذبح وَلَده فبادر لأمر الله، وَوَافَقَ عَلَيْهِ الْوَلَدُ أَبَاهُ، رِضًا مِنْهُمَا وتسليمًا، وَعلِم الله مِنْهُمَا الصِّدْق وَالْوَفَاء فدَاه بِذبح عَظِيم، وأعطاهما مَا أعطاهما من فَضله، وَكَانَ من بعض عطاياه أن بَارك فِي ذرِّيَّتهما حَتَّىٰ ملئوا الأرض، فَإِنَّ الْمَقْصُود بِالْوَلَدِ إِنَّمَا هُوَ التناسل وتكثير الذُّرِّيَّة؛ وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيم: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وَقَالَ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

فغاية مَا كَانَ يحذر ويخشىٰ من ذبح وَلَده انْقِطَاع نَسْله، فَلَمَّا بذل وَلَده لله وبذل الْوَلَد نَفسه؛ ضاعف الله لَهُ النَّسْل، وَبَارك فِيهِ، وَكَثَّرَهُ حَتَّىٰ ملئوا الدُّنْيَا،

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٨٤٨، ٨٤٩).

وَجعل النُّبُوَّة وَالْكتاب فِي ذُرِيَّته خَاصَّة، وَأخرج مِنْهُم مُحَمَّدًا ﷺ».

وما تُلقيه الملائكة في نفوس المؤمنين من الشعور بالطاعة والعزم عليها؛ هو من تأييد الله لعباده المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العلم يحصل في النفس كما تحصل سائر الإدراكات والحركات بما يجعله الله من الأسباب، وعامَّة ذلك بملائكة الله تعالىٰ، فإنَّ الله سبحانه ينزل بها علىٰ قلوب عباده من العلم والقوَّة وغير ذلك ما يشاء؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ لحسَّان: «**اللهم أيِّده بروح القدس**»».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ [الحُجُرات: ٧، ٨]، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ للملك لمَّة، وللشيطان لمَّة، فلمة الملك: إيعاد بالخير وتصديق بالحقِّ. ولمَّة الشيطان إيعاد بالشرِّ وتكذيب بالحقِّ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هذا الكلام الذي قاله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو محفوظ عنه، وربَّما رفعه بعضهم إلىٰ النبيِّ ﷺ. وهو كلام جامع لأصول ما يكون من العبد من علم وعمل، من شعور وإرادة. وذلك: أنَّ العبد له قوَّة الشعور والإحساس والإدراك، وقوة الإرادة والحركة، وإحداهما أصل الثانية مستلزمة لها، والثانية مستلزمة للأولىٰ ومكملة لها.

---

(١) نقض المنطق (ص٢٨).

(٢) نقض المنطق (ص ٢٩، ٣٠).

فهو بالأولىٰ يصدِّق بالحقِّ ويُكذِّب بالباطل، وبالثانية يحبُّ النافع الملائم له، ويبغض الضارَّ المنافي له.

والله سبحانه خلق عباده علىٰ الفطرة التي فيها معرفة الحقِّ والتصديق به، ومعرفة الباطل والتكذيب به، ومعرفة النافع الملائم والمحبَّة له، ومعرفة الضارِّ المنافي والبغض له بالفطرة. فما كان حقًّا موجودًا صدَّقت به الفطرة، وما كان حقًّا نافعًا عرفته الفطرة فأحبَّته واطمأنت إليه. وذلك هو المعروف.

وما كان باطلًا معدومًا كذَّبت به الفطرة، فأبغضته الفطرة، فأنكرته، قال تعالىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والإنسان كما سمَّاه النبيُّ ﷺ حيث قال: «**أصدق الأسماء حارث وهمَّام**»، فهو دائمًا يهمُّ ويعمل، لكنَّه لا يعمل إلَّا ما يرجو نفعه أو دفع مضرَّته، ولكن قد يكون ذلك الرجاء مبنيًّا علىٰ اعتقاد باطل، إمَّا في نفس المقصود: فلا يكون نافعًا ولا ضارًّا، وإمَّا في الوسيلة: فلا تكون طريقًا إليه، وهذا جهل.

وقد يعلم أنَّ هذا الشيء يضرُّه ويفعله، ويعلم أنَّه ينفعه ويتركه؛ لأنَّ ذلك العلم عارضه ما في نفسه من طلب لذَّة أخرىٰ أو دفع ألم آخر، جاهلًا ظالمًا؛ حيث قدَّم هذا علىٰ ذاك. ولهذا قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سألت أصحاب محمد ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]؛ فقالوا: كل من عصىٰ الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب».

وإذا كان الإنسان لا يتحرَّك إلَّا راجيًا، وإن كان راهبًا خائفًا لم يسعَ إلا في

النجاة، ولم يهرب إلَّا من الخوف، فالرجاء لا يكون إلَّا بما يُلْقَىٰ في نفسه من الإيعاد بالخير، الذي هو طلب المحبوب، أو فوات المكروه.

فكلُّ بني آدم له اعتقاد؛ فيه تصديق بشيء وتكذيب بشيء، وله قصد وإرادة لما يرجوه ممَّا هو عنده محبوب ممكن الوصول إليه، أو لوجود المحبوب عنده، أو لدفع المكروه عنه.

والله خلق العبد يقصد الخير فيرجوه بعمله، فإذا كذَّب بالحقِّ فلم يصدِّق به ولم يرجُ الخير فيقصده ويعمل له؛ كان خاسرًا بترك تصديق الحقِّ وطلب الخير، فكيف إذا كذَّب بالحقِّ وكره إرادة الخير؟! فكيف إذا صدَّق بالباطل وأراد الشرَّ؟!!

فذكر عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ لقلب ابن آدم لَمَّة من الملك، ولَمَّة من الشيطان، فلمةَ الملك تصديق بالحقِّ، وهو ما كان من غير جنس الاعتقاد الفاسد، ولمَّة الشيطان هو تكذيب بالحقِّ وإيعاد بالشرِّ، وهو ما كان من جنس إرادة الشرِّ، وظنٍّ وجوده؛ إمَّا مع رجائه إن كان مع هوىٰ نفس، وإمَّا مع خوفه إن كان غير محبوب لها.

وكلٌّ من الرجاء والخوف مستلزم للآخر. فمبدأ العلم: الحقِّ والإرادة الصالحة: من لمَّة الملك. ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة: من لمَّة الشيطان، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوِّفكم أولياءه».

وليحذر المسلم أن يصدَّهُ عن فعل الخير وقصده التطيُّرُ، فإنَّه مع كونه شركًا؛ فإنَّه من أسباب تعطيل مصالح الدنيا والآخرة، فيقطع التطيُّر المتشائمَ عن أموره الدينيَّة والدنيويَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الفأل الشرعي؛ وهو الذي كان يعجب النبيَّ ﷺ؛ وهو أن يخرج متوكِّلًا علىٰ الله، فيسمع الكلمة الطيِّبة، وكان يعجبه الفأل ويكره الطيرة؛ لأنَّ الفأل تقوية لما فعله بإذن الله والتوكُّل عليه، والطيرة معارضة لذلك، فيُكره للإنسان أن يتطيَّر، وإنَّما تضرُّ الطيرة من تطيَّر؛ لأنه أضرَّ نفسه. فأمَّا المتوكِّل علىٰ الله فلا».

ونسخ بعض التكاليف من الأخفِّ إلىٰ الأثقل، أو العكس، أو إلىٰ مساوٍ؛ هو من التعبُّد لله بالعزم علىٰ الطاعة، وكلُّها طاعات تُثقِّل الموازين وتزيد في الحسنات، يحقِّق بها العبد إسلامه لله، فيعبده متذللًا له حبًّا ورجاءً وخوفًا، فرحًا بالإقبال علىٰ الله، ومبتغيًا ما في العبادات من أنواع التزكية.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «تأمَّل الحكمة في التَّشديد في أوَّل التكليف، ثم التيسير في آخره، بعد توطين النَّفس علىٰ العزم والامتثال، فيحصل للعبد الأمران: الأجر علىٰ عزمه وتوطين نفسه علىٰ الامتثال، والتيسير والسهولة بما خفَّف الله عنه.

فمن ذلك: أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ بخمسين صلاة ليلة الإسراء، ثمَّ خفَّفها

(١) نقض المنطق (ص ٦٧).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٣٤).

وتصدَّق بجعلها خمسًا.

ومن ذلك: أنَّه أمر أوَّلًا بصبر الواحد للعشرة، ثمَّ خفَّف عنهم ذلك إلىٰ الاثنين.

ومن ذلك: أنَّه حرَّم عليهم في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع، ثمَّ خفَّف عنهم بإباحة ذلك إلىٰ الفجر.

ومن ذلك: أنَّه أوجب عليهم تقديم الصَّدقة بين يدي مناجاة رسوله ﷺ، فلمَّا وطَّنوا أنفسهم علىٰ ذلك خفَّفه عنهم.

ومن ذلك: تخفيف الاعتداد بالحول بأربعة أشهر وعشرًا.

وهذا كما قد يقع في الابتلاء بالأوامر فقد يقع في الابتلاء بالقضاء والقدر، يشدَّد علىٰ العبد أوَّلًا ثمَّ يخفَّف عنه، وحكمة هذا تسهيل الثاني بالأوَّل، وتلقِّي الثاني بالرِّضا وشهود المِنَّة والرحمة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن هذا: أنَّهم أُمروا أوَّلًا بالصيام، وخُيِّروا فيه بين الصوم عينًا وبين التَّخيير بينه وبين الفدية، فلمَّا أَلِفُوه أُمروا بالصَّوم عينًا.

ومن ذلك: أنَّهم أُذن لهم بالجهاد أولًا من غير أن يُوْجَب عليهم، فلمَّا توطَّنَت عليه أنفسهم وباشروا حُسْنَ عاقبته وثمرته؛ أُمروا به فَرْضًا.

وحكمة هذا التدريج التربية علىٰ قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئًا فشيئًا».

ومع استباق أهل العزم للخيرات، وإقامتهم للطَّاعات، ومبادرتهم للصالحات، ومداومتهم السير إلىٰ الله والعمل برضاه؛ فإنهم يستغفرون من تقصيرهم، فمهما

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٣٤، ١١٣٥).

أتينا من العبادات فإنَّنا مقصِّرون.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أرباب العزائم والبصائر أشدُّ ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات؛ لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنَّه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيِّده.

وقد أمر الله تعالىٰ وفده وحجَّاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجلُّ المواقف وأفضلها، فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، قال الحسن: مَدُّوا الصلاة إلىٰ السَّحَر، ثم جلسوا يستغفرون الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي «الصحيح»: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا سلَّم من الصلاة استغفر ثلاثًا، ثم قال: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»، وأمره الله تعالىٰ بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحجِّ، واقتراب أجله؛ فقال في آخر سورة أُنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

ومن هنا فهم عمر، وابن عبَّاس - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ - أن هذا أَجلُ رسول الله ﷺ

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٣٧، ١٣٨).

أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه، فكأنَّه إعلام بأنَّك قد أدَّيت ما عليك، ولم يبقَ عليك شيء، فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحجِّ وقيام الليل، وخاتمة الوضوء أيضًا أن يقول بعد فراغه: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**».

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها».

وما يُعزم علىٰ فعله وتركه يحتاج إلىٰ ستَّة أمور؛ قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

«الأمر الأوَّل: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره، بكونه محبوبًا للربِّ تعالىٰ مرضيًّا له فيؤثره، وكونه مغضوبًا له مسخوطًا فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامَّة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحبُّ الله منه أن يفعله عازمًا عليه، ومريدًا لترك جميع ما نهىٰ الله، عازمًا علىٰ تركه بعد خطوره بالبال مفصَّلًا، وعازمًا علىٰ تركه من حيث الجملة مجملًا، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدىٰ التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائمًا به فعلًا وتركًا، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه.

فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها:

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٤٩، ٤٥٠).

أحدها: أمور هُدي إليها جملةً، ولم يَهْتدِ إلىٰ تفاصيلها؛ فهو محتاج إلىٰ هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلىٰ تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هُدِيَ إليها تفصيلًا من جميع وجوهها، فهو محتاج إلىٰ الاستمرار علىٰ الهداية والدَّوام عليها».





الصراط المستقيم

الصِّراط المستقيم هو علوم الوحي التي أوحاها الله إلىٰ رسله وأنبيائه؛ ليأمروا النَّاس بسلوكه في عبوديَّتهم لله وحده لا شريك له، وفي سيرهم إلىٰ الدَّار الآخرة، قال سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ٤٣].

وعندما بنىٰ سيد الحنفاء الكعبة بمكَّة بأمر الله، سأل الله أن يبعث في مكَّة من أهلها رسولًا يدعوهم ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم، فقال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩].

فآيات الله الشَّرعيَّة هي الهدىٰ للخلق والنُّور والتَّزكية، وهي صراط الله المستقيم، الذي من اتَّبعه؛ كان من الحنفاء الذين يدخلون الجنة ويرضىٰ عنهم ربُّهم.

والصِّراط المستقيم هو نعمة الإسلام التي أنعم الله بها علىٰ خلقه؛ لتهديهم إلىٰ صحيح الاعتقاد وأزكىٰ الإرادات والأقوال والأفعال، قال تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فاتِّباع الأنبياء فيما بيَّنوه من أداء حقِّ الله وحقوق عباده؛ هو شرع الله، وهو الصِّراط المستقيم، وهو طريق الهدىٰ، الذي من سار عليه أفلح وأنجح.

وعندما أتمَّ الله نعمته علىٰ عباده الحنفاء بإكمال الدِّين وبيانه، وإبلاغ

الرَّسول الخليل محمد ﷺ لمجمل ومفصَّل الوحي قال الله ممتنًّا علىٰ عباده: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فنعمة الدُّنيا سبب لنعمة الآخرة، ونعمة الدُّنيا موصولة بنعمة الآخرة، فباتِّباع الوحي ولزوم الصِّراط المستقيم يدخل النَّاس الجنَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الحمد لله علىٰ نعمة الإسلام، التي هي أعظم النِّعم، وأمُّ كل خير، كما يحبُّ ربُّنا ويرضىٰ».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الصِّراط هو الدِّين الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وبعث به جميع الرُّسل عليهم السَّلام؛ هو الصِّراط المستقيم، بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو توحيده، والإخلاص له، وطاعة أوامره وترك نواهيه، والوقوف عند حدوده».

فالصِّراط المستقيم هو سبيل الله، وهو اتِّباع وحيه، والسُّبل المخالفة له جائرة عن طريق الحقِّ والعدل، وهي ضلالات الكفر والشِّرك والبدع والذُّنوب. قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «طريق الحقِّ؛ هي الطَّريق التي شرعها

---

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (١/ ١٩٩).

(٢) تعليق علىٰ تفسير ابن كثير للفاتحة (ص١٨٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٢٧).

ورضيها، وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، أي: حائد مائل زائغ عن الحق.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **وغيره:** هي الطُّرُقُ المختلفة والآراء والأهواء المتفرِّقة؛ كاليهوديَّة والنَّصرانيَّة والمجوسيَّة».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الصِّراط المستقيم، الذي هو أقرب الطُّرق وأخصرها، موصل إلىٰ الله.

وأما الطَّريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف الصِّراط المستقيم؛ فهو قاطع عن الله موصِّل إلىٰ دار الشَّقاء».

وحقيقة الصِّراط المستقيم الكلم الطيِّب والعمل الصَّالح، وأساس العمل الصَّالح والكلم الطيِّب هو توحيد الله، وتُثمر كلمة التَّوحيد شعب الإيمان التي هي حقوق كلمة التَّوحيد ولوازمها، قال تعالىٰ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

الصِّراط المستقيم هو الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ والاتِّباع لرسوله ﷺ، وذلك حقيقة الدِّين كلِّه، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٥٨).

وقد قال سفيان بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك؛ قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»، رواه مسلم.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «هاتان الكلمتان جمعتا الدين كله».

الصِّراط المستقيم مجمله وتفصيله يرجع إلىٰ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، وما آتانا الرَّسول من الأخبار آمنا به، وما أمرنا به من الاعتقادات والأقوال والأعمال أخذنا به، وما نهانا عنه من أنواع المنهيات تركناه؛ فالصِّراط هو الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ والاتِّباع للرَّسول ﷺ.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «الصراط المستقيم هو العلم النَّافع والعمل الصَّالح.

والعلم النَّافع هو ما جاء به الرَّسول ﷺ من الكتاب والسُّنَّة، والعمل الصَّالح هو التقرُّب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالاعتقادات الصَّحيحة، وأداء الفرائض والنَّوافل، واجتناب المنهيَّات، وهو القيام بحقوق الله وحقوق عباده، ولا يتمُّ ذلك إلَّا بالإخلاص التامِّ لله عَزَّوَجَلَّ والمتابعة لرسول الله ﷺ».

وصراط الله هو وحيه، وهو كلماته الشَّرعيَّة، ومعناه الكلِّي يرجع إلىٰ أصدق الكلام وأعدل الأحكام، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأخباره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن ذاته

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص٢٦٢).

(٢) سؤال وجواب في أهمّ المهمَّات (ص١٩).

وأسمائه وصفاته واليوم الآخر والحساب، وقصص النبيِّين، وثواب الحنفاء الموحِّدين، وعقاب المشركين؛ يهدي الحنفاء إلىٰ عبوديَّة الله حبًّا ورغبة ورهبة واتِّباعًا للنبيِّين فيما يبلِّغونه عن الله.

وأمر الله ونهيه كلُّه خير، وسبب لتزكية الأفراد والمجتمعات، قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فالنبيُّون جميعًا عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بالوحي لإقامة التَّوحيد والعدل، وهداية النَّاس إلىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ [الصف: ٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «حقيقة الدِّين كلِّه هي شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وهو صراط الله المستقيم ممَّا ارتضاه الله لخلقه من الاعتقادات والأقوال والأفعال».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، فأيّ شيء فُسِّر به الصِّراط فهو داخل في هذين الأصلين».

وقال أيضًا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «التَّحقق بشهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٠).

(٢، ٣) بدائع الفوائد (٢/ ٤٥٢، ٤٥٣)، باختصار.

محمدًا رسول الله، هذا هو الهدىٰ ودين الحقِّ، وهو معرفة الحقِّ والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به».

فالرُّسل جميعًا عليهم الصلاة والسَّلام بُعثوا بالصِّراط المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

وقد خَلَق الله الخَلْق علىٰ حنيفيَّة التَّوحيد وفطرة الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة**»، متَّفق عليه، وخلق الله الأرض علىٰ الصَّلاح والبركة، وأرسل الله رسله بالوحي والهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم؛ لتكميل الفطرة، ولحفظ الأرض والخلق من الفساد، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالشِّرك، والكفر، والبدع، والمعاصي».

وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صار سيد الحنفاء باتِّباعه ودعوته للصِّراط المستقيم وعلوم الوحي الإلهيَّة، وهكذا سائر الأنبياء خصوصًا الخليل محمدًا ﷺ، وورثتهم من العلماء؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إبراهيم - صلوات الله عليه - هو الإمام الذي قال الله فيه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]».

وأئمَّة الهدىٰ جميعًا من الرُّسل وورثتهم كلّهم يدعو إلىٰ حنيفيَّة التَّوحيد ملَّة إبراهيم، وهي عبوديَّة الله وحده لا شريك له، وذلك صراط الله المستقيم.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم أن تعبد الله مخلصًا له الدِّين، وبذلك أمر الله جميع النَّاس، وخلقهم لها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٤].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: موصِّل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ».

صراط الله المستقيم هو ما علمه الرسول الملكي جبريل عليه السلام والرَّسول البشريُّ محمد ﷺ للنَّاس كافَّة من معنىٰ: الإيمان والإسلام والإحسان؛ قال الفاروق عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثِّياب، شديد سواد الشَّعر، لا يُرىٰ عليه أثر السَّفَر ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس إلىٰ النبيِّ ﷺ فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كَفَّيْه علىٰ فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام.

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٧٩).

(٢) الدُّرر السنيَّة (٢/ ٢٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٨١٦).

فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا**». قال: صدقت. قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خَيْره وشرِّه**». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، رواه مسلم.

فالإيمان هو علم القلب واعتقاده وعمله، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه.

والإسلام هو حقيقة الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وحجُّ البيت من استطاع إليه سبيلًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «متىٰ حصل له هذا الإيمان؛ وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام، الذي هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج؛ لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله والانقياد له، وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنًا ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه».

وقال شيخ الإسلام[٢]: «العمل الظَّاهر لازم للعمل الباطن، لا ينفكُّ عنه،

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٤٤).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٤٤٦).

وانتفاء الظَّاهر دليل انتفاء الباطن».

والإحسان هو كمال الإخلاص لله بالفعل الحسن الموافق للسنَّة، قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢] [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنه سأله عن الإسلام والإيمان، ففي إحسان هذا الإسلام والدين الذي يكون صاحبه محسنًا وتابعًا لما فيه رضوان الله في الأقوال والأفعال، هو المقام الذي أشار إليه النبيُّ ﷺ حين قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»، ومراقبة الله هي السرُّ المطلوب في جميع الأحوال».

والدِّين كلُّه في اتِّباع الصِّراط المستقيم، وذلك حقيقته تلاوة القرآن حقَّ تلاوته، قال تعالىٰ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «معنىٰ ﴿تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ اتباعه، بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهىٰ عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبُّر معانيه، وتلاوة ألفاظه؛ فصار تلاوة لفظه جزء المعنىٰ وبعضه، وإذا كان هذا معنىٰ تلاوة الكتاب؛ علم أن إقامة الدِّين كله داخلةٌ في تلاوة الكتاب».

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٥٧٨).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٥٧٩-٥٨١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٦٩).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدىٰ ودين الحقِّ الذي أمره أن يخبر بأنَّ الله تعالىٰ هداه إليه في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثمَّ فسَّره بقوله تعالىٰ: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]».

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٤).

عبودية الله بقصده بالتوجُّه للقبلة

اصطفىٰ الله مكَّة من سائر بقاع الأرض، واصطفىٰ من خلقه أحبَّ الخلق إليه الخليل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليبني الكعبة، وليأمر عباده باتِّخاذها قبلة، يستقبلونها في كلِّ صلاة متوجِّهين إلىٰ الله قانتين خاشعين.

وقد جعل الله الكعبة في مكان آمن، فحفظها الله ليقوم النَّاس بدين الله الذي اصطفاه لهم، قال تعالىٰ عن دعاء الخليل المجاب: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: ١٢٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا».

وجعل الله في قلوب عباده المؤمنين إجلالًا وهيبة لبيته الحرام، وفطرهم علىٰ الرَّغبة إلىٰ زيارته وعبادة الله فيه.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ليس أحد من أهل الإسلام إلَّا وهو يحنُّ إلىٰ رؤية الكعبة والطَّواف، فالنَّاس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ذكر جلالة البيت وفضله وشرفه، وأنَّه أمنٌ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٥٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣١٧).

(٣) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٩٣٤).

للنَّاس، ومثابةٌ لهم يثوبون إليه، ولا يقضون منه وَطَرًا، وفي هذا تنبيهٌ علىٰ أنَّه أحقُّ بالاستقبال من غيره.

ثمَّ أمرهم أن يتَّخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّىٰ.

ثم ذكر بناء إبراهيم وإسماعيل البيت، وتطهيره بعهده وإذنه، ورفعَهما قواعدَه، وسؤالهما ربَّهما القبول منهما، وأن يجعلهما مسلمَيْن له، ويريهما مناسكهما، ويبعث في ذرِّيتهما رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتابَ والحكمة.

ثمَّ أخبر عن جهل من رغب عن ملَّة إبراهيم وسفه ونقصان عقله.

ثمَّ أكَّد عليهم أن يكونوا علىٰ ملَّة إبراهيم، وأنَّهم إن خرجوا عنها إلىٰ يهودية أو نصرانية أو غيرها؛ كانوا ضُلَّالًا غير مهتدين.

وهذه كلُّها مقدِّماتٌ بين يدي الأمر باستقبال الكعبة لمن تأمَّلها وتدبَّرها وعلم ارتباطها بشأن القبلة، فإنَّه يعلمُ بذلك عظمة القرآن وجلالته، وتنبيهه علىٰ كمال دينه وحُسْنه وجلالته».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الكعبة فإنَّها بيتٌ من حجارة بوادٍ غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من عدوٍّ، ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبة ولا رهبة. ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة، فكلُّ من يأتيها يأتيها خاضعًا ذليلًا، متواضعًا في غاية التواضع، وجعل

(١) النبوَّات (١/ ٥١٠، ٥١١).

فيها من الرغبة أن يأتيها الناس من أقطار الأرض محبَّةً وشوقًا، من غير باعث دنيوي، وهي علىٰ هذه الحال من ألوف السنين، وهذا ممَّا لا يُعرف في العالم لبنيةٍ غيرها. والملوك يبنون القصور العظيمة فتبقىٰ مدَّة ثم تهدم، لا يرغب أحد في بنائها، ولا يرهبون من خرابها.

وكذلك ما بُني للعبادات قد تتغيَّر حاله علىٰ طول الزمان، وقد يستولي العدوُّ عليه، كما استولىٰ علىٰ بيت المقدس.

والكعبة لها خاصَّة ليست لغيرها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ المسجد الحرام هو المسجد الذي شُرع لنا قصده للصلاة والدعاء والطَّواف، وغير ذلك من العبادات، ولم يُشرع لنا قصد مسجد بعينه بمكَّة سواه، ولا يصلح أن يُجعل هناك مسجد يزاحمه في شيء من الأحكام.

وما يفعله الرجل في مسجد من تلك المساجد من دعاء وصلاة وغير ذلك، إذا فعله في المسجد الحرام كان خيرًا له، بل هذا سنَّةٌ مشروعة، وأما قصد مسجد غيره هناك تحرِّيًا لفضله، فبدعة غير مشروعة.

وأصل هذا: أنَّ المساجد التي تُشدُّ إليها الرحال هي المساجد الثلاثة، كما ثبت في الصحيحين عن النبيِّ ﷺ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا تُشدُّ الرحال إلَّا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام،**

---

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).

والمسجد الأقصىٰ، ومسجدي هذا»، وقد رُوي هذا من وجوه أخرىٰ، وهو حديث ثابت عن النبيِّ ﷺ باتفاق أهل العلم، فَتُلُقِّي بالقبول عنه.

فالسفر إلىٰ هذه المساجد الثلاثة للصلاة فيها والدعاء والذكر والقراءة والاعتكاف من الأعمال الصالحة.

وما سوىٰ هذه المساجد لا يُشرع السفر إليه باتِّفاق أهل العلم».

وذكر الله فضائل المسجد الحرام، وما تُقام فيه من العبادات حثًّا علىٰ توحيده وعبادته، وإقامة شعائر الحنيفيَّة فيه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «تأمَّل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت، وعظم شأنه بما يدعو النفوس إلىٰ قصده وحجِّه، وإن لم يُطلب ذلك منها، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، فوصفه بخمس صفات:

أحدها: أنَّه أسبق بيوت العالم وُضع في الأرض.

الثاني: أنَّه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثر خيرًا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنَّه هدًىٰ، وصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتىٰ كأنَّه هو نفس الهدىٰ.

الرابع: ما تضمَّنه من الآيات البيِّنات التي تزيد علىٰ أربعين آية.

الخامس: الأمن لداخله.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤١، ٤٢).

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس علىٰ حجِّه، وإن شطَّت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكَّد، وهذا يدلُّ علىٰ الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إيَّاه إلىٰ نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، لكفىٰ بهذه الإضافة فضلًا وشرفًا.

وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حبًّا له وشوقًا إلىٰ رؤيته، فهو المثابة للمحبِّين يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطرًا أبدًا، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبًّا وإليه اشتياقًا».

واستقبال المسلمين بيت المقدس قبل الأمر باستقبال الكعبة، هو في الحقيقة استقبال لوجه الله؛ فإنَّ العبد إذا قام يصلي فإنَّ الله قِبَل وجهه، رواه البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ويكون المصلِّي قد أتىٰ بالتَّوحيد حيث قصد بقلبه الله في طاعته حيثما أمر بالتوجُّه إليه، وهذا الذي ضلَّ عن فهمه أو جادل فيه اليهود بالباطل، وقد سمَّىٰ الله اعتراضهم علىٰ أمر الله سفهًا؛ لأنَّه اعتراض باطل وعن جهل وسوء قصد ومعاندة لأمر الله وحسد للمسلمين في استقبال الكعبة، قال تعالىٰ: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٢، ١٤٣].

وقد حذَّر الله المؤمنين من الإصغاء إلىٰ سفه اليهود، وتكفَّل بحفظ إيمانهم إذا لزموا خبره وانقادوا لأمره والتفتوا عن أهواء المغضوب عليهم والضَّالين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فوائد آيات هذه الحادثة**(١): «منها: تحذيرهم الإصغاء إلىٰ اليهود، وأن تستخفَّهم شُبَهُهم، فإنَّهم يودُّون أن يردُّوهم كفَّارًا من بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ.

ومنها: إخباره أنَّ دخول الجنَّة ليس بالتهوُّد ولا بالتنصُّر، وإنَّما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنيَّة لله، مع متابعة أمره.

ومنها: إخباره سبحانه عن سعته، وأنَّه حيث ولَّىٰ المصلِّي وجهه فثمَّ وجهه تعالىٰ، فإنه واسع عليم، فذكر الإحاطتين الذاتية والعلميَّة، فلا يتوهَّمون أنَّهم في القبلة الأولىٰ لم يكونوا مستقبلين وجهه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا في الثانية، بل حيثما توجَّهوا فثمَّ وجهُه تعالىٰ.

ومنها: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حذَّر نبيَّه ﷺ عن اتباع أهواء الكفَّار من أهل الكتاب وغيرهم، بل أمر أن يتَّبع هو وأمَّته ما أوحي إليه، فيستقبلونه بقلوبهم وحده.

ومنها: أنَّه ذكر عظمة بيته الحرام، وعظمة بانيه وملَّته، وسفَّه من يرغب عنها، وأمَر باتباعها، فنوَّه بالبيت وبانيه وملَّته، وكلُّ هذا توطئة بين يدي التحويل، مع ما في ضمنه من المقاصد الجليلة والمطالب السنيَّة.

ثمَّ ذكر فضل هذه الأمة، وأنَّهم الأمَّة الوسط العدل الخيار، فاقتضىٰ ذلك أن يكون نبيُّهم ﷺ أوسط الأنبياء وخيارهم، وكتابهم كذلك، ودينهم كذلك،

(١) إعلام الموقِّعين (٥/ ١٦، ١٧).

وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك، فظهرت المناسبة شرعًا وقدرًا في أحكامه تعالىٰ الأمرية والقدرية، وظهرت حكمته الباهرة، وتجلَّت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربِّها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».



السعي في مصالح الدين والدُّنيا

حنيفيَّة التَّوحيد وحي الله وشرعه ينتظم مصالح الدِّين والدُّنيا؛ لأنَّه من لدن حكيم عليم، أمر بالقسط والعدل واليسر والخير، ونهىٰ عن الشرِّ والظُّلم والجور، وحثَّ علىٰ عمارة الدُّنيا من وجوهها المباحة.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الجمع بين الدعاء لله بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء الله، وكذلك السعي في تحصيلهما الدين هو الأصل، والمقصود الذي خُلق له الخلق، والدنيا وسيلة ومعونة عليه، لدعاء الخليل لأهل البيت الحرام بالأمرين، وتعليله الدعاء بالأمور الدنيوية أنَّه وسيلة إلىٰ الشكر، فقال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]».

وقد كان الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يقومون علىٰ مصالح دنياهم مع تمسُّكهم بدينهم، ولم يقطعهم ذلك عن حقِّ الله وعبوديَّته، بل كان عونًا لهم دينهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قائمين بمصالحهم ومعايشهم وعمارة حروثهم، والقيام علىٰ مواشيهم، والضرب في الأرض

---

(١) تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص٢٠٨).

(٢) إعلام الموقِّعين (٣/ ١٣٥).

لمتاجرهم، والصفق بالأسواق، وهم أهدىٰ العلماء الذين لا يُشَقُّ في العلم غبارهم».

وحقيقة الإيمان بالله باتِّباع وحي الله وشرعه يحصل به مصالح الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عمَّا ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضرُّه في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في إحدىٰ الدارين، ويضرُّه في الأخرىٰ، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضرُّه فيها، وهو حقيقة الإيمان، ففعل ما ينفعه هو الشكر، وترك ما يضرُّه هو الصبر».

وقال ابن القيِّم أيضًا[2]: «إنَّ العبد فيه داعيان: داعٍ يدعوه إلىٰ الدنيا وشهواتها ولذَّاتها، وداعٍ يدعوه إلىٰ الله والدار الآخرة، وما أعدَّ فيها لأوليائه من النعيم المقيم، فعصيان داعي الشهوة والهوىٰ هو الصبر، وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر».

وكان النبيُّ ﷺ يدعو بصلاح دينه ودنياه، فقد روىٰ مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كلِّ خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شرٍّ**».

قال العلَّامة الوزير ابن هُبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «أمَّا قوله: «**أصلح لي ديني**»، فإنه بدأ بالأهمِّ، وهو الدين، ثم وصفه بأنَّه عصمة الأمر في الدنيا من الهلكة، وفي الآخرة من النار.

(١، ٢) عدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٢٠٨).

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح (٨/ ٨١، ٨٢).

ثم ذكر بعد ذلك الدنيا فقال: «وأصلح لي دنياي»، والدنيا صفة لموصوف محذوف، والمحذوف هو الحياة، فإذا قلت: الدنيا؛ فمعناه: الحياة الدنيا؛ فلمَّا أضافها ﷺ فقال: «**دنياي**» أضاف الصفة إليه ﷺ.

ثم ذكر العذر في سؤاله إصلاحها؛ بأن قال: «**التي فيها معاشي**»، يعني: التي أعيش فيها لأعبدك، ومن المعاش الكسب والسعي في الأرض لاستجلاب الرزق، وذلك قد يكون عبادةً لله عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ عقَّب ذلك بأن قال: «**وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي**» فرتَّب ﷺ الآخرة بعد الدنيا من حيث إنَّها بعدها زمانًا ووقتًا، ثمَّ ذكرها ﷺ ليكون ذكره لها إيمانًا بها وإقرارًا بالمعاد إليها، ثمَّ طلب ﷺ - ليكون ذكره بعد ذلك كله - أن يجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحياة زيادةً له في كلِّ خير؛ لأن الحياة إنَّما يقصد بها المؤمنون أن يزدادوا من الخير عند ربهم جَلَّجَلَالُهُ.

ثم قال: «واجعل الموت راحة لي من كل شر» فأراد ﷺ أن يجعل الموت راحة له من كلِّ شرٍّ، لا من عبادة الله سبحانه وخدمته؛ فإنَّ العبادة خير».

وإنَّما دعا النبيُّ ﷺ بصلاح دنياه لأنَّها حرث للآخرة.



الثِّقة بالله في حسن العاقبة بتحقيق التَّوحيد

دعا الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ النَّاس إلىٰ توحيد الله، وعبادته وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشِّرك، فضادَّه المشركون، وأخذوا يخوِّفونه بمن دون الله من الشُّركاء الذين لا يستطيعون نصر أنفسهم، فضلًا عن نصر من قصدهم بذلك، فثبت الخليل لدعوة التَّوحيد، وكان مطمئنًّا بأنَّ العاقبة للموحِّدين، وبذلك ردَّ علىٰ من خوَّفه بغير الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ هؤلاء المشركين الشرك الأكبر والأصغر يخوِّفون المخلصين بشفعائهم، فيقال لهم: نحن لا نخاف هؤلاء الشفعاء الذين لكم؛ فإنَّهم خلق من خلق الله، لا يضرُّون إلَّا بعد مشيئة الله، فمن

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٤٥٣).

مسَّه الله بضرٍّ فلا كاشف له إلَّا هو، ومن أصابه برحمة فلا رادَّ لفضله، وكيف نخاف هؤلاء المخلوقين الذين جعلتموهم شفعاء، وأنتم لا تخافون الله، وقد أحدثتم في دينه من الشرك ما لم ينزل به وحيًا من السماء؟!

فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن؟

من كان لا يخاف إلَّا الله، ولم يبتدع في دينه شركاء، أم من ابتدع في دينه شركًا بغير إذنه؟

بل من آمن ولم يخلط إيمانه بشرك فهؤلاء هم الذين لهم الأمن وهم مهتدون.

وهذه الحجَّة المستقيمة التي يرفع الله بها وبأمثالها أهل العلم».

ومن ثقة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالله طاعته لأمره، حيث ترك ابنه إسماعيل وأمَّه وحيدين بمكَّة بوادٍ غير ذي زرع، والتجأ إلىٰ الله بالدُّعاء لهما بإقامة الدِّين خصوصًا الصَّلاة والرِّزق، فجعل الله البركة في طاعة الله، وحفظ الله إسماعيل، وجعل منه أمَّة مباركةً مسلمةً لله.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: جاء إبراهيم بإسماعيل وأمِّه، ووضع أمَّ إسماعيل عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلىٰ المسجد، وليس بمكَّة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قَفَّىٰ إبراهيم مُنطلقًا، فتبعتْهُ أمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء. فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيِّعنا. ثمَّ رجعت، فانطلق إبراهيم حتىٰ إذا كان عند الثَّنيَّة حيث لا يرونه استقبل بوجهه

البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، حتىٰ بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧][1].

وقد دعا الخليل عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرزق لأهل الإيمان: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [البقرة: ١٢٦]، ودعا بالأمن لمكَّة: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «بالنَّصر والرِّزق قوام أمر الناس، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ٤]، وكما قال النبيُّ: «**وهل تُنصرون وترزقون إلا بضعفائكم: بدعائهم، وصلاتهم، واستغفارهم**»، وكما قال في صفة الأبدال[3]: «**بهم تُرزقون، وبهم تُنصرون**»، وكما ذكر الله هذين النوعين في سورة الملك، وبين أنَّهما بيده سبحانه وتعالىٰ في قوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [المُلك: ٢٠، ٢١]».

وكان حال الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترك ذريَّته يتوكَّلون علىٰ الله، ويأخذون بأسباب الرزق بخاصَّة أنفسهم كالخليل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع ابنه إسماعيل، فإنَّ بعض خلفاء بني العبَّاس سأل بعض العلماء أن يحدِّثه عمَّا أدرك، فقال: أدركت عمر بن عبد العزيز، فقيل له: يا أمير

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: يزفُّون: النَّسلانُ في المشي (ص٥٦١ - رقم ٣٣٦٤).

(٢) القواعد النُّورانيَّة الفقهيَّة (ص١٣٤، ١٣٥).

(٣) الحديث في «الأبدال» ضعيف، والأولىٰ استعمال لفظ «ورثة الأنبياء»؛ فإنَّه الذي ورد به النصُّ.

المؤمنين! أفغرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم. وكان في مرض موته، فقال: أدخلوهم عليَّ. فأدخلوهم، وهم بضعة عشر ذكرًا، ليس فيهم بالغ، فلمَّا رآهم ذرفَت عيناه، ثم قال: يا بنيَّ! والله ما منعتكم حقًّا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال النَّاس فأدفعها إليكم، وإنَّما أنتم أحد رجلين: إمَّا صالح، فالله يتولَّىٰ الصَّالحين، وإمَّا غير صالح فلا أُخلِّف له ما يستعين به علىٰ معصية الله، قوموا عنِّي.

قال: فلقد رأيت بعض ولده حَمَل علىٰ مائة فرس في سبيل الله؛ يعني: أعطاها لمن يغزو عليها[١].

❁ ❁ ❁

(١) «السِّياسة الشَّرعيَّة» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة، بشرح العلَّامة العثيمين (ص٢٩).



الصبر

من أعظم ما ذكر الله من خصال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ التي حاز بها الإمامة في الدِّين؛ صبرُه علىٰ ما حصل له من الابتلاء في سبيل الله بالدَّعوة إلىٰ التَّوحيد، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومن أعظم الأحوال التي ابتُلي بها إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وظهر بها صبره علىٰ أمر الله وقدره، الابتلاءُ بالنَّمروذ.

ومن أعظم مقامات الصَّبر التي ابتُلي بها الخليل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ هو الصبر علىٰ أمر الله بذبح ابنه إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو مقام ظهر به صبر الخليل وإسماعيل جميعًا - عليهما الصَّلاة والسَّلام -.

وكان مقصود هذا الابتلاء تحقيق الخلَّة للخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الله - تعالىٰ - لمَّا اتَّخذ إبراهيم خليلًا - والخُلَّة تتضمن أن يكون قلبه كلُّه معلَّقًا بربِّه، ليس فيه شُعْبة لغيره -، فلمَّا سأله الولد، وَهَبَهُ إسماعيل، فتعلَّق به شُعبة من قلبه، فأراد خليله - سبحانه - أن تكون تلك الشُّعبة له، ليست لغيره من الخلق، فامتحنه بذبح ولده، فلمَّا أقدم علىٰ الامتثال خَلَصَتْ له تلك الخُلَّةُ، وتَمَحَّضت لله وحده، فنسخ الأمر بالذبح، لحصول

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١١١٨).

المقصود؛ وهو العزم وتوطين النفس علىٰ الامتثال».

قال تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ذكر إسماعيل، وأنَّه كان صادق الوعد، وكأنَّه - والله أعلم - من ذلك أو أعظمه صَدَقَهُ فيما وَعَدَ به أباه من صبره عند الذَّبح، فوفَّىٰ بذلك».

ومن الابتلاءات العظيمة التي حصلت لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وزوجته سارَّة بعد هجرته من العراق إلىٰ الشام، أنَّه في أثناء إقامته بالشام ذهب إلىٰ مصر بزوجته سارَّة، وكانت سارَّة من أجمل النِّساء، فرآها ملك مصر وكان جبَّارًا ظالمًا فأرادها علىٰ نفسها، فدعت الله عليه، فكفاها الله شرَّه.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** لم يكذب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلَّا ثلاث كذبات: ثنتين منهنَّ في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ: قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقال: بَيْنَا هو ذات يوم وسارة، إذ أتىٰ علىٰ جَبَّار من الجبابرة، فقيل له: إنَّ هاهنا رجلًا معه امرأة من أحسن النَّاس. فأرسل إليه، فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتىٰ سارة، قال: يا سارة! ليس علىٰ وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإنَّ هذا سألني، فأخبرته أنَّك أختي، فلا

(١) النبوات (١/ ٢٠٧).

تُكذِّبيني. فأرسل إليها، فلمَّا دخلت عليه، ذهب يتناولها بيده، فأُخذ فقال: ادعي الله لي، ولا أضرُّكِ. فدعت الله فأُطْلِقَ، ثمَّ تناولها الثانية، فأُخذ مِثْلَهَا، أو أَشَدَّ، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرُّكِ. فدعت، فأُطْلِقَ. فدعا بعض حجبته فقال: إنَّكم لم تأتوني بإنسان، إنَّما أتيتموني بشيطان. فأخدمها هاجر، فأتته، وهو قائم يصلِّي، فأومأ بيده: مَهْيَم؟ قالت: رَدَّ الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره[(١)].

قال العلَّامة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القرشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٨٢٧هـ)**[(٢)]:

«حكىٰ السهيلي في اسمه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ملكُ الأُرْدُن، وهو صادوق.

وقيل: إنَّه الملك سنانُ بنُ علوان، وكان - في أحد الأقوال - أخا الضحاك الذي ملك الأقاليم.

وقيل: هو عمرُو بن امرئ القيس بن سبأ بن يشجب بن يَعْرُب، وكان علىٰ مصر إذ ذاك».

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فوائد الحديث**[(٣)]: «قبول صِلة المَلكِ الظالم، وقبول هديَّة المشرك، وإجابة الدُّعاء بإخلاص النيَّة، وكفاية الرَّبِّ لمن أخلص في الدُّعاء بعمله الصَّالح، وسيأتي نظيره في قصَّة أصحاب الغار.

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (ص ٥٦٠ - رقم ٣٣٥٨).

(٢) مصابيح الجامع (٧/ ١١٩).

(٣) فتح الباري (٦/ ٤٧٦).

وفيه ابتلاء الصَّالحين لرفع درجاتهم».

فالخليل عليه السلام صبر علىٰ توحيد الله والدَّعوة إليه، وصبر علىٰ عبادة الله والنَّهي عن الشِّرك؛ فأخلصه الله للخلَّة، واجتباه لإقامة الملَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «جعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ [السجدة: ٢٤] فإنَّ الدين كلَّه علم بالحقِّ وعمل به، والعمل به لا بُدَّ فيه من اليقين والصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلىٰ الصبر».

والمسلم يبتليه الله في الدُّنيا بالسرَّاء والضرَّاء ليُكمِّل عبوديَّته لله وحده لا شريك له، فيكون شاكرًا في السرَّاء، صابرًا في الضرَّاء، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ما يصيب الإنسان إن كان يسرُّه فهو نعمة بيِّنة، وإن كان يسوءه فهو نعمة من جهة أنَّه يكفِّر خطاياه ويثاب بالصبر عليه، ومن جهة أنَّ فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقد قال ﷺ في الحديث: «**والله لا يقضي للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له**»، وإذا كان هذا وهذا؛ فكلاهما من نعمة الله عليه، وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلىٰ الصبر.

---

(١) التّحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٥٤).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٢٢، ١٠٢٣).

أمَّا نعمة الضراء فاحتياجها إلىٰ الصبر ظاهر، وأمَّا نعمة السرَّاء فتحتاج إلىٰ الصبر علىٰ الطاعة فيها؛ فإنَّ فتنة السرَّاء أعظم من فتنة الضرَّاء، كما قال بعض السلف ابتلينا بالضرَّاء فصبرنا، وابتلينا بالسرَّاء فلم نصبر».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «صبر الخليل، والكليم، وصبر نوح، وصبر المسيح، وصبر خاتم الأنبياء، وسيِّد ولد آدم – صلىٰ الله عليهم أجمعين –، كان صبرًا علىٰ الدعوة إلىٰ الله ومجاهدة أعداء الله؛ ولهذا سمَّاهم الله تعالىٰ: «أولي العزم»، وأمر رسوله ﷺ أن يصبر صبرهم؛ فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأولو العزم هم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]، كذلك قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرُه من السَّلف».

والابتلاء الذي حصل لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يقع نظيره لأحد من الأنبياء، وهو أفضلهم بعد خاتم النبيِّين محمد ﷺ، وإنَّما كان ابتلاؤه شديدًا بحسب إيمانه، ولحكمة الله في استخراج عبوديَّة الخليل بالصَّبر، وليرفعه الله بذلك مكانًا عليًّا في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) عُدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٥٩، ٦٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سببًا لعلوِّ الدرجة وعظيم الأجر، كما سئل النبي ﷺ أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثمَّ الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقَّة خُفِّف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتىٰ يمشي علىٰ وجه الأرض وليس عليه خطيئة**»، وحينئذ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره، وذلك هو سبب الإمامة في الدين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، فلابُدَّ من الصبر علىٰ فعل الحسن المأمور به، وترك السَّيِّئ المحظور، ويدخل في ذلك الصبر علىٰ الأذىٰ، والصَّبر علىٰ ما يقال، والصبر علىٰ ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البطر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر.

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئنُّ به، ويتنعَّمُ به، ويغتذِي به؛ وهو اليقين، كما في الحديث الذي رواه أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**يا أيها الناس، سلوا الله اليقين والعافية، فإنَّه لم يعطَ أحد بعد اليقين خيرًا من العافية، فسلوهما الله**»».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلِّها: فقرنه بالصلاة؛ كقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]،

---

(١) الفتاوىٰ العراقيَّة (١/ ٢٨٢).

(٢) عُدَّة الصَّابرين (ص١٣٥، ١٣٦).

وقرنه بالأعمال الصالحة عمومًا كقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، وجعله قرين التقوى كقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]، وجعله قرين الشكر؛ كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١]، وجعله قرين الحقِّ كقوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣] وجعله قرين الرحمة كقوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وجعله سبب محبَّته ومعيَّته وعونه ونصره وحسن جزائه، ويكفيه بعض ذلك شرفًا وفضلًا».

والصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره هو حقيقة الجهاد الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ به عباده المؤمنين، قال النبيُّ ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ**».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قالوا: وإنَّ المناهي لها أربعة دواعٍ تدعو إليها: نفس الإنسان، وشيطانه، وهواه، ودنياه، فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة حقَّ الجهاد، وذلك أشقُّ شيء على النفوس وأمَرُّه».

ومَن أَنِسَ بعبوديَّة الله، وأدرك ثمراتها من تزكية النَّفس وصلاحها، وقرَّت عينه بطاعة مولاه، ووجد برد العيش في هذه العبوديَّة، وأيقن أنَّها تُقرِّبه إلى الله زلفى؛ لم يجد مشقَّةً في الصَّبر على عبوديَّته لمن هداه لكلِّ هذه الخيرات.

---

(١) عُدَّة الصابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٦٥).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ نفس الإيمان بالله وعبادته، ومحبَّته، وإخلاص العمل له، وإفراده بالتوكُّل عليه هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقِوامه، كما عليه أهل الإيمان، وكما دلَّ عليه القرآن، لا كما يقوله من يقول: إنَّ عبادته تكليف ومشقَّة علىٰ خلاف مقصود القلب ولذَّته، بل لمجرَّد الامتحان والابتلاء، كما يقوله منكرو الحكمة والتعليل، أو لأجل التعويض بالأجر لما في إيصاله إليه بدون معاوضة منَّة تكدره، أو لأجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات، كما يقوله من يتقرَّب إلىٰ النبوَّات من الفلاسفة.

بل الأمر أعظم من ذلك كلِّه وأجلُّ، بل أوامر المحبوب قرَّةُ العيون، وسرورُ القلوب، ونعيم الأرواح، ولذَّات النفوس، وبها كمال النعيم.

فقرَّةُ عين المحبِّ في الصلاة والحج، وفرَحُ قلبه وسروره ونعيمه في ذلك، وفي الصيام والذكر والتلاوة، وأمَّا الصدقة فعجب من العجب. وأمَّا الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدَّعوة إلىٰ الله، والصبر علىٰ أعداء الله، فاللذَّة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف، ولا يدركه من ليس له نصيب منه، وكلُّ من كان به أقوَم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم».

الصبر مطيَّة المسلم في دنياه، فالإيمان بالله وعبوديَّته وإقامة ذلك يحتاج إلىٰ صبر، ويحتاج المسلم إلىٰ دوام العمل بذلك والصَّبر علىٰ ذلك، حتىٰ يوافي ربَّه، وأحوال الدُّنيا ومتغيِّراتها تحتاج إلىٰ صبر، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، والسرَّاء كالضرَّاء - أو أشدُّ - تحتاج إلىٰ صبر، ومعاملة

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٢٢).

الخلق تحتاج إلىٰ صبر، فالنَّاس فيهم الطيِّب والعاقل والنَّاصح والخبيث والرديُّ والسفيه، فلابدَّ من الصَّبر علىٰ معاملة النَّاس، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لمَّا كان الصبر ممَّا مدحه الله تعالىٰ، وذكره في مائة موضع وأربعة مواضع من كتابه، ولم يُذكر شيء من القرآن بهذه العدَّة؛ كان كلُّ صابر علىٰ ما يكره أو عمَّا يحبُّ في إيمان بالله أنَّه سيؤول صبره علىٰ حصول لما صبر عنه، أو راحة ممَّا صبر عليه، أو تعويض منه في الدنيا والآخرة؛ دليلًا علىٰ الإيمان بمن صبر له وفيه ولأجله، وهذا الصبر قد يجلُّ ويدقُّ، فيكون منه صبرك علىٰ أخيك حتىٰ يقضي كلامه، ويكون منه صبرك علىٰ المتنازعَيْن حتىٰ يصطلحا، وصبرك علىٰ المتعلِّم السيئ الفهم حتىٰ يفقه، وصبرك علىٰ تجرُّم الطفل وتعنُّته، وصبرك علىٰ المراء وأنت محقٌّ، فأمَّا صبرك عليه وأنت مبطل؛ فتلك فريضة، وكان ذلك من خصال الإيمان».

❁ ❁ ❁

---

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٦/ ٣٩٦).



العبوديَّة لله

قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «هذا التوجُّه يتضمَّن محبَّته دون غيره، وعبادته وطاعته دون غيره، فهذه هي الحقيقة حقًّا، وما سواها باطل حقيقة، قال تعالىٰ لأكرم خلقه عليه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، فأمره تعالىٰ أن يقتدي بأبيه إبراهيم في هذه الحقيقة، وكان ﷺ يعلِّم أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «**أصبحنا علىٰ فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبيِّنا محمَّد، وملَّة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»، فنسأل الله العظيم أن يهب لنا هذه الحقيقة، ويثبِّتنا عليها، ويعيذنا ممَّا سواها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «حبُّ الله تعالىٰ هو الكمال المطلوب من معرفته، وهو من تمام عبادته، فإنَّ العبادة متضمِّنة لكمال الحبِّ مع كمال الذلِّ، وهذا حقيقة دين إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، إمام الحنفاء، الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]،

---

(١) طريق الهجرتين (ص٣٤٩).

(٢) الصفدية (٢/ ٢٣٤).

والأمَّة: هو الذي يُؤْتَمُّ به، كما أنَّ القدوة هو الذي يقتدىٰ به، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وإبراهيم الخليل هو الذي عادىٰ هؤلاء كالنمرود وغيره.

فنفس عبادة الله وحده ومحبَّته وتعظيمه هو من أعظم كمال النفس وسعادتها، لا أنَّ سعادتها في مجرد العلم الخالي عن حبٍّ وعبادة وتألُّه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الله تعالىٰ أرسل الرسل ليدعوا الخلق إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وأخبر عن كلِّ نبيٍّ أنَّه دعا قومه إلىٰ ذلك، فقال عن نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال عن هود: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وكذلك سائرهم، وأمثال ذلك.

فكمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له، وهذه ملَّة إبراهيم التي قال الله فيها: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [البقرة: ١٣٠] وقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا

---

(١) الصفدية (٢/ ٢٤١، ٢٤٢).

خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

وهذا هو الإسلام العامُّ الذي بعث الله به جميع الرسل – عليهم الصلاة والسلام –، وهو الذي لا يقبل من أحد دينًا غيره، لا من المتقدِّمين ولا من المتأخِّرين».

والعبوديَّة لله وحده لا شريك له تكون بالتوجُّه إليه بالقلب والجوارح، بأداء ما شرعه من أنواع العبادات والطَّاعات بعلم صفة تلك العبادات، وأدائها علىٰ نحو ما أمرنا الله بفعله، تلقيًا صفة أدائها عن رسول الله ﷺ، من غير إدلاء بالغرور والعجب بالطَّاعة، فيكون المؤمن خاضعًا لله وإن كان مقيمًا للطاعات.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «للأمن من مكر الله أيضًا سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدِّين، وغفلته عن معرفة ربِّه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك، فلا يزال معرضًا غافلًا مقصِّرًا عن الواجبات، منهمكًا في المحرَّمات، حتىٰ يضمحل خوف الله من قلبه، ولا يبقىٰ في قلبه من الإيمان شيء؛ لأنَّ الإيمان يحمل علىٰ خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأُخروي.

السبب الثاني: أنْ يكون العبد عابدًا جاهلًا معجبًا بنفسه مغرورًا بعمله، فلا يزال به جهله حتىٰ يُدِلَّ بعمله ويزول الخوف عنه، ويرىٰ أنَّ له عند الله المقامات العالية، فيصير آمنًا من مكر الله، متَّكلًا علىٰ نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يُخْذَلُ ويُحَالُ بينه وبين التوفيق؛ إذْ هو الذي جنىٰ علىٰ نفسه».

(١) القول السَّديد شرح كتاب التَّوحيد (ص١٠٧).

السعي إلى مرضاة الله

السَّعي إلىٰ مرضاة الله هو من حنيفيَّة التَّوحيد، وأقوم الخلق بها رسل الله - صلىٰ الله عليهم وسلم -، خصوصًا الخليلين إبراهيم ومحمَّد - عليهما الصلاة والسلام -.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّه لا شيء أطيب للعبد، ولا ألذ ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبَّة فاطره وباريه، ودوام ذكره، والسعي في مرضاته، وهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه، وله خُلق الخلق، ولأجله نزل الوحي، وأرسلت الرسل، وقامت السموات والأرض، ووُجدت الجنَّة والنار، ولأجله شُرعت الشرائع، ووُضع البيت الحرام، ووجب حجَّه علىٰ الناس؛ إقامةً لذكره الذي هو من توابع محبَّته والرضا به وعنه، ولأجل هذا أُمر بالجهاد وضرب أعناق من أباه وآثر غيره عليه، وجعل له في الآخرة دار الهوان خالدًا مخلدًا.

وعلىٰ هذا الأمر العظيم أُسست الملَّة ونُصبت القبلة، وهو قطب رحىٰ الخلق والأمر الذي مدارهما عليه، ولا سبيل إلىٰ الدخول إلىٰ ذلك إلَّا من باب العلم، فإن محبَّة الشيء فرع عن الشعور به، وأعرف الخلق بالله أشدُّهم حبًّا له.

فكلُّ من عرف الله أحبَّه، ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم، فالعلم يفتح هذا الباب العظيم الذي هو سرُّ الخلق والأمر».

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٨٦، ٨٧).

ومراضي الله هي التَّوحيد وحقائقه من أعمال البِرِّ وخصال التَّقوىٰ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد جمع الله تعالىٰ خصال البِرِّ في قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

فأخبر سبحانه أن البِرَّ هو الإيمان به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قِوام للإيمان إلَّا بها.

وأنَّه الشرائع الظاهرة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة.

وأنَّه الأعمال القلبية التي هي حقائقه من الصبر والوفاء بالعهد.

فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين؛ حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلِّقة بالجوارح والقلب وأصول الإيمان الخمس.

ثم أخبر سبحانه أنَّ هذه خصال التقوىٰ بعينها، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]».

فرسوخ شجرة التَّوحيد في قلوب الموحِّدين هو الذي جعل الموحِّدين يسارعون إلىٰ مراضي الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) الرِّسالة التَّبوكيَّة (ص٧، ٨).

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا تزال هذه الشجرة تُثْمر الأعمال الصالحة كلَّ وقتٍ بحسب ثباتها في القلب، ومحبَّة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقِّها، ومراعاتها حقَّ رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغةً منها، فيعرف حقيقة الهيئة التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدِّقها جوارحه، ونفىٰ تلك الحقيقة ولوازمها عن كلِّ ما سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية، طائعةً سالكةً سُبُلَ ربِّه ذُللًا، غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها، كما لا يبتغي القلب سوىٰ معبوده الحقِّ بدلًا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب علىٰ هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلىٰ الله كلَّ وقت، فهذه الكلمة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلىٰ الربِّ تعالىٰ، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كثيرًا طيبًا كلَّما يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيِّب كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]، فأخبر سبحانه أنَّ العمل الصالح يرفع الكلم الطيِّب، وأخبر أنَّ

(١) الأمثال في القرآن الكريم (ص٣٥٧، ٣٥٨).

الكلمة الطيبة تثمر لقائلها كلَّ وقت عملًا صالحًا كلَّ وقت».

ومراضي الله هي اتِّباع صراطه المستقيم:

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الصِّراط المستقيم طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وهو دين الإسلام التامُّ، وهو اتِّباع القرآن، وهو لزوم السنَّة والجماعة، وهو طريق العبوديَّة».

وقال أيضًا شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّما المطلوب منَّا الاستسلام لله، وإخلاص الدِّين له، وطاعة أمره ونهيه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]. فإنَّ الدِّين: الإيمان والبر والتقوىٰ وطاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، والإحسان والعمل الصالح، ونحو ذلك هو المطلوب منَّا، والمراد بنا في دين الله تعالىٰ وكتابه».

ومرضاة الله هي حقيقة الدِّين كلِّه، وهي شهادة أنَّ لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وهو صراط الله المستقيم ممَّا ارتضاه لخلقه من الاعتقادات والأقوال والأفعال.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الرَّابعة (ص٤٨).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السَّادسة (ص١٠).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٤٥٢، ٤٥٣).

رسول الله، فأي شيء فُسِّر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين، ونكتة ذلك وعَقْدُه: أن تحبَّه بقلبك كلِّه وتُرْضيه بجهدك كلِّه، فلا يكون في قلبك موضع إلَّا معمورًا بحبِّه، ولا تكون لك إرادة إلَّا متعلِّقة بمرضاته.

فالأول يحصل بالتحقُّق بشهادة أن لا إله إلا الله.

والثاني يحصل بالتحقُّق بشهادة أنَّ محمدًا رسول الله، وهذا هو الهدىٰ ودين الحقِّ وهو معرفة الحقِّ والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به

فقل ما شئتَ من العبارات التي هذا أحسنها وقُطْب رَحَاها، وهي معنىٰ قول من قال: «علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مِشْكاة النبوَّة»، ومعنىٰ قول من قال: «متابعة رسول الله ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملًا»، ومعنىٰ قول من قال: «الإقرار لله بالوحدانيَّة، والاستقامة علىٰ أمره»».





الصديقيَّة

الصدق هو أساس الدِّين الذي يُبنىٰ عليه؛ ولذلك فإنَّ الصِّدق هو وصف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وملَّته التي بُعث بها ملَّة صدق، وهكذا كلُّ النبيِّين وخاتمهم محمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال الله تعالىٰ في شأن إبراهيم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «جمع الله له بين الصدِّيقيَّة والنبوَّة.

فالصدِّيق: كثير الصِّدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدِّق بكلِّ ما أُمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلىٰ القلب، المؤثِّر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أفضل الأنبياء كلِّهم بعد محمَّد ﷺ».

وخليل الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الصدِّيق، هكذا امتدحه الله ونعته بهذه الصِّفة؛ بيانًا لحقيقة ملَّته التي بُنيت علىٰ هذه الصِّفة، وحثًّا للمسلمين علىٰ الأخذ بها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٥١٩).

قال العلَّامة عبد الرزَّاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ كثير الصدق والتصديق بالأنبياء وبما جاؤوا به من عند الله، وكان مع ذلك في نفسه نبيًّا».

وقال العلَّامة أبو المظفَّر السَّمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الصديق هو: الكثير الصِّدق، القائم عليه، ويقال: من صدَّق الله في وحدانيَّته، وصدَّق أنبياءه ورسله، وصدَّق بالبعث، وقام بالأوامر فعمل بها، فهو صدِّيق.

وقوله ﴿نَّبِيًّا﴾ النبيُّ هو: العالي في الرُّتبة بإرسال الله إيَّاه، وإقامة الدَّليل علىٰ صدقه».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الصِّدِّيق: فهو الذي كمَّل مقام الصدِّيقيَّة لكمال بصيرته، حتىٰ كأنَّه قد باشر بصره ممَّا أخبر به الرَّسول ﷺ ما باشر قلبه، فلم يبقَ بينه وبين إدراك البصر إلَّا حجاب الغيب، فهو كأنَّه ينظر إلىٰ ما أخبر به من الغيب من وراء ستوره، وهذا لكمال البصيرة، وهذا أفضل مواهب العبد، وأعظم كراماته التي يُكْرَم بها، وليس بعد درجة النبوَّة إلَّا هي؛ ولهذا جعلها سبحانه بعدها، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وهذا هو السِّرُّ الذي سبق به الصديق، لا بكثرة صوم ولا بكثرة صلاة، وصاحب هذا هو الذي يمشي رويدًا ويجيء في الأوَّل».

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٤٢٤).

(٢) تفسير القرآن (٣/ ٢٩٤).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٢٧، ١٢٨).

والصدق هو الأساس لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومعاملته سبحانه ومعاملة الخلق، وهو الذي ينشأ بسببه وعنه العلم والاعتقادات والإرادات الصَّحيحة، والأقوال والأعمال والأحوال المرضية.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «منزلة الصدق؛ وهي منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميَّز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضع علىٰ شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلَّا أرداه وصرعه، من صال به لم تردَّ صولته، ومن نطق به علت علىٰ الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحكُّ الأحوال، والحامل علىٰ اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلىٰ حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة «النبوَّة»، التي هي أرفع درجات العالمين».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الصِّديقيَّة شجرةٌ أصلها العلوم الصحيحة، والعقائد السلفية المأخوذة من كتاب الله - عَزَّوَجَلَّ - وسنَّة رسوله - ﷺ -، وقوامها وروحها الإخلاص الكامل لله والإنابة إليه، والرجوع إليه في جميع الأحوال، رغبةً ورهبةً ومحبَّةً وتعظيمًا وخضوعًا وذلًّا لله.

وثمراتها: الأخلاق الحميدة، والأقوال السَّديدة، والأعمال الصَّالحة،

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٢٢٠).

(٢) تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص٣٥٦).

والإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلىٰ المخلوقين بجميع وجوه الإحسان، وجهاد جميع أصناف المنحرفين؛ فهي في الحقيقة القيام بالدين ظاهرًا وباطنًا وحالًا ودعوةً إلىٰ الله، والله هو الموفِّق، وهو المُعِين لكلِّ من استعان به صدقًا».

والصدق في معاملة الخالق: هو ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ورسوله ﷺ من الأمور الباطنة والظَّاهرة، كإخلاص الدِّين لله، والتوكُّل علىٰ الله، وأن يكون الله ورسوله أحبَّ للصدِّيق ممَّا سواهما، والرجاء لرحمة الله، والخشية من عذابه، والصبر لحكم الله، والتسليم لأمر الله(١).

والصدق في معاملة الخلق: هو صدق الحديث معهم، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانات إلىٰ أهلها، وبرُّ الوالدين، وصلة الأرحام، والتعاون علىٰ البِرِّ والتَّقوىٰ، والإحسان إلىٰ الجار واليتيم والمسكين وابن السَّبيل والصاحب بالجنب والزَّوجة والمملوك، والعدل في المقال والفعال، ثم النَّدب إلىٰ مكارم الأخلاق، مثل: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمَّن ظلمك.

ومن الأمر بالمعروف كذلك: الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنَّهي عن الاختلاف والفرقة(٢).

الصدِّيقيَّة كمال الانقياد لله بالإخلاص له وتصديقه فيما أخبر، والانقياد له في أمره ونهيه، وكمال المتابعة للرَّسول ﷺ.

فصدق الاعتقاد والقول والعمل هو حقيقة الصدِّيقيَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩].

(١، ٢) «الاستقامة» لشيخ الإسلام (ص٤٥٢).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الصدق في الأقوال: استواء اللسان علىٰ الأقوال، كاستواء السنبلة علىٰ ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال علىٰ الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس علىٰ الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح علىٰ الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة، فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه، وقيامها به؛ تكون صدِّيقيَّته.

ولذلك كان لأبي بكر الصدِّيق - رضي الله عنه وأرضاه -: ذروة سنام الصدِّيقيَّة، سُمِّي «الصِّدِّيق» علىٰ الإطلاق، و«الصدِّيق» أبلغ من الصَّدوق، والصَّدوق أبلغ من الصَّادق.

فأعلىٰ مراتب الصدق: مرتبة الصدِّيقية؛ وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للمرسِل».

والصديقون هم الذين آمنوا بالقرآن وعملوا به، والنَّاس طبقات في صدِّيقيَّتهم في ذلك بحسب أخذهم بهذا، فمنهم الظَّالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السَّابق بالخيرات، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٢٢١).

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصِّدْق: القرآن، وصدَّق به: المؤمن، يجيء يوم القيامة يقول: هذا الذي أعطيتني عملت بما فيه»، رواه البخاريُّ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا القول عن مجاهد يشمل كلَّ المؤمنين، فإنَّ المؤمنين يقولون الحقَّ ويعملون به، والرسول ﷺ أولىٰ الناس بالدخول في هذه الآية علىٰ هذا التفسير، فإنَّه جاء بالصدق، وصدَّق المرسلين، وآمن بما أُنزل إليه من ربِّه، والمؤمنون، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله».

وصدِّيقيَّة الملَّة الحنيفيَّة قام بها ورثة الأنبياء – عليهم الصَّلاة والسَّلام –.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ من تعلَّم العلم الذي بعث الله به رسله – عليهم الصَّلاة والسَّلام – وعلَّمه لوجه الله؛ كان صدِّيقًا».

ويدرك المعلِّمون من بركة تعليم الوحي بمقدار ما أدَّوه إلىٰ الأمَّة من العلم، وتعليم العلم هو أعظم أسباب البركة التي نالها النبيُّون – عليهم الصَّلاة والسَّلام –، وورثتهم من العلماء.

قال عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «معلِّمًا للخير».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «هذا يدلُّ علىٰ أنَّ تعليم الرجل الخيرَ هو البركة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص١١٨٥).

(٢) الاستقامة (ص٥٠٥).

(٣) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٤٤٩) ط – دار عالم الفوائد.

(٤) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥٠٠).

التي جعلها الله فيه، فإنَّ البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلَّا في العلم الموروث عن الأنبياء؛ ولهذا يسمِّي سبحانه كتابَه: مباركًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبيِّنًا منزلة العلماء الصدِّيقين**[1]: «إن أفضل الدرجات النبوَّة، وبعدها الصدِّيقيَّة، وبعدها الشَّهادة، وبعدها الصَّلاح، وهذه الدَّرجات الأربع التي ذكرها الله تعالىٰ في كتابه في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فمن طلب العلم ليحيي به الإسلام فهو من الصدِّيقين، ودرجته بعد درجة النبوَّة».

وصدِّيق الأمَّة بعد نبيِّها أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد سأل النبيَّ ﷺ أن يُعلِّمه دعاءً يدعو به في صلاته، فقال له النبيُّ ﷺ: «**قل: اللهمَّ إنِّي ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «نحن نعلم أنَّ التوكُّل علىٰ الله فرض، والإخلاص له فرض، ومحبَّة الله - عَزَّ وَجَلَّ - ورسوله ﷺ فرض، والصبر علىٰ فعل ما أمر الله، وعمَّا نهىٰ الله عنه، وعلىٰ المصائب التي تُصِيبُه؛

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٢١)، ط - دار الكتب العلميَّة.

(٢) جامع المسائل، المجموعة الرابعة (ص٦٢).

فرض، وخشية الله وحدَه دون خشيةِ الناس فرضٌ، والرَّجاء لله وحدَه فرض، وأمثال ذلك من الأعمال الباطنة والظاهرة، والتي يَحصُل التقصيرُ في كثيرٍ منها لعامَّةِ الخلقِ.

وأيُّ نوع من هذه الأنواع إذا تدبَّر بعضُ الصدِّيقين فيه حالَهُ؛ يَجدُه قد ظلم نفسَه فيه ظلمًا كثيرًا، دَعْ ما سوىٰ ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وكالقيام بحقوق الأهل والجيران والمؤمنين، وإكمال كلِّ واجبٍ كما أمر به، وأمثال ذلك ممَّا لا يُحصَىٰ».

والصدِّيق صدق عزائمه نهضت به إلىٰ استباق الخيرات، والمسارعة إليها، وطَّن نفسه علىٰ تحقيق التَّوحيد وإقامة أركانه ولوازمه، وظائف عمله من حين يصبح إلىٰ أن يمسي في مراضي الله، والنصح لله عَزَّوَجَلَّ وكتابه، والنصح لرسوله ﷺ وسنَّته، والنصح لنفسه ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم.

نهض إلىٰ كلِّ خير، وضرب من كلِّ نوع من أنواع البِرِّ بسهم، عقد عزمه ونيَّته علىٰ احتساب المباحات فضلًا عن العبادات.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢١].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الصادق مطلوبه رضا ربِّه، وتنفيذ أوامره، وتتبع محابِّه؛ فهو متقلِّب فيها، يسير معها أين توجَّهت ركائبها، ويستقل معها أين استقلَّت مضاربها، فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر، ثمَّ في غزو، ثم في حجٍّ، ثمَّ في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع، ثمَّ في أمر بمعروف أو نهي

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٥).

عن منكر، أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا، ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة، أو نصر مظلوم - إن أمكن -، إلىٰ غير ذلك من أنواع القرب والمنافع».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ظلم النفس لا ينافي الصدِّيقية والولاية، ولا يُخرِج العبد عن كونه من المتَّقين، بل يجتمع فيه الأمران: يكون وليًّا لله، صديقًا متقيًا، وهو مسيء ظالم لنفسه، عُلم أنَّ ظلمه لنفسه لا يُخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه؛ إذ هو مصطفًىٰ من جهة كونه من ورثة الكتاب علمًا وعملًا، ظالم لنفسه من جهة تفريطه في بعض ما أُمر به وتعدِّيه بعضَ ما نهي عنه.

كما يكون الرجل وليًّا لله محبوبًا له من جهة، ومبغوضًا له من جهة أخرىٰ.

وهذا عبد الله حمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يُكثر شربَ الخمر، والله يبغضه من هذه الجهة، ويحبُّ الله ورسوله، والله يحبُّه ويواليه من هذه الجهة، ولهذا نهىٰ النبيُّ ﷺ عن لعنته، وقال: «**إنَّه يحبُّ الله ورسوله**».

ونكتة المسألة أنَّ الاصطفاء والولاية والصديقيَّة، وكون الرجل من الأبرار ومن المتَّقين ونحو ذلك؛ كلُّها مراتب تقبل التجزِّي والانقسام والكمال والنقصان، كما هو ثابت باتفاق السلف في أصل الإيمان.

وعلىٰ هذا فيكون هذا القسم مصطفًىٰ من وجه، ظالمًا لنفسه من وجه آخر.

وظلم النفس نوعان: نوع لا يبقىٰ معه شيء من الإيمان والولاية والاصطفاء، وهو ظلمها بالشرك والكفر، ونوع يبقىٰ معه حظُّه من الإيمان والاصطفاء

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٤٣٣، ٤٣٤).

والولاية؛ وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف».

ومن أعظم فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ صدقهم، فهم ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ومن أحسن ما استنبطه العلماء من الأحكام من تزكية الله للصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، والثَّناء عليهم بالصِّدق؛ صحَّة أحكامهم، من تلك الاستنباطات التي نبَّه عليها السَّلف: ما قاله أبو بكر ابن عيَّاش رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): « أبو بكر الصدِّيق خليفة رسول الله ﷺ في نصِّ القرآن؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

قال: فمن سمَّاه الله صادقًا فليس يكذب، هم قالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ».

والصدق مفتاح الخير الذي يسلك بالصدِّيق إلىٰ أبواب البِرِّ والتقوىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الحسنات والسيِّئات قد تتلازم، ويدعو بعضها إلىٰ بعض، كما في الصَّحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق؛ فإنَّ الصِّدْق يهدي إلىٰ البِرِّ، والبِرَّ يهدي إلىٰ الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرَّىٰ الصدق حتىٰ يُكتب عند الله صديقًا، وإيَّاكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، والفجور يهدي إلىٰ النار، ولا يزال العبد يكذب ويتحرَّىٰ الكذب حتىٰ يُكتب عند الله كذابًا**».

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (٨/ ٥٠٠، ٥٠١).

(٢) الاستقامة (ص٣٢٩).

فالصدق مفتاح كلِّ خيرٍ، كما أن الكذب مفتاح كلِّ شرٍّ».

فالمؤمنون صِدْقُ إسلامهم، وصدقُ توحيدهم الله إنابةً وعبوديَّةً؛ هو الذي يورثهم الجنَّة لملازمتهم ذلك حياتهم كلَّها، ووافتهم المنيَّة وقد نطقت ألسنتهم بحقائق الصدق الذي كان في قلوبهم من توحيد الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لهذا فرَّق الله سبحانه بين أهل السعادة وأهل الشقاوة بذلك؛ فقال: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٢-٣٥]».

علىٰ كل حال: المسلمون جميعًا مأمورون بتحقيق الصديقيَّة علمًا واعتقادًا وإرادة وقولًا وعملًا، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا، خليَّةً من الكسل والفتور، سالمةً من المقاصد السيِّئة، مشتملة علىٰ الإخلاص والنيَّة الصالحة، فإنَّ الصدق يهدي إلىٰ البرِّ،

---

(١) الاستقامة (ص٣٢٩، ٣٣٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٩٦).

وإنَّ البِرَّ يهدي إلىٰ الجنَّة، قال الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩]».

فمن تحقق بالصديقيَّة كانت منزلته في أعلىٰ الجنان، تلو الأنبياء وفوق الشهداء، فلتحقيق الصديقيَّة فليعمل العاملون، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وإنَّما أدرك الصدِّيقون هذا الفضل بسبب دلالتهم للناس إلىٰ طرق الخيرات، وحفظهم لدين الله عن التحريف، وحفظهم الدين بتعليمه وإقامة شرائعه.

قال العلَّامة ابن بطَّال المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من أوتي منازل الصدِّيقين، وحمل الناس علىٰ شرائع الله وسنن نبيِّه، وقادهم إلىٰ الخيرات، وسبَّب لهم أسباب المنفعة في الدِّين والدُّنيا».

والصدق يقتضي التألُّه لله بعبوديَّته حبًّا ورغبةً ورهبةً، وتصديقًا بكلماته وعملًا بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لابُدَّ في الإيمان الذي في القلب من تصديق بالله - عَزَّوَجَلَّ - ورسوله ﷺ حب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وإلَّا فمجرَّد التصديق مع البغض لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله ﷺ، ومعاداة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ ليس إيمانًا باتفاق المسلمين، وليس مجرَّد التصديق والعلم يستلزم الحبَّ، إلَّا

(١) شرح صحيح البخاري (٥/ ٧، ٨).
(٢) شرح حديث جبريل (ص٤٢٢).

إذا كان القلب سليمًا من المعارض، كالحسد والكبر؛ لأنَّ النفس مفطورة علىٰ حبِّ الحقِّ، وهو الذي يلائمها، ولا شيء أحبَّ إلىٰ القلوب السليمة من الله، وهذا هو الحنيفية ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي اتخذه الله خليلًا».

والصدِّيق هو الذي استقام لسانه من السوء والبذاءة والفحشاء، واستقام علىٰ الكلم الطيِّب.

فقد روىٰ مسلمٌ في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا ينبغي لصديق أن يكون لعَّانًا**»، قال العلَّامة الوزير ابن هُبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في هذا الحديث من الفقه: أنَّ الصدِّيق من المؤمنين ينبغي له أن يكون حافظًا للسانه عن أن يلعن شيئًا من خلق الله لا يستحقُّ: كالدابَّة، والبعير، وغير ذلك.

فأمَّا لعنة الكافرين؛ فإنَّ هذا لا يخرج عنه الصدِّيقون، فإذا لعنوا الكافرين كانوا لاعنين لا لعَّانين؛ لأن اللعَّان الذي يكثر منه اللَّعن فيتجاوز به الحدَّ المشروع، واللاعن: هو الذي يلعن من لعنه الله ورسوله».

وصدِّيقيَّة المسلم في كلمه الطيِّب هي حقيقة إسلامه، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»، متَّفق عليه.

والألسنة مغاريف لما في القلوب - كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -، فالكلم الطيِّب مغراف من القلوب الطيِّبة، والألسنة الخبيثة مغاريف من الأوعية

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٨/ ١٦١).

الخبيثة، قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

ومن تحقَّق تصديقه بوعد الله ووعيده عمل للآخرة، ومن عمل للآخرة بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والمتابعة لرسوله ﷺ؛ فذلك الذي سعىٰ في عتق رقبته من النَّار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مدار السعادة وقطب رحاها علىٰ التصديق بالوعيد، فإذا تعطَّل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابًا لا يُرجىٰ معه فلاح البتة.

والله تعالىٰ أخبر أنَّه إنَّما تنفع الآيات والنذر لمن صدَّق بالوعيد وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون بالآيات دون من عداهم، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وأخبر تعالىٰ أنَّ أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدِّقون بالوعيد الخائفون منه، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]».

❁ ❁ ❁

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١١٥).



الولاء والبراء في الله

حنيفيَّة التَّوحيد ملَّة إبراهيم من أوثق عراها الولاء والبراء في الله، وذلك من حقيقة التَّوحيد، فمن تألَّه لله وكفر بما يُعبد من دونه؛ والىٰ أولياء الله وتبرأ ممَّن عبد غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أمرنا الله أن نتأسَّىٰ بإبراهيم والذين معه إذ تبرَّءوا من المشركين وممَّا يعبدونه من دون الله، وقال الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧﴾ [الزُّخرُف: ٢٦، ٢٧]، والبراءة ضدُّ الولاية.

وأصل البراءة البغض، وأصل الولاية الحبُّ، وهذا لأنَّ حقيقة التوحيد ألَّا يحبَّ إلَّا الله، ويحبَّ ما يحبُّه الله لله، فلا يحبُّ إلا لله، ولا يبغض إلا لله، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]».

وقال العلامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الله افترض علىٰ المؤمنين عداوة الكفَّار والمنافقين».

والكفر بما يعبد من دون الله هو من تجريد التوحيد لله وحده، لا شريك له،

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٤٦٥).

(٢) أوثق عرىٰ الإيمان (ص١٠٠).

فإنَّ مجرَّد إثبات الألوهية لله لا ينفي الشريك، ومجرَّد نفي الآلهة الباطلة عدم محض لا كمال فيه، وإثبات الألوهية لله وحده لا شريك له، ونفي الألوهية الباطلة لغيره؛ هو التوحيد والكمال.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اشتمال كلمة الإسلام - وهي شهادة أن لا إله إلَّا الله - علىٰ النفي والإثبات، فكان في الإتيان بالنفي في صدر هذه الكلمة من تقرير الإثبات، وتحقيق معنىٰ الإلهية، وتجريد التوحيد الذي يُقصد بنفي الإلهية عن كلِّ من ادُّعيت فيه سوىٰ الإله الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

والأساس الذي تُبنىٰ عليه ملَّة إبراهيم الحنيفية السمحة هو توحيد الله، والموالاة في التوحيد، وذكر خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأساس الذي أوجب له البراءة من المشركين وهو شركهم بالله، وعدم تجريدهم التوحيد الخالص له.

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ أصل الأصول كلِّها الذي يترتَّب عليه إعقاد صلة الأرحام ووشائج الأنساب، وغير ذلك.

فإذا عُدم أصل الأصول الذي يُوصل الأرحام بفرع ينتمي إليه؛ لم يكن لذلك الفرع مادَّة من الحقِّ تصله، ولا أسٌّ يبتني ذلك الفرع عليه، وهذا فهو

(١) طريق الهجرتين (١/ ٣٠٨).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٢٢).

مشير إلىٰ ألَّا يوادَّ المؤمن مشركًا ولا كافرًا، وإن كان ذا نسب منه؛ بنوة، أو أخوة، أو رحم قريبة؛ إذ نسب إبراهيم من آزر أقرب في صلة الأنساب، ومع ذلك لم يعتد بذلك شيئًا.

وفيه أيضًا تنبيه علىٰ أنَّ ذا الرحم إذا كان فاسقًا، فإنَّه يتعيَّن أن يشاه المؤمن، وإن كان يشيه علىٰ مقدار فسقه، كما أنَّه يتعيَّن أن يودَّ الرجل الصالح بصلاحه وإن كان لا نسب بينه وبينه».

وإنَّما يوالي الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ والإسلام والمسلمين من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، ومن كان يحبُّ المرء لا يحبُّه إلَّا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقىٰ في النار**».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حلاوة الإيمان المتضمِّنة من اللذة والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان تتبع كمال محبَّة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور:

تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدِّها.

فـ«تكميلها» أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما؛ فإن محبَّة الله ورسوله لا يكتفىٰ فيها بأصل الحبِّ، بل لا بدَّ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، كما تقدَّم.

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠، ٢٠٥، ٢٠٦).

و«تفريعها» أن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلَّا لله.

و«دفع ضدِّها» أن يكره ضدَّ الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار».

ولا يزال المسلمون يتوارثون عقيدة الولاء والبراء من توحيد الله من حنيفية خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيحقِّقون بذلك توحيدهم لله، ويوالون ويعادون فيه.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٢٦-٢٨].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: جعل هذه الموالاة لله، والبراءة من كلِّ معبود سواه، كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض. وهي كلمة «لا إله إلا الله»، وهي التي ورَّثها إمامُ الحنفاء لأتباعه إلىٰ يوم القيامة.

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أُسِّست الملَّة، ونُصِبت القبلة، وجُرِّدت سيوف الجهاد، وهي محض حقِّ الله علىٰ جميع العباد».

وموالاة الإسلام والمسلمين والبراءة من الشرك والمشركين هو من تحقيق توحيد الألوهية؛ فإنَّ المؤمن يتألَّه لله بموالاته ونصرة دينه وموالاة المسلمين، ويتألَّه لله بالبراءة ممَّن كفر وأشرك به.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «العَبْد بِمَعْنىٰ العابد، فَيكون عابدًا

---

(١) الداء والدواء (ص٤٥٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٥٧).

لله، لَا يعبد إِلَّا إِيَّاه، فيطيع أمره وَأمر رسله، ويوالي أولياءه الْمُؤمنِينَ الْمُتَّقِينَ، ويعادي أعداءه.

وَهَذِه الْعِبَادَة مُتَعَلِّقَة بإلهيَّته؛ وَلِهَذَا كَانَ عنوان التَّوْحِيد «لَا إِلَه إِلَّا الله»، بِخِلَاف من يقرُّ بربوبيَّته وَلَا يعبده، أَو يعبد مَعَه إِلَهًا آخر.

فالإله الَّذِي يألهه الْقلب بِكَمَال الْحبِّ والتعظيم والإجلال وَالْإِكْرَام وَالْخَوْف والرجاء وَنَحْو ذَلِك. وَهَذِه الْعِبَادَة هِيَ الَّتِي يُحِبُّهَا الله ويرضاها، وَبهَا وصف المصطفين من عباده، وَبهَا بعث رسله».

فتوحيد الله يستلزم موالاته وموالاة المؤمنين به الموحِّدين له، ويستلزم البراءة من الشرك والمشركين.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «بيَّن سبحانه أنَّ الإيمان له لوازم وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده، ومن أضداده موادَّة من حادَّ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ».

وقال النبيُّ ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ».

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لم يجعل مجرَّد

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٥٢٠).

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص ٣٢، ٣٣).

التلفُّظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلَّا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يُعْبَدُ من دون الله، فإنْ شكَّ أو توقَّفَ لم يحرم ماله ولا دمه.

فتبيَّن بذلك أنَّه لا بدَّ من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، ومن الإقرار بذلك اعتقادًا ونطقًا، ولا بدَّ من القيام بعبادة الله وحده طاعة لله وانقيادًا، ولا بدَّ من البراءة ممَّا ينافي ذلك عقدًا وقولًا وفعلًا.

ولا يتمُّ ذلك إلَّا بمحبَّة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم، لا تغني في هذا المقام الألفاظ المجرَّدة، ولا الدعاوىٰ الخالية من الحقيقة، بل لا بدَّ أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل؛ فإنَّ هذه الأشياء متلازمة متىٰ تخلَّف واحد منها تخلَّفت البقيَّة».

ومن موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين هو عدم اتِّخاذ الكافرين ولاة للمؤمنين، فإنَّ هذا مع أنَّه ممنوع شرعًا؛ فإنَّه من أسباب المضارَّة بالمسلمين وأوطانهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: ١٤١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قد عرف أهل الخبرة أنَّ أهل الذمَّة من اليهود والنصارىٰ، والمنافقين؛ يكاتبون أهل دينهم بأخبار المسلمين، وبما يطلعون علىٰ ذلك من أسرارهم، حتىٰ أُخذ جماعة من المسلمين في بلاد التتر، وسُبي، وغير ذلك، بمطالعة أهل الذمَّة لأهل دينهم، ومن الأبيات المشهورة

(١) تفسير شيخ الإسلام (١/ ٤٩٦).

قول بعضهم:

كـلُّ العـداوات قـد تُرجـىٰ مودَّتهـا ... إلَّا عـداوة مـن عـاداك في الـدِّين

ولهذا وغيره مُنعوا أن يكونوا علىٰ ولاية المسلمين، أو علىٰ مصلحة من يقويهم، أو يفضل عليهم في الخبرة والأمانة من المسلمين، بل استعمال من هو دونهم في الكفاية أنفعُ للمسلمين في دينهم ودنياهم.

والقليل من الحلال يُبارَك فيه، والحرامُ الكثير يذهب، ويمحقه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

ولابُدَّ أن يكون عند المسلم فرقان بين البراء من الكافرين والمشركين، وبين البراء من المسلمين فيما يوجب ذلك من مخالفاتهم لأمر الله، فإنَّ البراءة من الكافر والمشرك كلية، والبراءة من المسلمين تكون فيما خالفوا فيه أمر الله، ولهم من الموالاة بقدر إسلامهم وإيمانهم.

وواجب الموحِّدين معاملة المسلمين بنحو ما حثَّهم عليه النبيُّ ﷺ في قوله: «**المؤمن القوي خير وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ**».

ومعاملة الكافر والانتفاع به دنيويًّا بما لا يضرُّ الإسلام والمسلمين جائزة، خصوصًا من عَهِدَ منه المسلمون الصدق والأمانة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الانتفاع بآثار الكفَّار والمنافقين في أمور الدنيا فهذا جائز. كما يجوز السكنىٰ في ديارهم، ولبس ثيابهم وسلاحهم، وكما تجوز معاملتهم علىٰ الأرض، كما عامل النبيُّ ﷺ يهود خيبر، وكما

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١١٤).

استأجر النبيُّ ﷺ هو وأبو بكر لما خرجا من مكَّة مهاجرين «ابنَ أُريقط» - رجلًا من بني الدِّيل - هاديًا خرِّيتًا، والخريت: الماهر بالهداية، وائتمناه علىٰ أنفسهما ودوابِّهما، وواعداه غار ثور صبح ثالثة، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ مسلمهم وكافرهم، وكان يقبل نصحهم. وكل هذا في الصحيحين. وكان أبو طالب ينصر النبي ﷺ ويذبُّ عنه مع شركه، وهذا كثير.

فإنَّ المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤتمن، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولهذا جاز ائتمان أحدهم علىٰ المال، وجاز أن يستطبَّ المسلم الكافر إذا كان ثقة، نصَّ علىٰ ذلك الأئمة كأحمد وغيره؛ إذ ذلك من قبول خبرهم فيما يعلمونه من أمر الدنيا، وائتمان لهم علىٰ ذلك، وهو جائز. إذا لم يكن فيه مفسدة راجحة، مثل ولايته علىٰ المسلمين وعلوه عليهم ونحو ذلك».

وأمرنا الله بتأسيس الموالاة علىٰ الإيمان به؛ لأنَّ هذا هو حقيقة الإيمان «أن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله»، وهذه أصدق المؤاخاة والموادَّة وأدومها، وهي النافعة في الدنيا والآخرة، وهي دليل صدق الإيمان، وبها تصلح الأرض ويسعد الخلق.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أحبَّ شخصًا لهواه، مثل أن يحبَّه لدنيا يصيبها منه، أو لحاجة يقوم له بها، أو لمال يتأكل به، أو بعصبيَّة فيه، ونحو ذلك من الأشياء، فهذه ليست محبَّة لله؛ بل هذه محبَّة لهوىٰ النفس، وهذه

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٩٩، ١٠٠)، باختصار يسير جدًّا.

المحبَّة هي التي تُوقع أصحابها في الكفر والفسوق والعصيان.

وما أكثر من يدعي حبَّ مشايخ لله، ولو كان يحبُّهم لله لأطاع الله الذي أحبَّهم لأجله، فإنَّ المحبوب لأجل غيره تكون محبَّته تابعة لمحبَّة ذلك الغير، وكيف يحبُّ شخصًا لله من لا يكون محبًّا لله؟!

وكيف يكون محبًّا لله من يكون معرضًا عن رسول الله ﷺ وسبيل الله.

وما أكثر من يحبُّ شيوخًا أو ملوكًا أو غيرهم فيتَّخذهم أندادًا يحبُّهم كحبِّ الله!! والفرق بين المحبَّة لله والمحبَّة مع الله ظاهر، فأهل الشرك يتَّخذون ﴿أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وأهل الإيمان يحبُّون الله وما يحبُّه الله».

والموالاة في الله هي التي تنفع في الدنيا والآخرة، فيكتب الله ثواب وحسنات المتوالين فيه، ويبارك في موالاتهم، ويزيد بها إيمانهم، ويقوىٰ الإسلام، ويتراحم الخلق بالحبِّ في الله، والبغض في الله.

والموالاة للدنيا أو لحمية، أو عصبية أو جاهلية يمقتها الله، ولا يبارك فيها، وتكون شرًّا علىٰ المتوالين لغير الله، وتكون أعمالهم عليهم إثمًا وزورًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ أبا بكر كان يحبُّ النبيَّ ﷺ مخلصًا لله، وأبو طالب عمُّه كان يحبُّه وينصره لهواه، لا لله. فتقبَّل الله عمل أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأنزل فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧-٢١]، وأمَّا

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ١٠٤، ١٠٥).

أبو طالب فلم يتقبَّل الله عمله؛ بل أدخله النار؛ لأنَّه كان مشركًا عاملًا لغير الله. وأبو بكر لم يطلب أجره وجزاءه من الخلق، لا من النبيِّ ﷺ، ولا من غيره؛ بل آمن به، وأحبَّه، وكلأه، وأعانه بنفسه وماله متقرِّبًا بذلك إلىٰ الله، وطالبًا الأجر من الله».

ونهي الشريعة عن التشبُّه بالكفَّار في لباسهم وهيئاتهم وأخلاقهم وأمورهم لأنَّ تلك الموافقة في الظاهر تؤول إلىٰ الموافقة في الباطن.

وقد أمرنا النبيُّ ﷺ بالتشبُّه بإسماعيل في هديه وسمته وجهاده.

عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** خرج رسول الله ﷺ بنفر ينتضلون، فقال: «**ارمُوا بني إسماعيل؛ فإنَّ أباكم كان راميًا**»، رواه البخاري.

وكتب الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ عتبة بن فرقد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو بأذربيجان: «إيَّاكم والتَّنَعُّم وزيّ أهل الشِّرك، ولبوس الحرير»، رواه الشَّيخان[١]، وفي رواية في غير الصَّحيح: «اتَّزروا، وارتدوا، وانتعلوا، وألقوا الخفاف، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل، وعليكم بالشمس، فإنَّها حمَّام العرب، وتمعددوا واخشوشنوا».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «هذا تعليم منه للفروسية، وتمرين للبدن علىٰ التبذُّل وعدم الرَّفاهية والتنعُّم، ولزوم زيِّ ولد إسماعيل بن إبراهيم، فأمرهم

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللِّباس، باب لبس الحرير للرِّجال (ص١٠٢٧، ١٠٢٧ – رقم ٥٨٢٨)، ومسلم كتاب اللِّباس والزِّينة، باب تحريم لبس الحرير وغير ذلك علىٰ الرِّجال (ص٩٢٧ – رقم ٥٤١١).

(٢) الفروسية (ص ١٢٠، ١٢١).

بالاتِّزار، والارتداء، والانتعال، وإلقاء الخفاف؛ لتعتاد الأرجل الحرَّ والبرد، فتتصلَّب وتقوىٰ علىٰ دفع أذاها».

والواجب علىٰ كلِّ مسلم أن يتلقَّىٰ هديه عن خير البريَّة نبيِّ الله محمَّد ﷺ، فإنَّ خير الهدي هدي محمَّد ﷺ.

ومن أهمِّ وأوَّل ما وعظ الله به خليله، ونبَّهه عليه هو تأسيس ملَّته علىٰ الموالاة في الله، فنهاه الله عن موالاة أبيه وأمره بالبراءة منه لكفره، وزجره عن موالاة الكافرين والمشركين من ذريَّته.

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المراد: الظلم الأكبر الذي هو الكفر».

وفي هذا توجيه للأمَّة لعقد آصرة الولاء والأخوَّة علىٰ أخوَّة الدين وآصرة التَّوحيد والإسلام.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لكن الرابطة الدينيَّة التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ هذه تدخل جميع المؤمنين – ولو من غير العرب –؛ وتخرج من ليس بمؤمن – ولو كان عربيًّا –؛ فهذا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٤٣).

(٢) تفسير سورة البقرة (٢/ ٢٤٥، ٢٤٦).

إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]؛ وقد حثَّنا الله عَزَّوَجَلَّ على التأسِّي بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، ولمَّا قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٦]».

فمن تولَّىٰ الله تولَّاه الله، ومن تولَّىٰ الكفر والكافرين ما له من الله من ولي ولا نصير، قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، أمر بلزوم هديه ووحيه، والموالاة لله باتباعه وموالاة المؤمنين به.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، تحذير من موالاة الكافرين ببيان سوء عاقبة من فعل ذلك فما له من الله من وليٍّ ولا نصير.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: ««الولي» هو الذي يتولَّىٰ غيره بحفظه، وصيانته، فالمعنىٰ: ما أحد يتولَّىٰ حفظك سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، و«النصير» هو الذي يدفع الشرَّ، أي: ولا أحد يتولَّىٰ نصرك فيدفع عنك الشرَّ

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٣١).

سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال شيخنا العثيمين في فوائد الآية(١): «إنَّ الكفر ملَّة واحدة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، وهو باعتبار مضادَّة الإسلام ملَّة واحدة، أما باعتبار أنواعه فإنَّه ملل: اليهودية ملَّة، والنصرانية ملَّة، والبوذية ملَّة، وهكذا بقية الملل».

وقال العلَّامة محمَّد العثيمين في فوائد الآية أيضًا(٢): «قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّهم علىٰ ملَّة، ودين؛ ولكن بيَّن الله تعالىٰ أنَّ هذا ليس بدين، ولا ملَّة؛ بل هوًىٰ؛ وليسوا علىٰ هدًىٰ؛ إذ لو كانوا علىٰ هدًىٰ لوجب علىٰ اليهود أن يؤمنوا بالمسيح عيسىٰ ابن مريم؛ ولوجب عليهم جميعًا أن يؤمنوا بمحمَّد ﷺ؛ لكن دينهم هوًىٰ، وليس هدًىٰ.

وهكذا كلُّ إنسان يتبع غير ما جاءت به الرسل - عليهم الصلوات والسلام -، ويتعصَّب له؛ فإنَّ ملَّته هوًىٰ، وليست هدًىٰ».

ومن موالاة الله موالاة شرعه، والتحاكم إليه، وبذلك تأتلف الأمَّة ويجتمع أمرها علىٰ الحقِّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «علىٰ الخلق كلِّهم اتباع محمَّد ﷺ فلا يعبدون إلَّا الله، ويعبدونه بشريعة محمَّد ﷺ لا بغيرها، قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٣٢).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٣٣).

(٣) الفتاوىٰ العراقية (١/ ١٠٢).

عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩] ويجتمعون علىٰ ذلك ولا يتفرقون، كما ثبت في «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله يرضىٰ لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، وأن تناصحوا من ولَّاه الله أمركم**»».

ومن تولىٰ عن شرع الله تولىٰ الله عن هدايته وحفظه ونصره.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّك إذا اتَّبعت غير شريعة الله فلا أحد يحفظك من الله، ولا أحد ينصرك من دونه - حتىٰ لو كثر الجنود عندك؛ ولو كثرت الشُّرَط؛ ولو اشتدَّت القوَّة -؛ لأنَّ النصر والولاية تكون بالهداية باتباع هدىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فالأمن إنَّما يكون بالإيمان، وعدم الظلم».

ولضرورة كلِّ مسلم إلىٰ البراءة من الكفر والشرك والكافرين والمشركين؛ أمرنا الله أن ندعوه أن يجنبنا طرائقهم وأعمالهم وضلالهم في كلِّ صلاة نصلِّيها، وندعوه سبحانه أن يهدينا الصراط المستقيم، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧].

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٣٣، ٣٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «علىٰ المسلم أن يبعد من هذين الشَّبهين غاية البعد، ومن تصوَّر الشَّبَهَيْن والوَصْفين وعلم أحوال الخلق؛ علم ضرورته وفاقته إلىٰ هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاءٌ أنفع منه ولا أوجب منه عليه؛ وأنَّ حاجته إليه أعظم من حاجته إلىٰ الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقَدَّر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفوْته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين، إنه قريب مجيب».

فالتوحيد حقيقته التأله لله وحده لا شريك له، وموالاته والمتألِّهين له وحده لا شريك له، والكفر والبراءة مما يُعبد من دون الله والمشركين والكافرين به.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أوَّل الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وذُروةُ سنامه، وقطب رحاه.

وأمرنا تعالىٰ أن نتأسَّىٰ بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٤١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥٦٢).

كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ – ٨٢].

وإذا تدبَّرت القرآن – من أوَّله إلىٰ آخره – رأيته يدور علىٰ هذا التوحيد، وتقريره، وحقوقه».

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أصل الْمُوَالَاة هِيَ الْمحبَّة، كَمَا أَنَّ أصل المعاداة البغض، فَإِنَّ التحابَّ يُوجب التقارب والاتفاق، والتباغض يُوجب التباعد وَالِاخْتِلَاف.

وَقد قيل: الْمولىٰ من الْوَلْي وَهُوَ الْقرب، وَهَذَا يَلِي هَذَا؛ أَي: هُوَ يقرب مِنْهُ. والعدو من العدواء، وَهُوَ الْبعد وَمِنْه العدوة.

وَالشَّيْء إِذا ولي الشَّيْء ودنا مِنْهُ وَقرب إِلَيْهِ اتَّصل بِهِ، كَمَا أَنَّه إِذا عدىٰ عَنهُ ونأىٰ عَنهُ وَبعد مِنْهُ؛ كَانَ مَاضِيًا عَنهُ».

والموالاة تقتضي الجمع، فالمؤمنون إخوة، وتجمعهم كلمة التوحيد، فأوثق عرىٰ الإيمان الحبُّ في الله، وأمَّة الإسلام أمَّة واحدة تأتلف علىٰ توحيد الله وطاعة أمره ونهيه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٤٩٨).

رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الموالاة تقتضي التحابَّ وَالْجمع، والمعاداة تقتضي التباغض والتفرُّق، وَالله سُبْحَانَهُ قد ذكر الْمُوَالَاة وَالْجمع بَين الْمُؤمنِينَ، فقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وَذكر الْعَدَاوَة بينهم وَبَين الْكفَّار فَقَالَ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]».

وقال شيخ الإسلام[(٢)]: «إنَّه قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥]، فجعل موالاتهم كموالاة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وموالاة الله ورسوله لا تتمُّ إلَّا بطاعة أمره.

وكذلك المؤمنون لا تتمُّ موالاتهم إلا بطاعة أمرهم؛ وهذا لا يكون إلَّا إذا كان أمرهم أمرًا متفقًا؛ فإن أمر بعضهم بشيء وأمر آخر بضدِّه؛ لم يكن موالاة هذا بأولىٰ من موالاة هذا، فكانت الموالاة في حال النزاع بالردِّ إلىٰ الله والرسول».

وبموالاة المؤمنين بعضهم لبعض يتحقَّق توحيد الله بذلك، ويكونون أمَّةً واحدة، وجسدًا واحدًا، وتقوىٰ شوكتهم، ففي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ**».

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «لمَّا كان المؤمنون يرتفدون

(١، ٢) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٥٠٢).

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٣٩٨).

بالمؤمنين، ويتعاضدون ويتساعدون؛ فتقوىٰ شوكتهم، ويعلو أمرهم؛ كان ذلك مشعرًا بإيمانهم، فإنَّهم علىٰ شكل البنيان الذي كلُّ لبنة منه من حيث إنها تتَّصل بأختها، وأختها بأخرىٰ وهكذا، وكلٌّ من المؤمنين مرتفدٌ به، كل المؤمنين: الكبير والصغير، والعالم والمتعلِّم، والمصحوب والصاحب، فيكون مَثْلهم كمثل البنيان الذي كلُّ شيء منه نافع لشيء منه».

وسيِّد الحنفاء وإمام الموحِّدين وسيِّد المرسلين ﷺ برَّأه الله من الشرك والمشركين، ومن شبهاتهم، وهكذا يكون الحنفاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالىٰ لنبيِّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وذلك يقتضي تبرُّؤه منهم في جميع الأشياء.

ومن تابع غيره في بعض أموره؛ فهو منه في ذلك الأمر؛ لأنَّ قول القائل: أنا من هذا، وهذا مني؛ أي: أنا من نوعه، وهو من نوعي.

لأنَّ الشخصين لا يتَّحدان إلَّا بالنوع، كما في قوله تعالىٰ: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعليٍّ: «**أنت مني وأنا منك**»، فقول القائل: لستُ من هذا في شيء؛ أي: لستُ مشاركًا له في شيء، بل أنا متبرِّئ من جميع أموره.

وإذا كان الله قد برَّأ الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ من جميع أمورهم؛ فمن كان متبعًا للرسول ﷺ حقيقةً كان متبرئًا كتبرُّئه، ومن كان موافقًا لهم كان مخالفًا للرسول

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١١٢).

ﷺ بقدر موافقته لهم، فإنَّ الشخصين المختلفين من كلِّ وجه في دينهما، كلما شابهت أحدهما؛ خالفت الآخر».

وموالاة الله هي سبب الهداية والحفظ والنصر والتمكين والرزق، وسبب تدبير الله لمن تولَّاه بالسلامة من كيد المشركين والكافرين وسبب لحفظ دين المسلمين وظهوره.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤]، ثمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذا أمر منه تعالىٰ للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنَّهم إذا فعلوا ذلك نصرهم الله وثبَّت أقدامهم، أي: يربط علىٰ قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبِّر أجسامهم علىٰ ذلك، ويعينهم علىٰ أعدائهم، فهذا وعدٌ من كريم صادق الوعد، أنَّ الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره».

ثم قال العلَّامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فتولَّاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتولَّىٰ جزاءهم ونصرهم، ﴿وَأَنَّ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص ٨٣٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص ٨٣٥).

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالىٰ، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدُّوا علىٰ أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ يهديهم إلىٰ سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]».

واليهود مغضوب عليهم والنصارىٰ ضالُّون، فنهي الله لعباده عن مشابهتهم هو من رحمته بالحنفاء المسلمين الموحِّدين، فإنَّ اليهود شدَّدوا علىٰ أنفسهم تعنتًا وعنادًا عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فشدَّد الله عليهم، وجعل عليهم الآصار والأغلال، والنصارىٰ فرَّطوا في عبودية الله وتركوا المشروع، وعبدوا الله بجهلهم ابتداعًا ورهبانية، ومنهم من ترك عبودية الله بسبب عدم صبره علىٰ طاعة الله، فرضي الله لنا الإسلام دينًا، واصطفانا للوسطية بين تشديد اليهود وتفريط النَّصارىٰ، وجعلنا خير أمَّة أُخرجت للناس، فالبراءة من اليهودية والنصرانية والتمسُّك بالحنيفية هو من أسباب خيرية هذه الأمَّة الوسط، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فمشابهة الضالِّين والمغضوب عليهم من أسباب سخط الله وغضبه، ولزوم الإسلام هو من الأخذ بأسباب رحمة الله.

وصفة المؤمنين موالاة بعضهم بعضًا، فالموالاة للمؤمنين والبراءة من المشركين هو تحقيق للإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المؤمن يوالي جميع أهل الإيمان، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال النبيُّ ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا**»، وشبَّك بين أصابعه، وقال: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمَّىٰ**»، وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**لا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»».

وموالاة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ والمؤمنين، وإقامة شرائع وشعائر الإسلام، والبراءة من الشرك والمشركين، ومخالفتهم ومجانبة هديهم من أسباب ظهور الدين وعزِّ الإسلام.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يزال الدين ظاهرًا ما عجَّل الناس الفطر؛ لأنَّ اليهود والنصارىٰ يؤخِّرون**»، رواه أبو داود.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذا نصٌّ في أنَّ ظهور الدين الحاصل بتعجيل الفطر لأجل مخالفة اليهود والنصارىٰ.

وإذا كان مخالفتهم سببًا لظهور الدين، فإنَّما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله علىٰ الدين كلِّه، فيكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة».

وموالاة الكافرين والتشبُّه بهم من أسباب الكفر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، والتوحيد والإيمان يوجب

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٣١).

مزايلة الكافرين والمشركين والبراءة منهم وممَّا يعبدون من دون الله.

عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**من تشبَّه بقوم فهو منهم**»، رواه أبو داود(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هذا الحديث أقلُّ أحواله أن يقتضي تحريم التشبُّه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبِّه بهم؛ كما في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وهو نظير ما سنذكره عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «**من بنىٰ بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم**(٣)، **وتشبَّه بهم حتىٰ يموت؛ حُشر معهم يوم القيامة**».

فقد يحمل هذا علىٰ التشبُّه المطلق؛ فإنَّه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد يحمل علىٰ أنَّه منهم في القَدْر المشترك الَّذي شابههم فيه؛ فإن كان كفرًا، أو معصية، أو شعارًا لها؛ كان حكمه كذلك».

وجعل الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ المخالفة لشرائع وشعائر وعبادات الكافرين من تحقيق الحنيفية والإسلام، تفريقًا بين الفئتين، وتحقيقًا للوازم الفرق بين الاعتقادين؛ اعتقاد التوحيد واعتقاد الشرك، قال النبيُّ ﷺ: «**فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر**»، رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناد جيِّد»، «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ١٦٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٦٤).

(٣) نيروز ومهرجان المشركين؛ هو أعيادهم.

ومن أنواع مشابهة اليهود والنصارىٰ ما يُوقع في الشرك، ويوجب لعنة الله وسخطه، كاتخاذ القبور مساجد.

ففي الصحيحين عن عائشة؛ أنَّ أمَّ سلمة وأمَّ حبيبة - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسةً رأينها بأرض الحبشة، يُقال له: مارية، وذكرتا من حُسْنها وتصاوير فيها، فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح، أو الرجل الصالح، بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله عَزَّوَجَلَّ**».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وفي لفظ مسلم: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وتعاهد النبيُّ ﷺ وصيَّة أمَّته بالتحذير من التشبُّه باليهود والنصارىٰ حتىٰ فارق الحياة، فإنَّه لمَّا نزل به الموت قال: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، متفق عليه، قالت عائشة وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: يحذِّر ما صنعوا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «هذا التحذير منه، واللعن عن مشابهة أهل الكتاب في بناء المسجد علىٰ قبر الرجل الصالح؛ صريحٌ في النهي عن المشابهة في هذا، ودليل علىٰ الحذر من جنس أعمالهم، حيث لا يؤمن في سائر أعمالهم أن تكون من هذا الجنس».

وبراءة الله من الكافرين توجب علىٰ الموحِّدين المتولِّين له البراءة منهم،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٠٠).

فهذا حقيقة التوحيد، تحقيقه بنفي الموالاة عمَّن لم يتألَّه لله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١، ٢]، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إثباته هنا بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دون [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ]؛ فسرُّهُ - والله أعلم -: إرادة الدلالة علىٰ أنَّ من كان الكفر وصفًا ثابتًا له لازمًا لا يفارقه؛ فهو حقيق أن يتبرَّأ الله منه، ويكون هو - أيضًا - بريئًا من الله، فحقيق بالموحِّد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنَّه يقول: كما أنَّ الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه، فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائمًا أبدًا؛ ولهذا أتىٰ فيها بالنفي الدَّالِّ علىٰ الاستمرار في مقابلة الكفر الثابت المستمرِّ وهذا واضح».

والكفَّار والمشركون إمَّا أهل كتاب يهود ونصارىٰ دينهم محرَّف ومنسوخ، أو كفَّار ليس لهم كتاب من السماء مُتَّبع، فالبراءة من أهوائهم وكفرهم والاعتصام بالله، واتباع وحيه موجب لتولي الله لمن تولَّاه، هداية ونصرًا ورزقًا وتدبيرًا، وموالاة الكافرين ومشابهتهم واتباعهم والأخذ بسننهم من أسباب خذلان الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾ [البقرة: ١٢٠].

والإجماع السابق من النبيِّ ﷺ والصحابة منعقد علىٰ البراءة من الكفر والشرك وعدم التشبُّه بالكافرين.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤٤، ٢٤٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من كانت له خبرة بالسيرة، علم يقينًا أنَّ المسلمين علىٰ عهده ﷺ ما كانوا يشركونهم في شيءٍ من أمرهم».

ومن تولاه اللهُ - حقًّا - هداية ونصرًا ورزقًا وتدبيرًا فهو الذي أدرك خيري الدُّنيا والآخرة.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يدعوهم - الله - لأجل أن يتَّخذوه وحده وليًّا وملجأً، وملاذًا ومَعاذًا، ومَفْزَعًا إليه في الأمور كلِّها، وينيبوا إليه في كلِّ حال، ويخبرهم أنَّ هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنَّه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليه الخاصِّ تولَّاه عدُّوه الذي يريد له الشرَّ والشقاء، ويمنِّيه ويغرُّه، حتىٰ يفوِّته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك».

وفي مدارسة عقيدة الولاء والبراء، لابُدَّ من تبيين الفرق بين موالاة الكافر ومعاملته من غير موالاة، ولابُدَّ من تبيين الفرق بين المداراة والمداهنة، فأحكام التكفير ليست بالأمر الهيِّن بحيث تُذكر باجتزاء نصوص الوحي.

قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ التقاة ليست بموالاة، ولكن لمَّا نهاهم عن موالاة الكفَّار اقتضىٰ ذلك معاداتهم والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعداوة في كلِّ حال،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص ٣٤).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٩٤٢).

إلَّا إذا خافوا من شرِّهم؛ فأباح لهم التَّقِيَّةَ، وليست التَّقِيَّةُ موالاةً لهم».

والحكم علىٰ الأعيان بالتكفير في مسائل موالاة الكافرين من أدقِّ الأمور، وقد أنكر العلماء مسارعة غير المتحقِّقين بالعلم التكفير في ذلك، وظهر في هذه المسألة عدم جمع المتعالمين لنصوصها وأدلَّتها، ومجازفتهم في التكفير في ذلك.

وقال العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن التكفير بالموالاة والحكم بغير ما أنزل الله[١]: «لا يتكلَّم فيها إلَّا العلماء من ذوي الألباب، ومن رُزق الفهم عن الله، وأوتي الحكمة، وفصل الخطاب».

وبيَّن شيخنا العلامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ موالاة الكافر قد تنافي الإيمان كله أو كماله، حيث قال[٢]: «موالاة الكفَّار تكون بمناصرتهم ومعاونتهم علىٰ ما هم عليه من الكفر والضَّلال، وموادَّتهم تكون بفعل الأسباب التي تكون بها مودَّتهم فتجده يوادُّهم؛ أي يطلب ودَّهم بكلِّ طريق، وهذا - لا شكَّ - ينافي الإيمان كلَّه أو كماله، فالواجب علىٰ المؤمن معاداة من حادَّ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ ولو كان أقرب قريب إليه، وبغضه والبعد عنه، ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته للحقِّ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ

---

(١) الدرر السنية (١/ ٤٦٨).

(٢) شرح ثلاثة الأصول (ص ٣٠)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوىٰ، المجلد السادس.

(٣) شرح حديث جبريل (ص ٤٠٣).

إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقد يحصل من الرجال نوع من موادَّتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا كاتب المشركين ببعض أخبار النبيِّ ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١] الآية.

وكما حصل لسعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا انتصر لابن أُبي نوبة الإفك. فقال لسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر علىٰ قتله. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحميَّة».

والحنفاء يتولَّاهم الله بطاعته، والشيطان يتولىٰ من أطاعه، ومن أطاع الشيطان في شرك وكفر يُخرج من الملَّة كان كافرًا، ومن أطاعه في معصية فاته من ولاية الله بقدر معصيته، ومن تاب تاب الله عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ١١٩﴾ [النساء: ١١٩].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «تولي الشيطان يكون بطاعته، فمن أطاع الشيطان وعصىٰ الرحمن ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾»

وقال العلَّامة محمد العثيمين أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «كلُّ من عصىٰ الله فإنَّه موالٍ للشيطان، لكن الولاية قد تكون عامَّة، وقد تكون خاصَّة، فإذا أطاع الشيطان في الكفر والشِّرك كانت الولاية عامَّة، وإذا أطاعه في معصية من المعاصي كانت خاصَّة.

(١، ٢) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٤٤).

وليعلم أنَّه يفوت من ولاية الإنسان لربِّه عَزَّوَجَلَّ إذا والىٰ الشيطان بقدر ما والىٰ به الشيطان».

ومن تولَّىٰ الله في الدنيا تولَّاه الله في الدنيا والآخرة، والموالاة في الآخرة هي الأمن التامُّ والسعادة الأبدية والفوز العظيم، قال تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اختلفوا في قراءة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، فمنهم من فتح الواو من ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، فيكون المعنىٰ: هنالك الموالاة لله، أي: هناك كلُّ أحد مؤمن أو كافر يرجع إلىٰ الله وإلىٰ موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخبارًا عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]، ومنهم من كسر الواو من ﴿**الوِلاية**﴾، أي: هنالك الحُكْمُ لله الحقِّ».

ومن موالاة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ التحدُّث بلغة القرآن التي اصطفاها الله لوحيه لخاتمة الرسالات لخير أمَّة أُخرجت للناس.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «سنذكر - إن شاء الله تعالىٰ - بعض ما قاله العلماء، من الأمر بالخطاب العربي، وكراهة مداومة غيره لغير حاجة، واللسان تقارنه أمور أخرىٰ: من العلوم والأخلاق، فإنَّ العادات لها تأثير عظيم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٢٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٩٦).

فيما يحبُّه الله أو فيما يكرهه، فلهذا أيضًا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين الأوَّلين، في أقوالهم وأعمالهم، وكراهة الخروج عنها إلىٰ غيرها من غير حاجة».

وكان النبيُّ ﷺ يفتتح نهاره ويختم ليله بقراءة سورة التوحيد والبراءة من الشرك في سنة الفجر وفي وتر الليل؛ ليتغذىٰ بحقائق التوحيد، وهكذا حال من اتبعه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كان النبيُّ ﷺ يقرأ بها - ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ - وبـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، في سنَّة الفجر وسنَّة المغرب، فإنَّ هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا علىٰ نوعي التَّوحيد، الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلَّا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمِّن تنزيه الله عمَّا لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد، وأنَّه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يُولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد؛ فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصمد؛ الذي اجتمعت له صفات الكمال كلُّها».

والخوارج يكفِّرون المسلمين، ويبرءون منهم، معاملينهم معاملة الكفار، بالبراءة الكليَّة، قطعوا عن المسلمين رحمة الله، وغلَّبوا وعيده في حقِّ المسلمين بتكفيرهم، وهذا ممَّا اشترك الخوارج والرافضة فيه بتكفير المسلمين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ردَّ الرافضة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة المعلومة عند خاصِّ الأمَّة وعامَّتها بالضرورة في مدح الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والثناء عليهم، ورضا الله عنهم، ومغفرته لهم، وتجاوزه عن سيِّئاتهم،

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) إعلام الموقِّعين (٣/ ٢١١ - ٢١٣).

ووجوب محبَّة الأمَّة واتباعهم لهم، واستغفارهم لهم، واقتدائهم بهم؛ بالمتشابه من قوله: «**لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض**»، ونحوه.

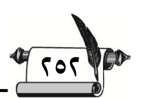
كما ردُّوا المحكم الصريح من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم؛ كفعل إخوانهم من الخوارج حين ردُّوا النصوص الصحيحة المحكمة في موالاة المؤمنين ومحبَّتهم وإن ارتكبوا بعضَ الذُّنوب، التي تقع مكفَّرةً بالتوبة النصوح، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المُكفِّرة، ودعاء المسلمين لهم في حياتهم وبعد موتهم، وبالامتحان في البَرْزخ، وفي موقف القيامة، وبشفاعة من يأذن الله له بالشفاعة، وبصدق التوحيد، وبرحمة أرحم الراحمين؛ فهذه عشرة أسباب تمحُ أَثَر الذنوب، فإن عَجِزت هذه الأسباب عنها فلا بدَّ من دخول النار، ثمَّ يخرجون منها.

فتركوا ذلك كلَّه بالمتشابه من نصوص الوعيد، وردُّوا المحكم من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم التي يحتمل أن يكونوا قصدوا بها طاعة الله فاجتهدوا، فأدَّاهم اجتهادهم إلىٰ ذلك فحصلوا فيه علىٰ الأجر المفرد، وكان حظُّ أعدائهم منه تكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم، وإن لم يكونوا قصدوا ذلك كان غايتهم أن يكونوا قد أذنبوا، ولهم من الحسنات والتوبة وغيرها ما يرفع موجب الذنب.

فاشتركوا هم والرَّافضة في ردِّ المحكم من النصوص وأفعال المؤمنين بالمتشابه منها؛ فكفَّروهم وخَرَجوا عليهم بالسيف يقتلون أهل الإيمان ويَدَعون أهل الأوثان».

والنبيُّ ﷺ في معاملة المسلمين أمرنا أن نأخذ بالمحكم في أفعالهم في الحكم عليهم، فقال: «**من صلَّىٰ صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم**»، رواه البخاري.





بيان بطلان الشرك

ملَّة إبراهيم بيان بطلان الشِّرك، وإيقاظ الفطر والعقول بعدم قيام الشِّرك علىٰ دليل شرعيٍّ ولا فطريٍّ ولا عقليٍّ.

وكفر المشركين واستكبارهم عن توحيد الله هو مكابرة ودفع للحقِّ، طغيانًا في علوهم بغير الحقِّ.

قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤].

ومن المشركين من كان لجهله وتقليده للآباء والأجداد يشرك بالله ظانًّا أنَّه يعبده، والله إنَّما يُعبد بتجريد العبادة له وحده لا شريك له، ككفَّار قريش؛ فإنَّهم يعبدون الأصنام لتقرِّبهم إلىٰ الله زلفىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يُوصف بأنَّه عابد الله وعبده والمستقيم علىٰ عبادته؛ إلَّا من انقطع إليه بكلِّيته وتبتَّل إليه تبتيلًا، لم يلتفت إلىٰ غيره، ولم يُشرك به أحدًا في عبادته، وأنَّه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابدًا لله، ولا عَبْدًا له».

وهذا المعنىٰ هو التوحيد الذي أمرنا الله أن نحقِّقه بالكفر بما يُعبد من دون الله، والبراءة من شرك من عبد مع الله غيره، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤١).

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١، ٢]، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الوصف الثابت اللازم للعابد لله منتفٍ عنكم – المشركين –، فليس هذا الوصف ثابتًا لكم، وإنَّما ثبت لمن خصَّ الله وحده بالعبادة، لم يشرك معه فيها أحدًا.

وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإنَّ المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، أي: اعتزلتم معبودهم إلَّا الله، فإنَّكم لم تعتزلوه. وكذا قال المشركون عن معبودهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره فلم ينتفِ عنهم الفعل لوقوعه منهم، ونُفِيَ الوصف؛ لأنَّ من عبد غير الله، لم يكن ثابتًا علىٰ عبادة الله موصوفًا بها».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «من المعلوم أنَّ من دعا مع الله إلهًا آخر فإنَّه كافر، وأنَّه ليس له برهان مطلقًا. وإنَّما قيَّدها الله بهذا القيد بيانًا لشناعة الشرك والمشرك، وأنَّ الشرك ليس له دليل شرعيٌّ، ولا عقلي قطعًا، والمشرك ليس بيده ما يُسوِّغ له شيئًا من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ علىٰ المشركين بما تملَّكهم لغبائهم

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤١).

(٢) القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص ٩٥).

وبلادتهم التقليدية من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنَّه ليس بأيديهم إلَّا أغراض بهيمية ومقاصد سيِّئة، وتقليد أعمىٰ كالأنعام، وأنَّهم لو التفتوا أدنىٰ التفات لعرفوا أنَّ ما هم عليه لا يستجيزه من له أدنىٰ إيمان ولا معقول».

قال تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين، ومن عُبد مع الله، فإنَّ جميع ما يُعبَدُ من دون الله من ملك وبشر، ومن شجر وحجر وغيرها؛ كلُّهم فقراء إلىٰ الله، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرَّة، ولا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون، ولا يملكون ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

والله تعالىٰ هو الخالق لكلِّ مخلوق، وهو الرازق لكلِّ مرزوق، المدبِّر للأُمور كلِّها، الضارُّ النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كلِّ شيء، وإليه يُرجع كلُّ شيء، وله يَقصد ويصمد ويخضع كلُّ شيء.

فأي بُرهان أَعظم من هذا البرهان الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، فهو دليل عقلي فطري، كما أنَّه دليل سمعي نقلي علىٰ وجوب توحيد الله، وأنَّه الحقُّ، ودليل كذلك علىٰ بُطْلان الشرك».

وقام إبراهيم عليه السلام بالدَّعوة إلىٰ التَّوحيد، والتَّحذير من الشِّرك، وذلك حقيقة الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم عليه السلام ومن قيام الخليل إبراهيم بتوحيد الله كفره بكل ما يُعبد من دون الله، وإنكاره الشِّرك، وبيانه لضلال وبطلان الشِّرك،

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص٥٦).

وذلك من الكفر بالطَّاغوت الواجب تحقيقًا للتَّوحيد الخالص لله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وكان من أعظم الشِّرك الذي أنكره الخليل إبراهيم عليه السلام عبادة الأصنام، وأيقظ سيد الحنفاء عقول المشركين في محاورته لعبَّاد الأصنام ضلالهم في عبادة ما نحتوه وصنعوه بأيديهم، وكان واجبهم أن يعبدوا الله الذي خلقهم وخلق أعمالهم التي نحتوا وصنعوا بها الأصنام، ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]، وأبان إبراهيم عليه السلام في خطابه لعبَّاد الأصنام نقص ما يعبدون من الحجارة التي لا تنفع ولا تضرُّ، ولا تسمع ولا تجيب دعاء من يعبدها، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣].

وقام سيد الحنفاء بتكسير الأصنام تعظيمًا لله وإزالة للشِّرك، وإظهارًا للتَّوحيد، ونصرة لدين الله، ومحوًا للباطل، وبيانًا لامتناع أن تكون الأصنام آلهة حقًّا، قال تعالىٰ عن تكسير الخليل للأصنام: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «حين بُعث إبراهيم - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - كان الشرك قد طَبَّقَ الأرض، وامتلأتْ بعبادة الكواكب العُلْوية والأصنام السُّفْلية، فأظهر التوحيد، ودعا إليه، وعادىٰ الشرك وأهله، ونصره الله علىٰ قومه».

والحنفاء من الأنبياء وأتباعهم الموحِّدين دعوا الناس لتوحيد الله، واستدلُّوا

(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص ١٨٨).

بخلق الشمس والقمر والنجوم والكواكب على توحيد الله، وأنكروا شرك من جعلها آلهةً وهي مربوبة لله مسيرة بأمره، كلُّ الموحِّدين على اتِّباع ملَّة إبراهيم، سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويوشع بن نون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وصفوة وخاتم المرسلين محمَّد ﷺ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وَأمَّا ما ذكره – المبطل – عَن إِبْرَاهِيم خَلِيل الرَّحْمَن أَنَّه تمسَّك بِعلم النُّجُوم حِين قَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، فَمن الْكَذِب والافتراء على خَلِيل الرَّحْمَن ﷺ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْآيَة أكثر من أَنَّه نظر نظرةً فِي النُّجُوم، ثمَّ قَالَ لَهُم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]؛ فَمن ظنَّ من هَذَا أَنَّ علم أَحْكَام النُّجُوم من علم الْأَنْبِيَاء، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُراعونه ويُعانُونه، فقد كذب على الْأَنْبِيَاء، ونسبهم إِلَى مَا لا يَلِيق بهم، وَهُوَ من جنس من نسبهم إِلَى الكهانة وَالسِّحر، وَزعم أَن تلقِّيهم الْغَيْب من جنس تلقِّي غَيرهم، وَإِن كَانُوا فَوْقهم فِي ذَلِك، لكَمَال نُفُوسهم وَقُوَّة استعدادها وقبولها لفيض الْعُلويَّات عَلَيْهَا.

وَهَؤُلَاء لم يعرفوا الْأَنْبِيَاء وَلَا آمنُوا بهم، وَإِنَّمَا هم عِنْدهم بِمَنْزِلَة أَصْحَاب الرِّياضات الَّذين خُصُّوا بِقُوَّة الْإِدْرَاك وَزَكَاة النُّفُوس وَطهارة الْأَخْلَاق، ونَصَبوا أنفسهم لإِصْلَاح النَّاس وَضبط أمورهم.

وَلَا ريب أَن هَؤُلَاءِ أبعدُ الْخلق عَن الْأَنْبِيَاء واتباعهم ومعرفتهم وَمَعْرِفَة مُرسِلهم وَمَا أرسلهم بِهِ، هَؤُلَاءِ فِي شَأْن وَالرسل فِي شَأْن آخر، بل هم ضدُّهم فِي علومهم وأعمالهم وهَديهم وإرادتهم وطرائقهم ومَعَادهم، وَفِي شَأْنهمْ كُلِّه؛ وَلِهَذَا نجد أَتبَاع هَؤُلَاءِ ضدَّ أَتبَاع الرُّسُل فِي الْعُلُوم والأعمال وَالْهَدي والإرادات.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٣٧٨ – ١٣٨٣).

وَمَتىٰ بعث الله رَسُولًا يُعاني التنجيم، والتمزيجات والطَّلسمات، والأوفاق، والتَّداخين، والبَخُورات، وَمَعْرِفَة القِرانات، وَالْحكم علىٰ الْكَوَاكِب بالسُّعود والنُّحوس والحرارة والبرودة والذُّكورة وَالْأُنُوثَة؟! وَهل هَذِه إِلَّا صنائع الْمُشْركين وعلومهم؟!

وَهل بُعثت الرُّسُل إِلا بالإنكار علىٰ هَؤُلَاءِ ومَحْقهم ومَحْق علومهم وَأَعْمَالِهِمْ من الأَرْض؟! وَهل للرسل أَعدَاء بِالذَّاتِ إِلَّا هَؤُلَاءِ وَمن سلك سبيلهم؟!

وَهَذَا مَعْلُوم بالاضطرار لكلِّ من آمن بالرسل - صلوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِم - وَصدَّقهمْ فِيمَا جاؤوا بِهِ، وَعرف مُسَمَّىٰ رَسُول الله وَعرف مُرسِلَه.

وَهل كَانَ لإِبْرَاهِيم الْخَلِيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَدوٌّ مثل هَؤُلَاءِ المنجِّمين الصَّابئين؟!

وحَرَّان كَانَت دَار مملكتهم، والخليل أعدىٰ عَدوٍّ لَهُم، وهم الْمُشْركُونَ حَقًّا، والأصنام الَّتِي كَانُوا يعبدونها كَانَت صورًا وتماثيل للكواكب، وَكَانُوا يتَّخذون لَهَا هياكل - وَهِي بيُوت الْعِبَادَات -، لكلِّ كَوْكَب مِنْهَا هيكل فِيهِ أصنام تناسبه، فَكَانَت عِبَادَتهم للأصنام وتعظيمهم لَهَا تَعْظِيمًا مِنْهُم للكواكب الَّتِي وضعُوا الْأَصْنَام عَلَيْهَا وَعبادَةً لَهَا.

وَهَذَا أقوىٰ السَّببَين فِي الشّرك الْوَاقِع فِي الْعَالم، وَهُوَ الشِّركُ بالنجوم وتعظيمها، واعتقاد أَنَّهَا أَحيَاء ناطقة، وَلها روحانيَّات تتنزَّلُ علىٰ عابديها ومخاطبيها، فصوَّروا لَهَا الصُّورَ الأرضية، ثمَّ جعلُوا عبادتها وتعظيمها ذَرِيعَةً إِلَىٰ عبادَة تِلْكَ الْكَوَاكِب واستنزال روحانيَّاتها وَكَانَت الشَّيَاطِين تتنزَّلُ عَلَيْهِم

وتخاطبهم وتكلِّمهم وتُرِيهم من الْعَجَائِب مَا يَدعُوهُم إِلَىٰ بَذْل نُفُوسهم وَأَوْلَادهمْ وَأَمْوَالهمْ لِتِلْك الْأَجسام والتقرُّب إِلَيْهَا.

وَكَانَ مبدأ هَذَا الشِّرك تَعْظِيم الْكَوَاكِب وَظنَّ السُّعُود والنُّحوس وَحُصُول الْخَيْر وَالشَّرِّ فِي الْعَالم مِنْهَا، وَهَذَا هو شرك خَواصِّ الْمُشْركين وأرباب النَّظر مِنْهُم، وَهُوَ شرك قوم إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَالسَّبَب الثَّانِي: عبَادَةُ الْقُبُور، والإشراك بالأموات، وَهُوَ شرك قوم نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ أول الشِّركين طَرَق الْعَالم، وفتنته أَعمُّ، وأهل الابتلاء بِهِ أَكثر، وهم جُمْهُور أهل الْإِشْرَاك.

وَكَثِيرًا مَا يجْتَمع السَّبَبَان فِي حق الْمُشرك، يكون مَقابِريًّا نجوميًّا.

قَالَ تَعَالَىٰ عَن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]

قَالَ البخاري فِي «صَحِيحه»: قَالَ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ هَؤُلَاءِ رجَالًا صالحين من قوم نوح، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوحَىٰ الشَّيَاطِين إِلَىٰ قَومهمْ أَن انصبوا علىٰ مجَالِسهمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَيْهَا أنصابًا، وسمُّوها بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلم تُعْبَد، حَتَّىٰ إِذا هلك أُولَئِكَ وَنُسخ الْعلمُ عُبِدَت».

وَلِهَذَا لعن النَّبِيُّ ﷺ الَّذين اتَّخذُوا قُبُور أَنْبِيَائهمْ مَسَاجِد، وَنهىٰ عَن الصَّلَاة إِلَىٰ الْقُبُور، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تجْعَل قبري وثنًا يُعبد**».

وَقَالَ: «**اشْتَدَّ غضب الله علىٰ قوم اتَّخذُوا قُبُور أَنْبِيَائهمْ مَسَاجِد**»، وَقَالَ: «**إِنَّ من كَانَ قبلكُمْ كَانُوا يتَّخذون قُبُورَ أَنْبِيَائهمْ مَسَاجِد، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُور**

مَسَاجِد؛ فَإِنِّي أنهاكم عَن ذَلِك».

وَأخْبر أَنَّ هَؤُلَاءِ شرار الْخلق عِنْد الله يَوْم الْقِيَامَة وَهَؤُلَاء هم أَعدَاء نوح كَمَا أَنَّ الْمُشْركين بالنجوم أَعدَاء إِبْرَاهِيم، فنوح عَادَاهُ الْمُشْركُونَ بالقبور، وَإِبْرَاهِيم عَادَاهُ الْمُشْركُونَ بالنجوم، والطائفتان صوَّروا الْأَصْنَام علىٰ صُوَر معبوديهم، ثمَّ عبدوها.

وَإِنَّمَا بعثت الرُّسُل بمَحْقِ الشِّرك من الأَرْض، ومَحْقِ أَهله، وَقَطْع أسبابه، وَهَدْم بيوته، ومحاربة أَهله، فَكيف يُظَنُّ بِإِمَام الحنفاء، وَشَيخ الْأَنْبِيَاء، وخليل ربِّ الأَرْض وَالسَّمَاء، أَنَّه كَانَ يتعاطىٰ علم النُّجُوم، وَيَأْخُذُ مِنْهُ أَحْكَامَ الْحَوَادِث؟! سُبْحَانَكَ هَذَا بهتان عَظِيم.

وَإِنَّمَا كَانَت النظرة الَّتِي نَظَرها فِي النُّجُوم من معاريض الْأَفْعَال، كَمَا كَانَ قَوْله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَقَوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وَقَوله عَن امْرَأَته سارة: «**هَذِه أُخْتِي**»، من معاريض الْمقَال؛ ليتوصَّل بهَا إِلَىٰ غَرَضه من كَسْر الْأَصْنَام، كَمَا توصَّل بتعريضه بقوله: «**هَذِه أُخْتِي**»، إِلَىٰ خلاصها من يَد الْفَاجِر.

وَلمَّا غَلُظ فهم هذا عَن كثير من النَّاس، وكَثُفَت طباعهم عَن إِدْرَاكه؛ ظنُّوا أَنَّ نظره فِي النُّجُوم ليستنبط مِنْهَا علم الْأَحْكَام، وَعَلِمَ أَنَّ نجمه وطالعه يقْضي عَلَيْهِ بِالسَّقمِ، وحاشا لله أَن يُظنّ ذَلِك بخليله ﷺ أَو بِأحد من أَتْبَاعه».

والصابئة عُبَّاد النجوم والكواكب تشابهت عقائدهم مع القبوريين من عُبَّاد الأولياء والمقبورين، كلُّهم يعتقد أنَّ لهذه المخلوقات المربوبة لله تصرُّفًا في الكون.

قال العلَّامة محمَّد بن إسماعيل الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ التوسُّل بالمخلوقين إلىٰ ربِّ العالمين هي طريقة الصابئة، أحد الفرق الست التي عدَّهم الله في سورة الحجِّ؛ حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ [الحج: ١٧]».

والقبوريون ضاهوا عبَّاد الهياكل في شركهم، وتشابه اعتقادهم، فالقبوريون قالوا: الأولياء يتصرَّفون في الكون، وعبَّاد الكواكب قالوا: النجوم والكواكب تتصرَّف في الكون، تشابهت قلوبهم، سبحان الله وتعالىٰ عمَّا يُشركون!!!.

وإذا كانت الشمس أعظم المخلوقات من الكواكب مربوبة مخلوقة مسخَّرة بأمر الله، تطلع كلَّ يوم من المشرق وتغرب من المغرب، لا تخرج عن أمر الله في ذلك حتىٰ تقوم الساعة فيجعلها الله تطلع من المغرب، وتذهب كلَّ يوم فتسجد لله وهو مستوٍ علىٰ عرشه، فأحرىٰ بأن يُعبد خالقها ومجريها ومن خضعت له وحده.

والشمس وسائر الكواكب سيرها وحركتها ومواقعها في السماء لا أثر لها في الحوادث الأرضية؛ فإنَّ الشمس كُسفت في اليوم الذي مات فيه إبراهيم ابن النبيِّ - عليهما الصلاة والسلام -، فتحدَّث الناس أنَّها كُسفت لموته، فقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته**»، متَّفق عليه.

فكلُّ المخلوقات تدلُّ علىٰ عظمة خالقها، وتوجب عبودية من خلقها، فالموحِّدون شهدوا ببصيرتهم وأبصارهم آيات الله في المخلوقات، وزاغت

---

(١) الإنصاف في حقيقة الأولياء (ص ١٠١).

أبصار المشركين وعميت بصائرهم عن شهود توحيد الله في خلقه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هُوَ سُبْحَانَهُ خلق الْعَالم الْعُلوِيَّ والسُّفليَّ بِسَبَب الْحقِّ، وَلأَجل الْحقِّ، وَضَمَّنَهُ الْحقَّ، فبالحقِّ كَانَ، وللحقِّ كَانَ، وعَلىٰ الْحقِّ اشْتَمَل، وَالْحقُّ هُوَ توحيدُه، وعبادتُه وَحده لَا شريك لَهُ هو مُوجَب ذَلِك وَمُقْتَضَاهُ، وَقَامَ بعدله الَّذِي هُوَ الْحقُّ، وعَلىٰ الْحقِّ اشْتَمَل، فَمَا خلق الله شَيْئًا إِلَّا بِالْحَقِّ وللحقِّ، وَنَفس خلقه لَهُ حقٌّ، وَهُوَ شَاهد من شَوَاهِد الْحقِّ، فَإِنَّ أَحق الْحقِّ هُوَ التَّوْحِيدُ كَمَا أَنَّ أظلم الظُّلم هُوَ الشِّركُ، ومخلوقات الربِّ تَعَالَىٰ كلُّهَا شاهدة لَهُ بِأَنَّهُ الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، وَأَن كلَّ معبود بَاطِل سواهُ، وكل مَخْلُوق شَاهد بِهَذَا الْحقِّ، إِمَّا شَهَادَة نُطْقٍ، وَإِمَّا شَهَادَة حَال، وَإِنْ ظهر بِفِعْلِهِ وَقَوله خلَافهَا، كالمشرك الَّذِي يشْهدُ حَالُ خلقِه وإبداعه وصُنعِه لخالقه وفاطره أَنَّه الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ، وَإِنْ عبد غَيره وَزعم أَنَّ لَهُ شَرِيكًا فشاهد حَاله مكذِّبٌ لَهُ مُبْطِلٌ لشهادة فعله وَقَالِهِ».

وكلُّ المخلوقات شاهدة علىٰ توحيد الله، وقد أخبرنا الله عن منطق الهدهد، وهو من الطير، كيف أنكر شرك قوم سبأ الذين كانوا يسجدون للشمس من دون الله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٣٩٢، ١٣٩٣).

﴿ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الخلق مفطورون علىٰ إنكار الشرك؛ لأنَّ الهدهدَ أنكر عليهم شركهم، مع أنَّ الهدهد ليس من العقلاء، لكِن جميع الحيوانات بل والمخلوقات غير الحيوانات مفْطورة علىٰ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإنَّ المشركين شرُّ البريَّة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه إذا كانت البهائم والجمادات تسبِّح الله وتَعْرِف حقَّه، وبنو آدم هؤلاء يشركون به؛ صاروا شرَّ الخليقة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]».

وقد زاغ بعض فلاسفة المبتدعين، ومتكلمة المعتزلة والأشاعرة عن توحيد الله، وصار يستحسن الشرك بالله من عبادة الكواكب ويُصنِّف المؤلَّفات في ذلك، وذلك من سوء القصد وفساد النية بمصانعة الملوك، ومن ضلال الابتداع الذي يُخرج من صغير إلىٰ كبير، حتىٰ يخرج إلىٰ الإلحاد، كما قال التابعي محمَّد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أسرع الناس رِدَّةً أهل الأهواء».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «صنَّف الرازي كتابه في عبادة الكواكب والأصنام، وأقام الأدلَّة علىٰ حسن ذلك ومنفعته، ورغَّب فيه. وهذه

---

(١) تفسير سورة النمل (ص ١٥١، ١٥٢).

(٢) نقض المنطق (ص ٤٧).

ردَّة عن الإسلام باتفاق المسلمين، وإن كان قد يكون تاب منه وعاد إلىٰ الإسلام».

فالنجوم والكواكب خلقها وحركتها وسيرها ومنافعها دال علىٰ عظمة الله الذي خلقها، وعلىٰ ربوبيته لكل المخلوقات، وكل ذلك موجب لعبادة الله خالق المخلوقات وحده لا شريك له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هو سبحانه أقسَمَ بالسماء وما فيها ممَّا لا نَرَاهُ من الملائكة، وما فيها ممَّا نَرَاهُ من الشمس، والقمر، والنُّجُوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنَّهار، وكلُّ ذلك آيةٌ من آياته، ودلالةٌ من دلائل ربوبيَّته.

ومن تدبَّرَ أمرَ هذين النيِّرَيْن العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خَلْقِهما، وجِرْمِهما، ونُورِهما، وحركتهما علىٰ نهْجٍ واحدٍ، لا يَنِيَانِ، ولا يَفْتُرَان، دَائِبَيْن، ولا يقع في حركاتهما اختلافٌ بالبُطْءِ، والسرعةِ، والرجوعِ، والاستقامةِ، والانخفاضِ، والارتفاعِ، ولا يجري أحدُهما في فَلَكِ صَاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمسُ القمرَ، ولا يجيء الليلُ قبل انقضاء النَّهار، بل لكلٍّ حركةٌ مقدَّرَةٌ، ونهجٌ معيَّنٌ لا يَشْركه فيه الآخر، كما أنَّ له تأثيرًا ومنفعةً لا يَشركه فيها الآخر.

وذلك ممَّا يدلُّ مَنْ له أدنىٰ عقلٍ علىٰ أنَّه بتسخير مسخِّرٍ، وأَمْرِ آمِرٍ، وتدبير مدبِّرٍ، بَهَرَتْ حكمتُه العقولَ، وأحاطَ علمُه بكلِّ دقيقٍ وجليلٍ.

وفوق ما علمه النَّاس من الحِكَمِ التي في خَلْقِهما ما لا تصل إليه عقولهم،

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص ٢٥٠، ٢٥١).

ولا تنتهي إلىٰ مبادئها أوهامهم، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقِهما، وكمال حكمته، ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قرأ قارئ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير: ١-٣] وفي الحاضرين أبو الوفاء ابن عقيل، فقال له قائل: يا سيِّدي هبْ أنَّه أَنشر الموتىٰ للبعث والحساب، وزوَّج النفوس بقرنائها للثواب والعقاب، فلمَ هدم الأبنية وسيَّر الجبال، ودكَّ الأرض وفطر السماء، ونثر النجوم وكوَّر الشمس؟

فقال: إنما بني لهم الدار للسُّكنىٰ والتَّمَتُّع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتَّفَكُّر، والاستدلال عليه بحسن التأمُّل والتَّذَكُّر، فلما انقضت مُدَّةُ السكنىٰ وأجلاهم من الدَّار خرَّبها لانتقال الساكن منها.

فأراد أن يُعلِّمهم بأن الكونين كانت معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال، وإظهار تلك الأهوال، وبيان المقدرة بعد بيان العزَّة، وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجِّمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبودِيهم قد انتثرتْ وانفطرت، ومحالَّها قد تشقَّقت؛ ظهرت فضائحهم، وتبيَّن كذبهم، وظهر أنَّ العالم مربوب محدَث مدبَّر، له ربٌّ يصرِّفه كيف يشاء، تكذيبًا لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم، فكم لله تعالىٰ من حكمة في هدم هذه الدار، ودلالة

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٣١).

علىٰ عظم عِزَّته وقدرته وسلطانه، وانفراده بالرُّبوبيَّة، وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله ربُّ العالمين».



بيان ما في الشرك من الشرور

بيان ما في الشِّرك من الشُّرور هو من التَّحذير منه، والشِّرك عاقبته الضَّلال في الدُّنيا، والنَّار في الآخرة، وقام سيِّد الحنفاء بالدَّعوة إلىٰ التَّوحيد والتَّحذير من الشِّرك.

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال تعالىٰ عن إمام الحنفاء أنَّه قال للمشركين: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرَّة البتة، إلَّا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلَّا هو، ولا يذهب بالسيِّئات إلَّا هو، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، قال النبيُّ ﷺ لعبد الله بن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**واعلم أنَّ الخليقة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك لم ينفعوك إلَّا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضرُّوك لم يضرُّوك إلَّا بشيء كتبه الله عليك**»، وإذا كانت هذه حال الخليقة، فتعليق الخوف والرجاء بهم ضارٌّ غير نافع».

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٢٨).

(٢) طريق الهجرتين (١/ ١٣٢، ١٣٣).

والشرك من أعظم القول علىٰ الله بغير علم، ومن شرِّ الشهادة الزور، فالموحِّدون يشهدون أن لا إله إلَّا الله، ولا يشهدون مع الله إلهًا أو آلهة أخرىٰ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

ومن أشرك بالله فقد ألقىٰ بنفسه في مهاوي الضلال والظلمات والعذاب، قال تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «تأمَّل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلَّق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهًا مركَّبًا، ويكون قد شُبِّه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبَّب إلىٰ هلاك نفسه هلاكًا لا يرجىٰ معه نجاة، فصوَّر حاله بصورة من خرَّ من السماء فاختطفه الطير في الهوىٰ، فتمزَّق مزعًا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتىٰ هوت في بعض المطارح البعيدة، وعلىٰ هذا لا ينظر إلىٰ كلِّ فرد من أفراد الشبه ومقابلته من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرَّق، فيقابل كلُّ واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلىٰ هذا فيكون قد شبَّه الإيمان والتوحيد في علوِّه وسعته وشرفه

(١) الأمثال في القرآن الكريم (ص ٣٨٢، ٣٨٣).

بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها يهبط إلىٰ الأرض وإليها يصعد منها.

وشبَّه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلىٰ أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة، والطير الذي يخطف أعضاءه ويمزِّقه كلَّ ممزَّق بالشياطين التي يُرسلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه تؤزه أزًّا وتزعجه وتقلقه إلىٰ مظانِّ هلاكه، فكلُّ شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أنَّ لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله علىٰ إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء».

والفساد في الأرض كلُّه يرجع إلىٰ الشرك بالله ومخالفة صراطه المستقيم، فالذنوب والمعاصي والبدع والأهواء كلُّها فروع الشرك، ومن مخالفة صراط الله المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال أكثر المفسِّرين: لا تُفسدوا فيها بالمعاصي والدُّعاء إلىٰ غير طاعة الله بعد إصلاح الله إيَّاها ببعث الرُّسُل، وبيان الشَّريعة، والدُّعاء إلىٰ طاعة الله، فإنَّ عبادة غير الله، والدعوة إلىٰ غيره، والشرك به؛ هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنَّما هو بالشرك به ومخالفة أمرِهِ».

وقال ابن القيِّم[(٢)]: «وبالجملة فالشِّرْك والدعوة إلىٰ غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسوله ﷺ؛ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها، ولا لأهلها إلَّا بأن يكون الله وحده هو المعبود، والدَّعوة له لا لغيره، والطاعة

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٨٥٦).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٨٥٦، ٨٥٧).

والاتِّباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنَّما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شرعه فلا سمع ولا طاعة، فالله تعالىٰ أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده، ونهىٰ عباده عن إفسادها بالشِّرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تَدبَّرَ أحوال العالم وجدَ كلَّ صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدُوٍّ وغير ذلك؛ فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلىٰ غير الله ورسوله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإله: هو المألوه الذي تألهه القلوب، وكونه يستحقُّ الإلهية مستلزم لصفات الكمال، فلا يستحقُّ أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلَّا هو، وكلُّ عمل لا يُراد به وجهه فهو باطل، وعبادة غيره وحبُّ غيره يوجب الفساد، كما قال تعالىٰ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]».

وشرك كفر النعمة بنسبتها إلىٰ غير مسديها، أو باختيال المنعَم عليه غرورًا بنسيان المنعِم والمباهاة بالحذق في تحصيلها يمحق النعمة.

والحنفاء بضدِّ حال المستكبرين، يشكرون الله علىٰ نعمه اعتقادًا بنسبتها إلىٰ الله، وشكرًا باللسان والجوارح لله عبوديةً له، وأداءً لحقِّ النعم.

وقوم عاد وثمود وفرعون اغترُّوا بما أوتوه فسلبهم الله ما آتاهم، عقوبة لكفرهم واستكبارهم.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٦٧).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وتضمَّنَت هذه السورة - الحجر - ذَمَّ من اغترَّ بقوَّته، وسلطانِه، ومالِه، وهم هؤلاء الأُمَم الثلاثة:

«**قوم عاد**»: اغترُّوا بقوَّتهم.

و«**ثمود**»: اغترُّوا بجِنَانهم، وعيونهم، وزروعهم، وبساتينهم.

و«**قوم فرعون**»: اغترُّوا بالمال والرِّيَاسَة.

فصارت عاقبتهم إلىٰ ما قصَّ الله علينا، وهذا شأنه - دائمًا - مع كلِّ من اغترَّ بشيءٍ من ذلك، لابدَّ أن يُفْسِدَهُ عليه، ويسْلُبَهُ إيَّاه».

وفي سورة الكهف ذكر الله لنا غرور ذي البستان المثمر بالأعناب والنخيل بماله ونفره، المتوهِّم أنَّه أوتيها كرامة علىٰ الله، الممني نفسه بخير منها في الآخرة، فطغيان غروره جعله يتناسىٰ المنعِم ولا يشكر النعمة تواضعًا وخضوعًا لله، ولا يؤدي حقها ويتمنَّىٰ علىٰ الله الأماني الكاذبة، فأهلك الله بستانه موعظةً وذكرىٰ للحنفاء الموحِّدين.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

(١) التِّبيان في أيمان القرآن (٤٩، ٥٠).

وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٤٢].

وهذا المتألي علىٰ الله بغروره وأمانيه الكاذبة كان مرتابًا في البعث حيث قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦]، ووقع في الشِّرك بالنفس الذي أركسه فيه غروره، فلذلك قال بعد أن وجد عاقبة شركه خسرًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ حال، علىٰ معنىٰ: دخل جنته التي لا جنة له غيرها، ظالمًا لنفسه بالكُفر والعُجْب، مغترًّا بالغفلة والمهلة، غير معتبر بسُنَّة الله تعالىٰ في أمثاله من ذوي الطغيان الذين استُدرجوا بالنِّعَم حتىٰ أُخذوا من مأمنهم».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾؛ أي بكفره، وتمرُّده، وتكبُّره، وتجبُّره، وإنكار المعاد: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، وذلك اغترارًا منه لما رأىٰ فيها من الزروع والثمار والأشجار، والأنهار المُطَّردة في جوانبها وأرجائها، ظنَّ أنَّها لا تفنىٰ ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقِلَّة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها،

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٢٨٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٢١).

وكفره بالآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنة».

والحنفاء الموحِّدون مُنعم عليهم بنعمة الإسلام والهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم، وأنواع من النِّعم التي لا تحصىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، ومن أعظم النِّعم أنَّهم يعبدون ويناجون سميعًا بصيرًا كاملًا الذي لا إله غيره ولا رب سواه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من أعظم نعمة الله علينا وما استوجب به حمد عباده له أن جعلنا عبيدًا له خاصَّة، ولم يجعلنا نَهْبًا منقسمين بين شركاء متشاكسين، ولم يجعلنا عبيدًا لإله نحتَتْه الأفكار، ولا يسمع أصواتنا، ولا يُبصر أفعالنا، ولا يعلم أحوالنا، ولا يملك لعابديه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا تكلَّم قطُّ ولا يتكلَّم، ولا يأمر ولا ينهىٰ، ولا تُرفع إليه الأيدي، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا يصعد إليه الكلم الطيِّب، ولا يُرفع إليه العمل الصالح».



(١) طريق الهجرتين (١/ ٢٦٦).



إيمان لا ريب فيه

إيمان سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقُّ اليقين، وهكذا لا يصحُّ إيمان مسلم إلا عن يقين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين، وهي ثلاثةٌ: حقُّ اليقين، وعلمُ اليقين، وعينُ اليقين، كما قال تعالىٰ: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧**﴾ [التكاثر: ٥ – ٧]، **فهذه ثلاث مراتب لليقين:**

أوَّلُها: عِلْمُهُ؛ وهو التصديقُ التامُّ به، بحيث لا يعرض له شَكٌّ ولا شبهةٌ تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجَنَّة مثلًا، وتَيَقُّنِهم أنَّها دارُ المتَّقين ومَقَرُّ المؤمنين.

فهذه مرتبة العلم؛ لِتيقُّنِهم أنَّ الرُّسُل أخبروا بها عن الله، وتَيَقُّنِهم صِدْق المُخْبِر.

المرتبة الثانية: «عين اليقين»؛ وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ**﴾ [التكاثر: ٧].

وبين هذه المرتبة والتي قبلها فَرْقُ ما بين العلم والمشاهدة؛ فـ«علم اليقين» للسمع، و«عين اليقين» للبصر، وفي «المسند» للإمام أحمد مرفوعًا: «**ليس الخَبر كالمُعَايَنة**».

وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيمُ الخليلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنْ يُرِيَهُ اللهُ كيف

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص ٢٨٤ – ٢٨٦).

يحيي الموتىٰ؛ ليحصل له مع «علم اليقين»: «عين اليقين»، فكان سؤاله زيادةً لنفسه، وطمأنينةً لقلبه، فَيَسْكُنُ القلبُ عند المعاينة، ويطمئنُّ لقطع المسافة التي بين الخبر والعِيَان.

وعلىٰ هذه المسافة أطلق النبيُّ ﷺ لفظ الشكِّ حيث قال: «**نحنُ أحَقُّ بالشَكِّ من إبراهيم**»، ومعاذَ الله أن يكون هناك شكٌّ منه، ولا من إبراهيم - عليهما السلام -، وإنَّما هو عينٌ بعد علمٍ، وشُهُودٌ بعد خبَرٍ، ومعاينةٌ بعد سماعٍ.

المرتبة الثالثة: مرتبةُ «حَقِّ اليقين»؛ وهي مباشرة الشيء بالإحساس به، كما إذا دخلوا الجنَّةَ وتمتَّعُوا بما فيها، فَهُمْ في الدنيا في مرتبة «علم اليقين»، وفي الموقف حين تُزْلَفُ وتَقْرُبُ منهم حتَّىٰ يُعَاينُوها في مرتبة «عين اليقين»، وإذا دخلوها وباشروا نعيمَها في مرتبة «حقِّ اليقين».

ومباشرةُ المعلوم تارةً تكون بالحواسِّ الظاهرة، وتارةً تكون بالقلب؛ فلهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]، فإنَّ القلبَ يباشِرُ الإيمانَ به، ويخالِطُهُ كما يُبَاشِرُ بالحواسِّ ما يتعلَّق بها، فحينئذٍ يُخَالِط بشاشته القلوب، ويبقىٰ لها «حقُّ اليقين»، وهذه أعلىٰ مراتب الإيمان وهي «الصدِّيقيَّة» التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين».

ويستفاد من سؤال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ربَّه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ أنَّ تدبُّر آيات الله الكونية من أسباب رسوخ علم اليقين، وقد يبلغ معه علم المتدبر إلىٰ ما يقرب من عين اليقين، وكذلك تدبُّر آيات الله الشرعية يزيد في حقيقة علم اليقين إلىٰ ما يبلغ عين اليقين.

وقد تحدَّث الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ عن بلوغ إيمانهم درجة علم اليقين حين

الإقبال بكلِّيتهم علىٰ رسول الله ﷺ وهو يحدِّثهم عن حقائق الإيمان بالله واليوم الآخر، قال حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا كنا عند رسول الله ﷺ وهو يحدِّثنا عن الجنَّة والنار، كأنَّا نراها رأي العين.

قال شيخنا العلامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّ الناس يتفاوتون في اليقين، ويتفاوتون في الأعمال الظاهرة من قول أو عمل.

يتفاوتون في اليقين؛ فإنَّ الإنسان نفسه تتفاوت أحواله بين حين وآخر، في بعض الأحيان يصفو ذهنه وقلبه حتىٰ كأنَّما يشاهد الآخرة رأي عين؛ وفي بعض الأحيان تستولي عليه الغفلة، فيَقِلُّ يقينه؛ ولهذا قال الله تعالىٰ لإبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ وتفاوت الناس في العلم، واليقين أمر معلوم».

وقد أرانا الله في الدنيا نماذج مما يدلُّ علىٰ ما يكون من البعث وإحياء الموتىٰ، فالأرض الميتة يرسل الله عليها الماء فتحيا، فالله الذي أحياها يحيي الموتىٰ، وهو علىٰ كل شيء قدير.

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٩].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «قال النبيُّ ﷺ: «**نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم**»، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وإبراهيم ﷺ لم يشكَّ،

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٧).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٥، ٤٩٦).

ورسول الله ﷺ لم يشكَّ، ولكن أوقع اسم «الشك» علىٰ المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمَّي العلم اليقيني - قبل مشاهدة معلومه - ظنًّا، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهذا الظنُّ علمٌ جازم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، لكن بين الخبر والعيان فرق، وفي «المسند» مرفوعًا: «**ليس الخبر كالعيان**».

والله عَزَّوَجَلَّ أخبرنا بفرق ما بين علم اليقين وعين اليقين في عبوديته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنَّ ملائكة الله الذين يلتمسون حِلَق الذكر يسألهم الله عن عباده وهو أعلم بهم، فيقولون: يسبِّحونك ويذكرونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول: كيف لو رأوني؟! رواه البخاري.





شهود التوحيد

شهود التوحيد هو الذي دلَّ عليه النبيُّ ﷺ ابنَ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يُعلِّمه كلمات في العقيدة، فقال له: «**تعرَّف إلىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدَّة**»، وشهود التوحيد هو الذي تحدَّث به خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن حفاوة الله به في حفظه ونصره وكفايته وإجابته دعاءه؛ حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. والمؤمنون شهدوا التوحيد بقلوبهم، ووجدوا به حلاوة، قال النبيُّ ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا**».

وشهد المؤمنون ربَّهم «صمدًا» قصدوه بحوائجهم، وفرُّوا وآووا إليه في هدايتهم وكفايتهم ورزقهم.

ومن شهود التوحيد الذي تحقَّق به الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دعائه في الاستسقاء الاقتصار علىٰ الاستغفار؛ فإنَّ الخلق متىٰ أطاعوا ربَّهم أدركوا الخيرات، والاستغفار يمحو السيِّئات ويفرِّج الكربات.

وشهود التوحيد هو الذي هدىٰ الخلق للإيمان بالله وتوحيده، شهدوا هذا التوحيد له وحده لا شريك له ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «يغفر ذنبًا، ويفرِّج كَرْبًا، ويكشف غمًّا، وينصر

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٢٦١، ٢٦٢).

مظلومًا، ويأْخذ ظالمًا، ويفُكُّ عانيًا، ويغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويقيل عثرةً، ويستر عورةً، ويعزُّ ذليلًا، ويُذلُّ عزيزًا، ويعطي سائلًا، ويذهب بدولة، ويأْتي بأُخرىٰ، ويداول الأَيَّام بين الناس، ويرفع أَقوامًا، ويضع آخرين.

يسوق المقادير التي قدَّرها قبل خلق السموات والأَرض بخمسين أَلف عام إلىٰ مواقيتها، فلا يتقدَّم شيء منها عن وقته ولا يتأَخَّر، بل كلٌّ منها قد أَحصاه كما أَحصاه كتابه، وجرىٰ به قلمُه، ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه.

فهو المتصرِّف في الممالك كلِّها وحده، تصرُّفَ ملكٍ قادر قاهر عادل رحيم تامِّ الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرُّفُه في المملكة دائر بين العدل والإِحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرُّفه عن ذلك».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مشهد التوحيد والأمر؛ فيشهد انفراد الرَّبِّ بالخلق، ونفوذ مشيئته، وتعلُّق الموجودات بأسرها به، وجريان حكمه علىٰ الخليقة، وانتهاءها إلىٰ ما سبق لها في علمه وجرىٰ به قلمه، ويشهد ذلك أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وارتباط الجزاءِ بالأعمال، واقتضاءها له ارتباط المسبِّبات بأسبابها التي جعلت أسبابًا مقتضية لها شرعًا وقدرًا وحكمة.

فشهوده: توحيد الرَّبِّ، وانفراده بالخلق، ونفوذ مشيئته، وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعاذة ودوام الالتجاء إليه والافتقار إليه، وذلك يدنيه من عتبة العبودية، ويطرحه بالباب فقيرًا عاجزًا مسكينًا لا يملك لنفسه ضرًّا ولا

---

(١) طريق الهجرتين (ص ١٦٦، ١٦٧).

نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وشهوده أمره تعالىٰ ونهيه وثوابه وعقابه يوجب له الحمد والتشمير وبذل الوسع والقيام بالأمر والرجوع علىٰ نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير، فيكون سيره بين شهود العزَّة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنَّة العظيمة، وبين شهود التقصير والإساءة منه، وتطلب عيوب نفسه وأعمالها.

فهذا هو العبد الموفَّق المعان الملطوف به المصنوع له الذي أُقيم مقام العبودية وضُمِنَ له التوفيق.

وهذا هو مشهد الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم -؛ فهو مشهد أَبيهم آدم إِذ يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ومشهد أول الرسل نوح إذ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٧]، ومشهد إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - إذ يقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢]، وقال في دعائه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فعلم ﷺ أَنَّ الذي يحول بين العبد وبين الشرك وعبادة الأصنام هو الله لا ربَّ غيره، فسأله أن يجنِّبه وبنيه عبادة الأصنام».

ومن شهودك للتوحيد أيُّها المسلم أن تتعرَّف إلىٰ الله في الرخاء والشدَّة، وأن تعرف حكمته سبحانه في استخراج عبودية خلقه بالسراء والضراء، وأنت تملأ

قلبك من تعظيم الله وعبوديَّته باسمه «الكريم»، وأنت في عوائق وصول بعض فضله إليك فتزيلها، وتكون عبدًا شكورًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الله سبحانه هو يعلم ولا تعلم ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله لا لمعاوضة ولا لمنفعة يرجوها منك، ولا لتكثُّر بك، ولا لتعزُّز بك، ولا يخاف الفقر، ولا تنقص خزائنه علىٰ سعة الإِنفاق، ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه إِليه واستغناءً به، بحيث إِذا أَخرجه أَثَّر ذلك في غناه.

وهو يحبُّ الجود والبذل والعطاءَ والإِحسان أَعظم ممَّا تحبُّ أَنت الأَخذ والانتفاع بما سأَلته، فإِذا حبسه عنك فاعلم أَنَّ هناك أمرين لا ثالث لهما:

أَحدهما: أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك، وأنت المعوِّق لوصول فضله إِليك، وأَنت حجر في طريق نفسك.

وهذا الأمر هو الأَغلب علىٰ الخليقة، فإِنَّ الله سبحانه قضىٰ فيما قضىٰ به أَنَّ ما عنده لا يُنال إِلَّا بطاعته، وأَنَّه ما استُجلِبت نِعَمُ الله بغير طاعته، ولا استُديمت بغير شكره، ولا عُوِّقتْ وامتنعتْ بغير معصيته.

وكذلك إِذا أَنعم عليك ثم سلبك النعمة فإِنَّه لم يسلبها لبخل منه ولا استئثار بها عليك، وإِنَّما أَنت السبب في سلبها عنك، فإِنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتىٰ يغيِّروا ما بأَنفسهم؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]».

وأعظم الخلق تحقيقًا لمشهد التوحيد هو محمَّد ﷺ، فإنه إذا أصبح قال:

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٣٣، ١٣٤).

«**اللهمَّ ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك**».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من جلَّىٰ الله سبحانه صدأ بصيرته، وكمَّل فطرته، وأوقفه علىٰ مبادئ الأُمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها؛ أَصبح كالمفلس حقًّا من علومه وأَعماله وأَحواله وأَذواقه، يقول: أَستغفر الله من علمي ومن عملي، أَي من انتسابي إِليهما وغيبتي بهما عن فضل من ذكرني بهما، وابتدأَني بإعطائهما من غير تقدَّم سبب منِّي يوجب ذلك. فهو لا يشهد غير فضل مولاه وسبق مِنَّته ودوامها، فيثيبه مولاه علىٰ هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأَوسط بين الفقرين الأَدنىٰ والأَعلىٰ ثوابين:

أَحدهما: الخلاص من رؤية الأَعمال؛ حيث كان يراها، ويمتدح بها، ويستكثرها فيستغرق بمطالعة الفضل غائبًا عنها، ذاهبًا عنها، فانيًا عن رؤيتها.

الثواب الثاني: أَن يقطعه عن شهود الأَحوال؛ أي عن شهود نفسه فيها متكثرةً بها؛ فإِنَّ الحال محلُّه الصدر، والصدر بيت القلب والنفس، فإِذا نزل العطاءُ في الصدر للقلب وثَبَتَتِ النفس لتأْخذ نصيبها من العطاءِ، فتتمدَّح به، وتُدِلُّ به، وتزهو، وتستطيل، وتقرر إِنِّيتها؛ لأَنَّها جاهلة ظالمة، وهذا مقتضىٰ الجهل والظلم».

ومن عباد الله من زوىٰ الله عنه بعض الدنيا خشية أن يكبَّه ذلك في النار، وما كان عطاء الله عنه محظورًا، والله أرحم بعباده من أنفسهم، والله يقبض ويبسط ليستخرج عبودية خلقه له بالسرَّاء والضرَّاء.

قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٥٠، ٥١).

لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، ساءه ذلك القضاء أو سرَّه، فقضاؤه لعبده المؤمن المنعَ عطاءٌ، وإن كان في صورة المنع، ونعمة، وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية، وإن كان في صورة بليّة، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يَعُدُّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذَّ به في العاجل، وكان ملائمًا لطبعه، ولو رُزق من المعرفة حظًّا وافرًا لعد المنع نعمةً، والبلاء رحمةً، وتلذَّذ بالبلاء أكثر من لذَّته بالعافية، وتلذَّذ بالفقر أكثر من لذَّته بالغنىٰ، وكان في حال القلَّة أعظم شكرًا من حال الكثرة.

وهذه كانت حال السلف، فالعاقل الراضي: من يُعُدُّ البلاء عافية، والمنع نعمة، والفقر غنًىٰ».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّه سُبْحَانَهُ يتعرَّفُ إِلَىٰ العَبْد بِصِفَات إلهيته تارةً وبصفات ربوبيَّته تَارَة؛ فَيُوجب لَهُ شُهُود صِفَات الإلهية: الْمحبَّة الْخَاصَّة، والشوق إِلَىٰ لِقَائِه، والأنس والفرح بِهِ، وَالسُّرُور بخدمته، والمنافسة فِي قربه، والتودُّد إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، واللَّهَج بِذكرِهِ، والفرار من الْخلق إِلَيْهِ، وَيصير هُوَ وَحده همَّهُ دون مَا سواهُ.

وَيُوجب لَهُ شُهُود صِفَات الربوبيَّة: التَّوَكُّل عَلَيْهِ، والافتقارَ إِلَيْهِ، والاستعانة بِهِ، والذُّلَّ والخضوع والانكسار لَهُ.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٨٦).

(٢) الفوائد (ص ١٠٠، ١٠١).

وَكَمَال ذَلِك: أَن يشْهد ربوبيَّتَهُ فِي إلهيَّته وإلهيَّته فِي ربوبيَّته، وحمده فِي ملكِهِ، وعزَّه فِي عَفوه، وحكمته فِي قَضَائِهِ وَقدره، وَنعمته فِي بلائه، وعطاءه فِي مَنعه، وبرَّه ولطفه وإحسانه وَرَحمته فِي قيُّوميَّته وعدله فِي انتقامه، وجودَه وَكَرمه فِي مغفرته وستره وتجاوزه، وَيشْهد حكمته وَنعمته فِي أمره وَنَهْيه، وعزَّهُ فِي رِضَاهُ وغضبه، وحلمه فِي إمهاله، وَكَرمه فِي إقباله، وغناه فِي إعراضه.

وَأَنت إِذا تدبَّرتَ الْقُرْآن وأجَرتَهُ من التحريف وَأَن تقضي عَلَيْهِ بآراء الْمُتَكَلِّمين وأفكار المتكلِّفين أشهدكَ مَلِكًا قَيُّومًا فَوق سمواته، علىٰ عَرْشه، يدبِّر أَمرَ عباده، يَأْمر وَيَنْهَىٰ، وَيُرْسل الرُّسُل، وَينزلُ الْكتب، ويرضىٰ ويغضب، ويثيب ويُعاقب، وَيُعْطِي وَيمْنَع، ويُعزُّ ويذلُّ، ويخفض وَيرْفَع، يرىٰ من فَوق سبع وَيسمع، وَيعلم السِّرَّ وَالْعَلَانِيَة، فَعّالٌ لما يُرِيد، مَوْصُوف بِكُلِّ كَمَال، منزَّه عَن كلِّ عيب، لَا تتحرَّك ذرَّةٌ فَمَا فَوْقهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تسْقط ورقة إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَلَا يشفع أحد عِنْده إِلَّا بِإِذْنِهِ، لَيْسَ لِعِبَادِهِ من دونه وليٌّ وَلَا شَفِيع».

والمقصود من شهود التوحيد عبودية الله وقرَّة العين بذلك، والفرح بالله والأنس به، والطمأنينة والثقة بثوابه الدنيوي والأخروي، والكفاية به عمَّا سواه، لا شريك له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «عليك بالمطالب العالية، والمراتب السامية، التي لا تنال إِلَّا بطاعة الله، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قضىٰ أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته.

ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أَقبل إِليه تلقَّاه من بعيد،

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٤٩).

ومن تصرَّف بحوله وقوَّته أَلان له الحديد، ومن ترك لأَجله أَعطاه فوق المزيد».

وتجديد الإيمان بحقائق التوحيد يجعل القلوب متألِّهة لباريها، فتقصده بالعبوديَّة والرغبة والرجاء والرهبة والمحبَّة والإقبال عليه والفرار إليه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «باب هذه المعرفة والتعبُّد هو معرفة إِحاطة الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعالم وعظمته، وأَن العوالم كلَّها في قبضته، وأَنَّ السموات السبع والأَرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾ [البروج: ٢٠]».

وشهود التوحيد من أسباب زيادة الإيمان وتنميته.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها، لأَنَّها غرس: معرفة، وتصديق، وتفكُّر، وتدبُّر لآيات الله، وتؤتي أكلها تقوىٰ وإيمانًا، وإرادة لموجبها، وهو منافعها كل وقت من: النيَّات الطيِّبة، والأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة، والهدْي المستقيم، دائمة في نفع صاحبها وانتفاع الناس به، وهي صاعدة إلىٰ السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه».

وشهود التوحيد في قضاء الله الشرعي والكوني في خلقه، في الأفراد والأمم هو سنَّة الله التي خاطبنا الله بها في كتابه، عبرةً وعظةً وتوجيهًا لأسباب الخير ومحاذرة أسباب الشرِّ، قال تعالىٰ: ﴿**قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧].

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٤٢).

(٢) القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص٨١).

وقد شهد الموحِّدون ما وعد الله به رسله وأولياءه من نصرة دينه وظهوره، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٣].

وسنَّة الله في التمكين لمن أخذ بأسبابه شهدها الموحِّدون في الأمم، فازدادوا إيمانًا بنصر الله لعباده، متىٰ أخذوا بأسباب ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

ومن أعظم شهود التوحيد أنواع ما دفع الله به من الشرور عن عباده المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨]، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «يدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كلَّ سبب يفضي به إلىٰ العطب، ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوِّه الظاهر والباطن، وشرَّ نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشرِّ بعد انعقادها، بحسب قوَّة الاعتصام به وتمكُّنه».

وقال تعالىٰ: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

ومن أعظم شهود الموحدين التوحيد هو شهودهم عبوديَّة الله، ومن أعظم أنواع ما شهدوا من ذلك الحضور بين يدي الله في الصَّلاة ومناجاته.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧٢).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أدَّىٰ فريضته كما أُمر، مُكمِّلًا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرَّبِّ.

فينصرف من الصلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله، آثارًا تبدو علىٰ صفحاته ولسانه وجوارحه، ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلىٰ دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، وقلَّة التكالب والحرص علىٰ الدنيا وعاجلها، قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، وحبَّبتْ إليه لقاء الله، ونفَّرته من كلِّ قاطع يقطعه عن الله، فهو مغموم مهموم كأنَّه في سجن حتَّىٰ تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلىٰ نعيمه وسروره وقرَّة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلَّا بالصلاة».

ومن شهود المؤمنين لتوحيد الله شهود عدل الله وحكمته في قضائه الكوني، فإنَّه سبحانه العدل الذي لا يظلم، وهو الحكيم الذي لا يشاء إلَّا لحكمة، وليس الشرُّ إليه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

والمؤمنون ذريَّة آدم، «**عصىٰ آدم فعصت ذريَّته**»، وهم كلُّهم خطَّاؤون، وخير الخطَّائين التوابون، وشهدوا من توحيد الله عزَّه وغناه وعفوه ورحمته وحلمه، وإكرامه لعباده بتبديل سيِّئاتهم حسنات، وبترقية درجاتهم عنده سبحانه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّه تعالىٰ خلقهم للخيرات فهم لها عاملون، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلَّا به، ولا استحقوه إلَّا بما سبق لهم من

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٤٤٢، ٤٤٣).

(٢) طريق الهجرتين (١/ ٢٨٩ - ٢٩٢).

مشيئته وقَسْمه، فكذلك لا تضرُّهم الأدواءُ ولا السُّموم، بل متىٰ وسوس لهم العدوُّ، أو اغتالهم بشيء من كيده، أو مسَّهم بشيء من طيفه ﴿تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢]، وإذا واقعوا معصيةً صغيرةً أو كبيرةً عاد ذلك عليهم رحمةً، وانقلب في حقِّهم دواءً، وبُدِّل حسنةً بالتوبة النصوح، والحسنات الماحية؛ لأنَّه سبحانه عرَّفهم بنفسه وبفضله، وبأنَّ قلوبهم بيده وعصمتهم إليه، حيث نقض عزماتهم، وقد عزموا أن لا يعصوه، وأراهم عزَّته في قضائه، وبرَّه وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشهدهم حاجَتهم إليه وافتقارهم وذلَّهم، وأنَّه إن لم يَعْفُ عنهم ويغفر لهم؛ فليس لهم سبيل إلىٰ النجاة أبدًا.

فإنَّهم لمَّا أعطوا من أنفسهم العزم أن لا يعصوه، وعقدوا عليه قلوبهم، ثمَّ عصوه بمشيئته وقدرته؛ عرفوا بذلك عظيم اقتداره، وجميل ستره إيَّاهم، وكريم حلمه عنهم، وسعة مغفرته لهم، وبردَ عفوه وحنانه وعطفه ورأْفته، وأنَّه حليم ذو أناة لا يعجل، ورحيم سبقت رحمته غضبه، وأنَّهم متىٰ رجعوا بالتوبة إليه وجدوه غفورًا رحيمًا، حليمًا كريمًا، يغفر لهم السيِّئات، ويُقيلهم العثرات، ويودُّهم بعد التوبة ويحبُّهم.

فتضرَّعوا إليه حينئذ بالدُّعاء وتوسَّلُوا إليه بذل العبيد وعزِّ الربوبية، فتعرَّف سبحانه إليهم بحسن إجابته، وجميل عطفه، وحسن امتنانه في أن ألهمهم دعاءَه، ويسَّرهم للتوبة والإنابة، وأقبل بقلوبهم إليه بعد إعراضها عنه، ولم تمنعه

معاصيهم وجناياتهم من عطفه عليهم، وبرِّه لهم، وإحسانه إليهم، فتابَ عليهم قبل أن يتوبوا إليه، وأعطاهم قبل أن يسألوه.

فلمَّا تابوا إليه واستغفروه وأنابوا إليه، تعرَّف إليهم تعرُّفًا آخر: فعرَّفهم رحمته، وحسن عائدته، وسعةَ مغفرته، وكريمَ عفوه، وجميل صفحه، وبرَّه وامتنانه وكرمَه، وسعة مبادرته قبولَهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرود، وشدَّة النفور، والإيضاع في طرق معاصيه.

وأشهدهم مع ذلك حمدَه العظيم، وبرَّه العميم، وكرمَه في أن خلَّىٰ بينهم وبين المعصية، فنالوها بنعمته وإعانته، ثمَّ لم يُخلِّ بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد الذي لا يُرجىٰ معه صلاح، بل تداركهم بالدواء الشافي، فاستخرج منهم داءً لو استمرَّ معهم لأفضىٰ إلىٰ الهلاك.

ثم تداركهم بروح الرجاء، فقذفه في قلوبهم، وأخبر أنَّه عند ظنونهم به.

ولو أشهدهم عظيم الجناية وقبح المعصية، وغضبه ومقته علىٰ من عصاه فقط، لأورثهم ذلك المرض القاتل، أو الداء العضال من اليأْس من رَوحه، والقنوط من رحمته، وكان ذلك عين هلاكهم.

ولكن رحمهم قبل البلاء، وفي حشو البلاء، وبعد البلاء، وجعل تلك الآثار التي تُوجبها معصيته من المحن والبلاء والشدائد رحمةً لهم، وسببًا إلىٰ علوِّ درجاتهم ونيل الزلفىٰ والكرامة عنده، فأشهدهم بالجناية عزَّة الربوبية وذلَّ العبيد، ورقَّاهم بآثارها إلىٰ منازل قربه ونيل كرامته، فهم علىٰ كلِّ حال يربحون عليه، ويتقلَّبون في كرمه وإحسانه، فكلُّ قضاءٍ يقضيه للمؤمن فهو خير له، يسوقه

به إلىٰ كرامته وثوابه».

ومن شهود المؤمنين لتوحيد الله في حكمه وشرعه شهود حكمة الله وعلمه ورحمته بخلقه فيما شرع لهم من الأحكام، فهي رحمة بالخلق ويسر وحكمة وعبودية لله.

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] فالتخفيفات الشرعية في العبادات وغيرها بجميع أنواعها داخلة في هذا الأصل، مع ما يستدلُّ علىٰ هذا بما لله تعالىٰ من الأسماء والصفات المقتضية لذلك، كالحمد والحِكْمةِ، والرحمة الواسعة، واللطف والكرم والامتنان، فإنَّ آثار هذه الأسماء الجليلة الجميلة كما هي سابغة وافرة واسعة في المخلوقات والتدبيرات؛ فهي كذلك في الشرائع، بل أعظم؛ لأنَّها هي الغاية في الخلق، وهي الوسيلة العظمىٰ للسعادة الأبدية.

فالله تعالىٰ خلق المكلَّفين ليقوموا بعبوديَّته، وجعل عبوديتَهُ والقيام بشرعه طريقًا إلىٰ نيل رضاه وكرامته، كما قال تعالىٰ - بعدما شرع الطهارة بأنواعها -: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]. فظهرت آثار رحمته ونعمته في الشرعيَّات والمباحات، كما ظهرت في الموجودات، فله تعالىٰ أَتَمُّ الحَمْدِ

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٣٥، ٢٣٦).

وأعلاه، وأوفر الشكرِ والثناء وأغلاه، وغايةُ الحبِّ والتعظيم ومنتهاه».

وشهود توحيد الربوبية سبب لتوحيد العبودية لله، فمن شهد أنَّ هداية كلِّ مخلوق إلىٰ الله، وأنَّه يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم، وأنَّ الثبات علىٰ الاستقامة بيد الله، وأنَّه سبحانه هو الذي ييسِّر لعباده أسباب طاعته، كان ذلك سببًا في إقباله علىٰ الله بكلِّيته هداية واستعانة وعبودية.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في هذا المشهد يتحقَّق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، علمًا وحالًا، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبيَّة، ثم يرقىٰ منه صاعدًا إلىٰ توحيد الإلهية، فإنَّه إذا تيقَّن أنَّ الضرر والنفع، والعطاء والمنع، والهدىٰ والضلال، والسعادة والشقاء؛ كلُّ ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنَّه الذي يقلِّب القلوب، ويصرِّفها كيف يشاء، وأنَّه لا موفَّق إلَّا من وفَّقه وأعانه، ولا مخذول إلَّا من خذله وأهانه وتخلىٰ عنه، وأنَّ أصحَّ القلوب وأسلمها وأقومها، وأرقها وأصفاها، وأشدَّها وألينها؛ من اتخذه وحده إلهًا ومعبودًا، فكان أحبَّ إليه من كلِّ ما سواه، وأخوف عنده من كلِّ ما سواه، وأرجىٰ له من كلِّ ما سواه، فتتقدَّم محبَّته في قلبه جميع المحابِّ، فتنساق المحابُّ تبعًا لها كما ينساق الجيش تبعًا للسلطان، ويتقدَّم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف كلها تبعًا لخوفه، ويتقدَّم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعًا لرجائه.

فهذا علامة توحيد الإلهيَّة في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣١٨، ٣١٩).

الربوبية، أي: باب توحيد الإلهية هو توحيد الربوبية.

فإنَّ أوَّل ما يتعلَّق القلب يتعلَّق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلىٰ توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلىٰ النوع الآخر، ويحتجُّ عليهم به، ويقرِّرهم به، ثمَّ يخبر أنَّهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية».

وفي سورة الرحمن ذكر الله ربوبيته وآلاءه، وما خلق في السموات والأرض، وكُلَّما ذكر شيئًا أو نوعًا من ذلك قال سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

وذكر الله عَزَّوَجَلَّ منَّته ونعمته علىٰ خلقه بأجلِّ وأعظم النعم الموجبة لعبوديته وذِكْره وشُكْره، وهو العلم الذي به نعبد ربَّنا ونشكره ونهتدي به إلىٰ سلوك صراطه المستقيم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥].

قال العلَّامة أبو عبد الله محمَّد بن مسعود القابسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قالوا: وجه المناسبة بين الخلق من العلق والتعليم بالقلم وتعليم العلم؛ أنَّ أدنىٰ مراتب الإنسان كونه علقة، وأعلاها كونه عالمًا، فالله امتنَّ علىٰ الإنسان بنقله من أخسِّ المراتب وهي العلقية إلىٰ أشرف المراتب وهي العلم.

وفيه وجه آخر، وهو أنَّ الله تمدَّح بتعليم العلم عقب تمدحه بكونه الأكرم وذلك غاية الشرف والفضل».

---

(١) بلوغ أقصىٰ المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام (ص ٢٥٦).

وقد شهد الموحِّدون ربَّهم بديع السموات والأرض، خالقهن علىٰ غير مثال سابق في نظام محكم، سموات وأرضون عظيمة.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالىٰ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، هذا النظام الواسع الكبير العظيم لا يختلُّ، ولا يتغيَّر علىٰ مرِّ السنين والأعوام؛ فتدلُّ علىٰ قدرة باهرة بالغة، وحكمة عظيمة بالغة، كل شيء منظم تنظيمًا بديعًا متناسبًا، فلا يصطدم شيء بشيء فيفسده؛ ولا يغيِّر شيء شيئًا؛ بل كلٌّ سائر حسب ما أمره الله به؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]».

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين برؤية شواهد توحيده؛ ليزدادوا إيمانًا، ويستيقن المؤمنون من تفرُّد الله بصفات العظمة والكمال فيعبدوه تحقيقًا للتوحيد الذي شهدوه.

ومن شهد توحيد الله أقبل علىٰ الله، وداوم السير إليه يرجو لقاءه، وكان سيره بطمأنينة، لأنَّه شهد عدل الله في الدُّنيا، وتحقَّق بتوحيده لأسماء الله وصفاته، وأنَّ ثواب الله عدل وفضل، فلا يخاف المؤمن ظلمًا ولا هضمًا.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الحقُّ الذي هو غاية خلقها – المخلوقات – فهو غاية تُراد من العباد، وغاية تُراد بهم.

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٢٠).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٩٣، ١٥٩٤).

فالتي تُراد منهم: أن يعرفوا الله تعالىٰ، وصفات كماله عَزَّوَجَلَّ، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا، فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم، ومطاعهم ومحبوبهم، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، فأخبر أنَّه خلق العالم ليُعرِّف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربَّهم ويعبدوه وحده، وأمَّا الغاية المُرادةُ بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل، والثواب والعقاب، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٣، ٤].

فتأمَّل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما علىٰ الحقِّ أولًا وآخرًا ووسطًا، وأنَّها خُلقت بالحقِّ وللحقِّ، وشاهدة بالحقِّ».

والذي أوجب على الموحِّدين إفراد الله بالعبودية وحده لا شريك له؛ شهودهم ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، ليس له شريك في أفعاله، فمن لا شريك له في ربوبيَّته فهو الأحد وحده الذي يجب أن يتألَّهه المربوبون، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أمرهم بعبادة ربِّهم، وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي علىٰ وجوب عبادته؛ لأنَّه إذا كان ربُّنا الذي يُرَبِّينا بنعمه وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا، وكل ذرَّة من العبد فمملوكة له ملكًا خاصًّا حقيقيًّا، وقد ربَّاه بإحسانه إليه وإنعامه عليه، فعبادتُه له وشكره إيَّاه واجب عليه، ولهذا قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ولم يقل: إلهكم.

والرَّبُّ هو: السَّيِّدُ والمالك والمنعِمُ والمربِّي والمصلحُ، والله تعالىٰ هو الربُّ بهذه الاعتبارات كلِّها، فلا شيء أوجب في العقول والفِطر من عبادة من هذا شأنه، وحده لا شريك له».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الله هو الذي له جميع معاني الربوبية، التي يستحقُّ أن يؤله لأجلها، وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وأنَّه لا يُشارِك اللهَ أحدٌ في معنًىٰ من معاني الربوبية، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]؛ لا بشرَ ولا مَلَك، بل هم جميعًا عبيد مربوبون لربِّهم بكلِّ أنواع الربوبية، مقهورون

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٤٣).

(٢) القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص٢٠).

خاضعون لجلاله وعظمته، فلا ينبغي أن يكون أحد منهم ندًّا، ولا شريكًا لله في عبادته وإلهيته.

فبربوبيَّته سبحانه يربي الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم: خلقًا، ورزقًا، وتدبيرًا، وإحياءً، وإماتةً، وهم يشكرونه علىٰ ذلك بإخلاص العبادة كلِّها له وحده، فيؤلِّهونه ولا يتخذون من دونه وليًّا ولا شفيعًا.

فالإلهية حقٌّ له سبحانه علىٰ عباده بصفة ربوبيَّته».

وشهود التوحيد كان سببًا في إسلام الكافرين، فكان ذلك خطابًا لفطرتهم التي أدَّت بهم إلىٰ الإسلام، والإيمان بالله وعبوديَّته، فقد كان جبير بن مطعم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من جملة أُسارىٰ بدر، وكان حينها كافرًا، فسمع النبيَّ ﷺ في صلاة المغرب يقرأ بسورة الطور، وقرأ قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، قال: فكاد أن يتصدَّع قلبي. رواه البخاري.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «هذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلىٰ الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها علىٰ إثبات الصانع، وعلىٰ التوحيد، والمعاد، والنُّبُوَّات، فمرَّةً يخبرُ أنَّه لم يخلق خلقه باطلًا ولا عبثًا، ومرَّة يخبر أنَّه خلقهم بالحقِّ، ومرَّةً يخبرهم وينبِّههم علىٰ وجوه الاعتبار، والاستدلال بها علىٰ صدق ما أخبرت به رسله حتىٰ يُبيِّن لهم أنَّ الرسل إنَّما جاؤوهم بما يشاهدون أدلَّة صدقه وبما لو تأمَّلوه لرأوه مركوزًا في فطرهم، مستقرًّا في عقولهم، وأنَّ ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه من أسمائه وصفاته،

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٩١).

وتوحيده ولقائه، ووجود ملائكته، وهذا باب عظيمٌ من أبواب الإيمان، إنَّما يفتحه الله علىٰ من سبقت له منه سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يناله العبد في الدنيا».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من كان له نصيب من معرفة أَسمائه الحسنىٰ، واستقرىٰ آثارها في الخلق والأَمر، رأَىٰ الخلق والأَمر منتظمين بها أَكمل انتظام، ورأَىٰ سَريانَ آثارها فيهما، وعلم - بحسب معرفته - ما يليق بكماله وجلاله أَن يفعله، وما لا يليق، فاستدلَّ بأَسمائه علىٰ ما يفعله وما لا يفعله، فإِنَّه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته.

وكذلك يعلم ما يليق به أَن يأْمر به ويشرعه ممَّا لا يليق به، فيعلم أَنَّه لا يأْمر بخلاف موجب حمده وحكمته.

فإِذا رأَىٰ بعض الأَحكام جورًا وظلمًا أَو سفهًا وعبثًا ومفسدةً أَو ما لا يوجب حمدًا وثناءً؛ فليعلم أَنَّه ليس من أَحكامه ولا دينه، وأَنَّه بريء منه عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، فإِنَّه إِنَّما يأْمُر بالعدل لا بالظلم، وبالمصلحة لا بالمفسدة، وبالحكمة لا بالعبث والسفه.

وإِنَّما بعث رسوله ﷺ بالحنيفية السمحة، لا بالغلظة والشدَّة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإِنَّه أَرحم الرَّاحمين، ورسوله ﷺ رحمة مهداة إِلىٰ العالمين، ودينه كلُّه رحمة، وهو نبيُّ الرحمة، وأُمتُه الأُمة المرحومة، وذلك كلُّه موجب أَسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ وأَفَعاله الحميدة، فلا يُخبَر عنه إِلا بحمده، ولا يُثنىٰ عليه إِلا بأَحسن الثناءِ، كما لا يُسمَّىٰ إِلَّا بأَحسن الأَسماء».

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٢٧٥، ٢٧٦).

ومن شهود المؤمنين للتوحيد في الدنيا شهود شكر الله، فإنَّ المؤمنين شهدوا ربَّهم شكورًا، يجازي بالإحسان إحسانًا، ويشكر من عَبَدَهُ واهتدىٰ بهدي وحيه فيزيده هدًىٰ وتقوىٰ، ويشكر من أدَّىٰ حقوق نعمه ولم يكفرها، فيزيده منها، وكلُّ هذه بشارات للشكر الأخروي الذي لا ينقطع، وليس له نظير.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّه إذا أُطيع بما أمر به شكر عليه بالإمداد، والزيادة، والنعم، في: القلوب، والأبدان، والأموال، ووجد العبد زيادته وقوَّته في حاله كلها، وأنه إذا خولف أمره ونهيه، ترتَّب عليه من: النقص، والفساد، والضعف، والذُّلِّ، والمهانة، والحقارة، وضيق العيش، وتنكد الحياة ما ترتب، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمَر: ١٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وفُسِّرت المعيشة الضنك: بعذاب القبر، والصحيح: أنَّها في

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢٧).

الدنيا وفي البرزخ، فإنَّ من أعرض عن ذكره الذي أنزله، فله من: ضيق الصدر، ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدَّة الحرص، والتعب علىٰ الدنيا، والتحسُّر علىٰ فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك».

وشهود هذا النوع من التوحيد يحثُّ الموحِّدين علىٰ الازدياد من الخير والطاعات والثبات علىٰ التوحيد، فلا شيء أقرَّ لأعينهم من أداء حقِّ الله في توحيده، وتنعم أرواحهم وأبدانهم بذلك يسوقهم إلىٰ الخيرات بسبب ما يجدونه من أنواع المسرَّات في الدنيا، وما يرجونه ممَّا هو أعظم من ذلك في الآخرة، وآثار السيِّئات كلها زواجر لأولي الألباب عن مقارفتها وحثٌّ لاجتنابها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيبة، لذَّتها فوق لذَّة المعصية بأضعاف مضاعفة، لا نسبة لها إليها، وجعل للسيِّئات والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهة، وحزازات تربو علىٰ لذَّة تناولها بأضعاف مضاعفة، قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوَّةً في البدن، وزيادةً في الرزق، ومحبَّةً في قلوب الخلق، وإنَّ للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق.

وهذا يعرفه صاحب البصيرة، ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢٨).

وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيِّه ﷺ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيِّئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله؛ ولهذا قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ ولم يقل: [ما أصبت].

فكلُّ نقص وبلاء وشرٍّ في الدنيا والآخرة، فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الربِّ، فليس في العالم شرٌّ قط إلا الذنوب وموجباتها».

والذي أوجب عبودية الله وحده لا شريك له؛ هو كمال ذاته وأسمائه وصفاته، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «نعوت الباري تعالىٰ وصفاتُ عظمته وتوحُّده في الكمال المطلق أكبر برهان علىٰ أنه لا يستحقُّ العبادة إلَّا هو.

وكذلك صفات المخلوقات كلِّها، وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلىٰ ربِّها في كلِّ شؤونها، وأنَّه ليس لها من الكمال، إلَّا ما أعطاها ربُّها من أعظم البراهين علىٰ بطلان إلهية شيء منها.

فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه المعرفة إلىٰ عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، والثناء عليه، وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه،

---

(١) القول السَّديد شرح كتاب التوحيد (ص ٥٦، ٥٧).

وانصرف تعلُّقه بالمخلوقين خوفًا ورجاءً وطمعًا».

والملائكة أعظم مخلوقات الله تعالىٰ، تتضاءل عظمتها لعظمة الله، فتخضع له تعظيمًا وعبوديَّة وقنوتًا ورغبة ورهبة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا أيضًا برهان عظيم آخر علىٰ وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وهو ذكر النصوص الدالَّة علىٰ كبرياء الربِّ وعظمته التي تتضاءل وتضمحلُّ عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي، ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه، أو تتبدَّىٰ لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله، معترفة بعظمته ومجده، خاضعة له، خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الربُّ الذي لا يستحقُّ العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتألُّه إلَّا هو، ومن سواه ليس له من هذا الحقِّ شيء.

فكما أنَّ الكمال المطلق والكبرياء والعظمة ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره، فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلُّها حقُّه تعالىٰ الخاصُّ الذي لا يشاركه فيه مشارك بوجه».

والمخلوق الضعيف يختال بنقصه فينصب نفسه ندًّا لله، ومن أعظم أولئك النمروذ الذي حاجَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ربوبية الله.

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص ٦٠).

قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

والدنيا كلُّها خاضعة لعظمة الله، أرضها وسماؤها، شجرها وحجرها، ودوابُّها وجبالها، إلَّا من أشرك من بني آدم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ سجود كلِّ شيء بحسبه، ليس سجود هذه المخلوقات وضع جباهها علىٰ الأرض، وقد قال النبي ﷺ في حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لما غربت الشمس: «**إنَّها تذهب فتسجد تحت العرش**»، رواه البخاري ومسلم».

وفي يوم القيامة يظهر خضوع المخلوقين لله خضوعًا ليس له نظير، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

ويقبض الله يوم القيامة الأرضين والسموات ويهزُّهنَّ، ويقول: [أنا الملك، أين ملوك الدنيا؟]، وكلهم في قبضته وفي سلطانه ليس لهم من الملك شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (١/ ٢١٥).

وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق: ٩، ١٠]، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أخبر سبحانه عن حال الإنسان في يوم القيامة أنَّه غير مُمْتَنِع من عذاب الله؛ لا بقوَّةٍ منه، ولا بقوَّةٍ من خارجٍ - وهو «النَّاصر» -، فإنَّ العبد إذا وقع في شدَّةٍ: فإمَّا أن يَدْفَعَها بقوَّتِه، أو بقوَّةٍ من يَنْصُرُه، وكلاهما معدومٌ في حَقِّهِ، ونظيره قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]».

والمقصود من شهود التوحيد التألُّه لله وحده وعبوديته وحده لا شريك له، واجتناب الشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «العبد مع شهوده الربوبية العامَّة الشاملة للمؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر، عليه أن يشهد ألوهيته التي اختص بها عباده المؤمنين، الذين عبدوه وأطاعوا أمره، واتبعوا رسله.

قال تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

ومن لم يفرِّق بين أولياء الله وأعدائه، وبين ما أمر به وأحبَّه من الإيمان والأعمال الصالحة، وما كرهه ونهىٰ عنه وأبغضه: من الكفر والفسوق

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص ١٧٠، ١٧١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٦٧، ٥٦٨).

والعصيان مع شمول قدرته، ومشيئته، وخلقه لكلِّ شيء، وإلَّا وقع في دين المشركين، الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]».

وشهود المؤمنين أنَّ الحسنات من الله، وأنَّ السيِّئات بسبب من المخلوقين؛ هو الذي أوجب لهم شكر الله على الحسنات، والاستغفار من السيِّئات، قال الله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا تدبَّر العبد علم أنَّ ما هو فيه من الحسنات من فضل الله، فشكر الله، فزاده الله من فضله عملًا صالحًا، ونعمًا يفيضها عليه.

وإذا علم أنَّ الشرَّ لا يحصل له إلَّا من نفسه بذنوبه: استغفر وتاب، فزال عنه سبب الشرِّ.

فيكون العبد دائمًا شاكرًا مستغفرًا، فلا يزال الخير يتضاعف له، والشرُّ يندفع عنه. كما كان النبيُّ ﷺ يقول في خطبته: «**الحمد لله**»، فيشكر الله، ثم يقول: «**نستعينه ونستغفره**»، نستعينه على الطاعة، ونستغفره من المعصية. ثمَّ يقول: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا**» فيستعيذ الله من الشرِّ الذي في النفس، ومن عقوبة عمله.

فليس الشرُّ إلَّا من نفسه، ومن عمل نفسه. فيستعيذ الله من شرِّ النفس أن يعمل بسبب سيِّئاته الخطايا، ثمَّ إذا عمل استعاذ بالله من سيِّئات عمله، ومن

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٩٩٧).

عقوبات عمله، فاستعانه علىٰ الطاعة وأسبابها، واستعاذ به من المعصية وعقابها».

وشهود التوحيد يحفظ الإيمان ويجدِّده ويؤيِّده، ولو رمنا استقصاء ما في آيات الله الكونية والشرعية من الدلالة علىٰ التوحيد؛ فإنَّ ذلك يحتاج إلىٰ أسفار خاصَّة(١)، ولكن حسبي هنا أن أتناول بالتنبيه خمس آيات وردت في سياق ونسق واحد تدلُّ علىٰ عظمة الله ليشهد الحنفاء توحيد الله في كلِّ المخلوقات، خصوصًا أعظمها وأولاها بالتدبُّر: السموات والأرضون، والليل والنهار، والإنسان، وقد انتظمت هذه الآيات من سورة غافر أولىٰ المخلوقات دلالة علىٰ شهود التوحيد لتوقظ المؤمنين من الغفلة عن تدبُّر عظمة خالقها، وتزيد في يقين الموحِّدين الحنفاء، فتزيدهم عبودية لله.

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦١-٦٥].

وفي قول النبيِّ ﷺ: «يصبح علىٰ كلِّ سُلامىٰ صدقة»، تذكير للمؤمنين بحقِّ الله، وإيقاظ للبصائر والأفهام بشهود حقِّ الله وأدائه في كلِّ يوم.

---

(١) أبدع ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» ببيان شيء من ذلك.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ عبده نوعان من الحقوق لا ينفكُّ عنهما:

أحدهما: أمره ونهيه، الذي هو محض حقِّه عليه.

والثاني: شكر نعمه، التي أنعم بها عليه.

فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يُشهده تقصيره وتفريطه، وأنَّه محتاج إلىٰ عفو الله ومغفرته، فإن لم يتداركه بذلك هلك.

وكلَّما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتمَّ، وشهوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرَّد ترك المحرَّمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله.

وأكثر الديَّانين لا يعبئون منها إلَّا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأمَّا الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ وعباده ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه؛ فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم، فضلًا عن أن يريدوا فعلها، وفضلًا عن أن يفعلوها».

وشهد الموحِّدون ربَّهم قائمًا علىٰ كلِّ نفس، قهرًا وتدبيرًا وهداية ورزقًا، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مشهد التوحيد: وهو أن يشهد انفراد الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ

---

(١) عدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص ٢٨٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣١٨).

بالخلق والحكم، وأنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه لا تتحرَّك ذرَّة إلَّا بإذنه، وأنَّ الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنَّه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، فالقلوب بيده، وهو مقلِّبها ومصرِّفها كيف شاء، وكيف أراد، وأنَّه هو الذي آتىٰ نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذي هداها وزكَّاها، وألهم نفوس الفجَّار فجورها وأشقاها، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته، هذا فضله وعطاؤه، وما فضل الكريم بممنون، وهذا عدله وقضاؤه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]».

واليهود غضب الله عليهم ولعنهم، ضلال اعتقادهم النقص في الله جعلهم يصفون الله الكامل بنقص يشاهد كلُّ الخليقة - ومن جملتهم أنفسهم - كذبه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّه تعالىٰ قد بسط فضله وإحسانه الديني والدنيوي، وأمر العباد أن يتعرَّضوا لنفحات جوده، وأن لا يسدُّوا علىٰ أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم.

فيداه سحَّاء الليل والنهار، وخيره في جميع الأوقات مدرار، يفرج كربًا، ويزيل غمًّا، ويغني فقيرًا، ويفك أسيرًا، ويجبر كسيرًا، ويجيب سائلًا، ويعطي

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص ٢٤٠).

فقيرًا عائلًا، ويجيب المضطرين، ويستجيب للسائلين، ويُنعم علىٰ مَنْ لم يسأله، ويعافي من طلب العافية، ولا يحرم من خيره عاصيًا، بل خيره يرتع فيه البَرُّ والفاجر، ويجود علىٰ أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال ثم يحمدهم عليها، ويضيفها إليهم، وهي من جوده، ويثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركه الوصف، ولا يخطر علىٰ بال العبد، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويُوصل إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه.

فسبحان من كلُّ النعم التي بالعباد فمنه، وإليه يجأرون في دفع المكاره، وتبارك مَنْ لا يحصي أحد ثناءً عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وتعالىٰ مَنْ لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل لا وجود لهم ولا بقاء إلَّا بجوده».



الاهتمام والشفقة للمسلمين

رأىٰ النبيُّ ﷺ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في السماء السابعة حين عُرِج به، وأبان أبونا إبراهيم عن اهتمامه بذريته وشفقته علىٰ أمَّة الإسلام حيث أوصىٰ نبيَّنا ﷺ بإقراء السلام لأمَّته، ودلَّنا علىٰ أسباب الفوز بالجنَّة،

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : «**لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد! أقرئ أمَّتك منِّي السَّلام، وأخبرهم أنَّ الجنَّة طيِّبة التُّربة، عذبة الماء، وأنَّها قيعان، وأنَّ غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»، رواه التِّرمذي وقال: حديث حسن.

ومن شفقة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بذرية إسماعيل دعاؤه الله أن يجعل ذريَّته أمة مسلمة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «تضرَّعا إلىٰ ربِّهم في قبول الله عملهما، وأن يكون كاملًا من كلِّ وجه، وتحصل منه الثَّمرات النَّافعة، وتوسَّلا إليه بأنَّه السميع لأقوالهما، العليم بجميع أحوالهما، ولما دعوا بهذا الدُّعاء الخاصِّ في قبول عملهما، سألا الله أجلَّ الأمور وأعلاها، وهو أن يمنَّ الله

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٨٧).

عليهما، وعلىٰ من شاء من ذرِّيَّتهما، بالإسلام لله - ظاهرًا وباطنًا -، والعمل بما يحبُّه ويرضاه، وأن يعلِّمهما العمل الذي شرعا فيه، ويكمِّل لهما مناسكهما - علمًا ومعرفة وعملًا -، وأن يتوب عليهما لتتمَّ أمورهما من كل وجه، فاستجاب الله هذا الدُّعاء كلِّه، وبارك فيه وحقَّق رجاءهما، والله ذو الفضل العظيم».

ومن شفقة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأمَّة الإسلام دعاؤه الله أن يبعث في ذريَّة إسماعيل من أهل مكة نبيًّا رسولًا يُوحىٰ إليه، فيعلِّم الناس القرآن والحكمة.

قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ومن اهتمام إبراهيم - عليه أفضل الصلاة وأتمُّ السَّلام - بالمسلمين، ورأفته بهم وشفقته لهم، ورحمته بهم؛ سؤاله الله الأمن والرزق لأهل مكَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من فوائد الآية: رأفة إبراهيم ﷺ بمن يؤم هذا البيت؛ لأن جعل البيت آمنًا يتضمَّن الإرفاق بمن أمَّه من النَّاس، ومنها رأفة إبراهيم ﷺ أيضًا، حيث سأل الله أن يرزق أهله من الثمرات؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾».

وقد اهتدىٰ النبيُّ ﷺ بشفقة إبراهيم - عليه أفضل الصلاة والسلام - علىٰ أمَّته؛ فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٥٥).

أنَّ النبيَّ ﷺ تلا قولَ الله عَزَّوَجَلَّ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «**اللهمَّ أمَّتي أمتي**»، قال الله: «**يا جبريل، اذهبْ إلىٰ محمَّد - وربك أعلم - فسَلْهُ ما يبكيك؟**» فأتاه جبريل، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: **يا جبريل! اذهبْ إلىٰ محمَّد، فقل: إنا سنرضيك في أمتِك، ولا نَسُوءُك فيهم.**

ومن أخصِّ ما امتدح الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ هو شفقته بأمَّته، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].



الدعوة إلى التوحيد

سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أخصُّ وأفضل أنواع عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ هو دعوته للتوحيد، وهكذا النبيون جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «"لَا إِلَه إِلَّا الله"، وَبِذَلِك بُعث جَمِيع الرُّسُل – عليهم الصلاة والسلام –، قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وَجَمِيع الرُّسُل افتتحوا دعوتهم بِهَذَا الأَصْل، كَمَا قَالَ نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وَكَذَلِكَ هود وَصَالح وَشُعَيْب – عَلَيْهِم السَّلَام – وَغَيرهم كلٌّ يَقُول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] لَا سِيَّمَا أفضلَا الرُّسُل اللذَيْن اتخذ الله كليهما خَلِيلًا، إِبْرَاهِيم ومحمد – صلىٰ الله عليهما وسلَّم تسليمًا –، فَإِن هَذَا الأَصْل بَيَّنه الله بهما، وأيدهما فِيهِ، ونشره بهما.

فإبراهيم – صلوات الله عليه – هُوَ الإِمَام الَّذِي قَالَ الله فِيهِ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وَفِي ذُرِّيَّته جعل الله النُّبُوَّة وَالْكتاب وَالرسل بعده، فَأهل

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبيَّة (ص ٣٧٨، ٣٨٠).

هَذِه النُّبُوَّة والرسالة هم من آله الَّذين بَارك الله عَلَيْهِم، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٢٧، ٢٨]، فَهَذِهِ الْكَلِمَة هِيَ كلمة الْإِخْلَاص لله تعالىٰ، وَهِي الْبَرَاءَة من كل معبود إِلَّا من الْخَالِق الَّذِي فطرنا».

وقد قام خاتم الأنبياء وسيد الحنفاء الخليل محمد ﷺ بالتَّجديد لدعوة التَّوحيد، ونصر الله به الدِّين.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «نبيُّنا ﷺ هو الذي أقام الله به الدين الخالص لله، دين التوحيد، وقمع به أصناف المشركين، ممَّن كان مشركًا في الأصل، ومن الذين كفروا من أهل الكتاب».

وقصَّ الله علينا في القرآن نبأ إبراهيم؛ لنأخذ بمنهجه في الدَّعوة إلىٰ التَّوحيد، وهكذا نأخذ بمنهج جميع الأنبياء؛ فإنَّ دعوتهم واحدة، وهي توحيد الله وعبادته.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ في قصصهم تقرير الإيمان بالله، وتوحيده، وإخلاص العمل له، والإيمان باليوم الآخر، وبيان حسن التوحيد ووجوبه، وقبح الشرك، وأنَّه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة.

وفي قصصهم أيضًا عبرة للمؤمنين، يقتدون بهم في جميع مقامات الدين؛ في مقام التوحيد، والقيام بالعبودية، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التامِّ، وفي مقام

(١) التحفة العراقية (ص ٣٨١).

(٢) تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص ١٩٦، ١٩٧).

الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات، واحتساب الأجر والثواب من الله تعالىٰ، لا يطلبون من الخلق أجرًا، ولا جزاءً ولا شكورًا، إلَّا الأمور النافعة للخلق.

وفيها أيضًا عبرة لاتفاقهم علىٰ دين واحد، وأصول واحدة، ودعوة إلىٰ كلِّ خُلق جميل، وعمل صالح وإصلاح، وزجرهم عن كلِّ ما يضادُّ ذلك».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الرسل من أوَّلهم إلىٰ خاتمهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أُرسلوا بالدعوة إلىٰ الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه، فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كلِّ ملَّة، علىٰ لسان كلِّ رسول».

والدعوة إلىٰ التوحيد والإسلام هو ما بُعث به النبيُّون والمرسلون جميعًا، وهو ما يقوم به ورثة الأنبياء، وهي دعوةٌ إلىٰ سعادة الدارين، والفوز بالجنَّة والنجاة من النَّار.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ أي مبشِّرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٩٦، ١٩٧).

النقمات والعقوبات؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: فمن آمن قلبه بما جاءوا به، وأصلح عمله باتباعه إيَّاهم، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: بالنسبة لما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ أي: بالنسبة إلىٰ ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليُّهم فيما خلَّفوه، وحافظهم فيما تركوه.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرماته».





الاستعانة بالله

قال الخليل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

وهذا شأن المؤمنين الحنفاء، قلوبهم متوجِّهة إلىٰ باريها وفاطرها وهاديها، تسأله الزيادة من الهدىٰ والتثبيت علىٰ الإسلام والخير، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يجب علىٰ المؤمن أن يستعين بالله، ويتوكَّل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه، ويثبِّته علىٰ الهدىٰ، والتقوىٰ، ولا يتبع الهوىٰ».

وضرورة كلِّ مسلم إلىٰ الاستعانة بالله في هدايته لا ينفكُّ عنها أحد؛ لذلك أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم في كلِّ ركعة من كلِّ صلاة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «كلَّما ازدادتْ معرفة الإنسان بالنفوس ولوازمها وتقلُّب القلوب، وبما عليها من الحقوق لله ولعباده، وبما حدَّ لهم من الحدود؛ عَلِمَ أنَّه لا يخلو أحد من ترك بعض الحقوق وتعدِّي بعض الحدود؛ ولهذا أمر الله عباده المؤمنين أن يسألوه أن يهديهم الصراط المستقيم في اليوم والليلة في المكتوبة وحدها سبع عشرة مرة، وهو صراط الذين أنعم عليهم من

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٧٩).

(٢) جامع المسائل، المجموعة الرابعة (ص ٤٦).

النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، ومن يطع الله ورسوله فهم هؤلاء».

وحاجة الناس إلىٰ هداية الله فوق كلِّ حاجةٍ وضرورةٍ، ومن أقبل علىٰ الله واستهدىٰ الله هداه الله، إذا أتىٰ بأسباب ذلك، قال تعالىٰ في الحديث القدسي: «**فاستهدوني أهدكم**»، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧]، فمن أقبل علىٰ الله أقبل الله عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كلَّما كان الناس إلىٰ الشيء أحوج كان الرَّبُّ به أجود».

والنبيُّ ﷺ علَّم أمَّته الاستعانة بالله، نصيحة لهم، ودلالة لهم علىٰ الخير، فقال لابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هو الذي يُتوكل عليه، ويُستعان به، ويُستغاث به، ويُخاف ويُرجىٰ، ويُعبد، وتنيب القلوب إليه، لا حول ولا قوة إلَّا به، ولا ملجأ منه إلا إليه، والقرآن كلُّه يحقِّق هذا الأصل».

فالاستعانة بالله مقام يستصحبه العبد في سيره إلىٰ الله، لا ينفكُّ لحظة عن الحاجة إلىٰ هداية الله وحفظه ونصره وشكره واستغفاره.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله: «**الحمد لله، نستعينه، ونستغفره**»؛ يتناول الشكرَ، والاستعانة، والاستغفار.

---

(١) النبوات (٢/ ٦٨٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٥٥).

(٣) جامع المسائل، المجموعة الرابعة (ص ٤٨، ٤٩).

الحمد لله، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، كما كان بعض المشايخ يقرن بين هذه الثلاثة؛ فالشكر يتناول ما مضىٰ من إحسانه، والاستغفار ما تقدَّم من إساءة العبد، والاستعانة لما يستقبله العبد من أموره.

وهذه الثلاث لابدَّ لكلِّ عبد منها دائمًا، فمن قَصَّرَ في واحد منها فقد ظلم لنفسه بحسب التقصير».

والله عَزَّوَجَلَّ من استعان به بصِدْق أعانه، قال النبيُّ ﷺ لابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**احفظ الله تجده تجاهك**»، وقال النبيُّ ﷺ في الصحابي: «**أقبل علىٰ الله فأقبل الله عليه**»، ووجد المؤمنون تحقيق ذلك في إقبالهم علىٰ الله، وهو من تصديقهم لكلمات ربِّهم حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «الله سبحانه قد أنعم علىٰ المؤمنين بالإعانة والهداية؛ فإنَّه بيَّن لهم هُداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأعانهم علىٰ اتِّباع ذلك علمًا وعملًا، كما منَّ عليهم وعلىٰ سائر الخلق بأن خلقهم ورزقهم وعافاهم، ومنَّ علىٰ أكثر الخلق بأن عرَّفهم ربوبيَّته وحاجتهم إليه، وأعطاهم سؤالهم وأجاب دعاءهم، قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فكلُّ أهل السموات والأرض يسأله».

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠].

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٥٢٠، ٥٢١).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلِّها، وأسبابها، وللشرور كلِّها وأسبابها».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الاعتصام به نوعان:

اعتصام توكُّل، واستعانة، وتفويض، ولجء، وعياذ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصام بوحيه، وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم، فمن لم يكن كذلك فهو منسلٌّ من هذا الاعتصام.

فالدين كلُّه في الاعتصام به وبحبله، علمًا وعملًا، وإخلاصًا واستعانة، ومتابعة، واستمرارًا علىٰ ذلك إلىٰ يوم القيامة».

ومن أوكد ما يجب الاعتصام بالله منه؛ النفس والشيطان، فمن غفل عن عداوتهما وتسببهما في أنواع المعاصي والذنوب، وضعف عن الاعتصام بالله من

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص ٩٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٥٢).

شرورهما؛ أوقعاه فيما لا يجوز.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبدًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، أي: متىٰ اعتصمتم به تولاكم، ونصركم علىٰ أنفسكم، وعلىٰ الشيطان، وهما العدوَّان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضرُّ من عداوة العدوِّ الخارج، فالنصر علىٰ هذا العدوِّ أهمُّ، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة علىٰ العدوِّ بحسب كمال الاعتصام بالله».

وإذا تدبَّر المسلم قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، علم أنَّه يعبد الله بإعانته، فهو المستعان في عبادته وأداء الأمور الدينية وطلب حصول الأمور الدنيوية.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لَا تصحُّ الْعِبَادَة لله، وَطَاعَة أمره بِدُونِ التَّوَكُّل عَلَيْهِ، كَمَا أَنَّ التَّوَكُّل عَلَيْهِ لَا يَصحُّ بِدُونِ عِبَادَته وطاعته.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩].

و(الْمَقْصُود) أَنَّ امْتِثَال الْأَمر علىٰ الْإِطْلَاق لَا يَصحُّ بِدُونِ التَّوَكُّل والاستعانة.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٤١).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٦٧٨).

وَمن كَانَ واثقًا بِالله أَن يجلب لَهُ مَا يَنْفَعهُ وَيدْفَع عَنهُ مَا يضرُّهُ؛ أمكن أَن يدع هَوَاهُ ويطيع أمر مَوْلَاهُ، وَإِلَّا فنفسه لَا تَدعه يتْرك مَا يَقُول إِنَّه مُحْتَاج فِيهِ إِلَىٰ غَيره».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الله تعالىٰ يُجير ولا يجار عليه، وهو حسْبُ من توكَّل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمِّنُ خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نِعْمَ المولىٰ ونِعْمَ النصير، فمن تولَّاه، واستنصر به، وتوكَّل عليه، وانقطع بكلِّيته إليه؛ تولَّاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتَّقاه آمَنَهُ من كل ما يخاف ويحذر، وجلب إليه كلَّ ما يحتاج إليه من المنافع، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته؛ فإنَّ الله تعالىٰ بالغ أمره، وقد جعل الله لكلِّ شيء قدرًا لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأَخَّرُ».

والمحقِّقون للتوحيد قلوبهم تتألَّه بالاستعانة بالله رغبة ورهبة ورجاءً؛ لأنهم موقنون بكفاية ربهم، ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٧].

والاستعانة بالله توحيد، وهي من أسباب أداء الطاعات وفعل الخيرات، وتنفي العجب والرياء، فهي توحيد، وهي من عبودية الله بالتوكُّل عليه، ومن استعان بالله أعانه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة: ١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «طائفة أخرىٰ قد يقصدون طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، لكن لا يحقِّقون التوكُّل عليه والاستعانة به.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٦٣).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٥٩٩، ٦٠٠).

فهؤلاء يثابون علىٰ حسن نيَّتهم، وعلىٰ طاعتهم، لكنَّهم مخذُولون فيما يقصدونه، إذ لم يحقِّقوا الاستعانة بالله والتوكُّل عليه؛ ولهذا يبتلىٰ الواحد من هؤلاء بالضعف والعجز تارةً، وبالإعجاب أخرىٰ، فإن لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه، وربَّما حصل له جزع، وإن حصل مراده نظر إلىٰ نفسه وقوَّته فحصل له إعجاب، وقد يُعجب بحاله فيظنُّ حصول مراده، فيُخذل.

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

وكثيرًا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب، فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقِّق معنىٰ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والمعجب لا يحقِّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فمن حقَّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء، ومن حقَّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب».

عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** كان النبيُّ ﷺ يُعوِّذ الحسن والحسين – عليهما السلام –، ويقول: «**إنَّ أباكما كان يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التَّامَّة، من كل شيطان وهامَّةٍ، ومن كُلِّ عَيْن لامَّةٍ**»(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (ص ٥٦٥ – رقم ٣٣٧١).



خصال الخير

خصال الخير هي ما أمر الله به خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونهاه عنه من الأوامر والنواهي وما قدَّره عليه من الابتلاء في الدعوة للتوحيد، وما أوجبه عليه من التصديق لخبره والانقياد لأمره، وهي الكلمات التي ابتلاه الله بها، وقام بها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ أحسن ما يكون.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال العلَّامة أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «﴿فَأَتَمَّهُنَّ ۖ﴾؛ أي: فأداهن به تامَّة، قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ما أتىٰ أحد بسهام الإسلام كما أتىٰ بها الخليل إبراهيم - صلوات الله عليه -».

ولعلَّ هذا السبب الذي يُكرمه الله به يوم القيامة، فيكون أوَّل من يُكسىٰ من حلل الجنة.

وملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي الإسلام لله عَزَّوَجَلَّ، وهو الإتيان بخصال الخير كلِّها، وذلك أمر الله لعباده جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

---

(١) تفسير القرآن (١/ ١٣٥).

قال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «السلم: الانقياد، والمراد به: الإسلام هاهنا.

وقال الأزهري أيضًا: معناه: ادخلوا في الإسلام وشرائعه كافَّة».

وحقيقة الحنيفية هي الإقبال علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وعبوديَّته بما شرع.

والمؤمنون - وأوَّلهم الرسل، عليهم الصَّلاة والسَّلام - مسارعون في الخيرات؛ لأن ذلك حقيقة الدين، قال تعالىٰ ممتدحًا صفوة خلقه من رسله وأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام -: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لا تجد المؤمن أبدًا إلَّا راغبًا راهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلَّا علىٰ ساق الصبر؛ فرهبته تحمله علىٰ الصبر، ورغبته تقوده إلىٰ الشكر».

والنبيُّون جميعًا - عليهم الصلاة والسلام - مسارعون في الخيرات كلِّها، وإن كان أولو العزم منهم في ذلك أمكن.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «العزم الذي يمدح الله به خيار خَلْقه، هو قوَّة الإرادة، وجزمها علىٰ الاستمرار علىٰ أمر الله، والهمَّة التي لا تني، ولا تفتر في طلب رضوان الله، وحسن معاملته، وتوطين

---

(١) تفسير القرآن (١/ ٢٠٩).

(٢) عُدَّةُ الصَّابرين وذخيرةُ الشَّاكرين (ص ٢٠٨).

(٣) المواهب الرَّبَّانيَّة من الآيات القرآنية (ص ٦١).

النَّفس علىٰ عدم التَّقصير في شيء من حقوق الله».

والنبيُّ ﷺ جمع الخير كلَّه لأمَّته في هدايتهم لأسباب فعل الخيرات، فقد حثَّهم علىٰ الأمور النافعة، وأمرهم بالاستعانة بالله علىٰ فعلها، وحذَّرهم من العجز عن فعل النافع بالتفريط والتواني، وهذا كلُّه حثٌّ علىٰ طلب العلم النافع الدالّ علىٰ العمل الصَّالح الذي شرعه الله، وأمر بالعزم علىٰ فعله بالاستعانة بالله.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: عن النبيِّ ﷺ قال: «**المؤمن القوي خير وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أنِّي فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان**»، رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أَمر النَّبِيُّ ﷺ بحرص العَبْد علىٰ مَا يَنْفَعهُ، والاستعانة بِالله، وَنَهَاهُ عَن الْعَجز، وأنفع مَا للْعَبد طَاعَة الله عَزَّوَجَلَّ وَرَسُوله ﷺ، وَهِي عبَادَة الله تَعَالَىٰ، وَهَذَانِ الأصلان هما حَقِيقَة قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وَنَهَاهُ عَن الْعَجز، وَهُوَ الإضاعة والتفريط والتواني، كَمَا قَالَ فِي الحَدِيث الآخر: «**الْكيِّس من دَان نَفسه، وَعمل لما بعد الْمَوْت، وَالْعَاجِز من أتبع نَفسه هَواهَا، وَتمنىٰ علىٰ الله الْأَمَانِي**»، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَفِي «سنَن أبي دَاوُد»: أَنَّ رجلَيْنِ تحاكما إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقضىٰ علىٰ أَحدهمَا، فَقَالَ الْمقْضِي عَلَيْهِ: حسبي الله وَنعم الْوَكِيل. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الله يلوم علىٰ الْعَجز، وَلَكِن عَلَيْك بالكيْس، فَإِذا غلبك أَمر فَقل: حسبي الله وَنعم**

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٦٨٩).

الْوَكِيل»، فالكيس ضدُّ الْعَجز».

وخصال الخير هي شعب الإيمان وأعمال البِرِّ، وهي حقيقة التوحيد وبرهان وجوده، والمسارعة إلىٰ فعل الخيرات والطاعات هو من أسباب حفظ الأصل وتنميته وتزكيته.



الدعوة إلى التوحيد

بالعلم النافع

الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وسادات الحنفاء من الأنبياء دعوا إلىٰ الله علىٰ بصيرة بالعلم النَّافع، وبالحكمة، وبالدَّعوة إلىٰ التَّوحيد، وبالصَّبر علىٰ دعوة التَّوحيد، وهكذا خاتم الأنبياء والمرسلين، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهدىٰ الله بتجديد الخليل محمد ﷺ ملَّة إبراهيم أممًا من الشِّرك إلىٰ التَّوحيد، وأذهب به الجاهليَّة، وأظهر به الدِّين، وأعتق رقاب الموحِّدين من النَّار.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ النبيَّ ﷺ هو وسائر المؤمنين لا يُخبرون إلَّا بحقٍّ ولا يأمرون إلَّا بعدل؛ فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد، لا يأمرون بالفواحش، ولا الظلم، ولا الشرك، ولا القول بغير علم.

فهُم بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها. فلا يأمرون إلَّا بما يُوافق المعروف في العقول، الذي تتلقَّاه القلوب السليمة بالقبول.

فكما أنَّهم هم لا يختلفون؛ فلا يُناقض بعضهم بعضًا، بل دينهم وملَّتهم واحد، وإن تنوَّعت الشرائع، فهم أيضًا موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله

(١) النبوات (٢/ ١٠٩٠، ١٠٩١).

عليها عباده، موافقون للأدلَّة العقلية لا يُناقضونها قطُّ. بل الأدلَّة العقليَّة الصحيحة كلُّها توافق الأنبياء لا تُخالفهم».

وقال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ جميع الرسل من نوح إلىٰ محمَّد – صلىٰ الله عليهم وسلم – متَّفقون علىٰ الدعوة إلىٰ التوحيد الخالص، والنهي عن الشرك، فنوح وغيره أوَّل ما يقولون لقومهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة.

ومنها: آداب الدعوة وتمامها؛ فإنَّ نوحًا دعا قومه ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجِهَارًا، بكلِّ وقت وبكلِّ حالة يظنُّ فيها نجاح الدعوة، وأنَّه رغَّبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب، وبالتمتيع بالأموال والبنين، وإدرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل؛ وحذَّرهم من ضدِّ ذلك، وصبر علىٰ هذا صبرًا عظيمًا كغيره من الرسل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشَّفقة، وبكلِّ لفظٍ جاذب للقلوب محصِّل للمطلوب، وأقام الآيات، وبيَّن البراهين».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الدَّاعي إلىٰ الله، وإلىٰ دينه، له طريق ووسيلة إلىٰ مقصوده.

وله مقصودان:

فطريقة الدَّعوة بالحقِّ إلىٰ الحقِّ للحقِّ، فإذا اجتمعت هذه الثَّلاثة، بأن: كان يدعو بالحقِّ أي: بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن،

---

(١) تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص ٢١٢، ٢١٣).

(٢) المواهب الرَّبانية من الآيات القرآنية (ص٥٤، ٥٥).

وكان يدعو إلىٰ الحقِّ؛ وهو سبيل الله تعالىٰ، وصراطه الموصل لسالكه إلىٰ كرامته، وكان دعوته للحقِّ، أي: مخلصًا لله تعالىٰ، قاصدًا بذلك وجهَ الله؛ حصل له أحد المقصودين - لا محالة -، وهو ثواب الدَّاعين إلىٰ الله، وأجر ورثة الرُّسل بحسب ما قام به من ذلك.

وأمَّا المقصود الآخر، وهو: حصول هداية الخلق، وسلوكهم لسبيل الله الذي دعاهم إليه؛ فهذا قد يحصل وقد لا يحصل، فليجتهد الدَّاعي في تكميل الدعوة كما تقدَّم، وليستبشر بحصول الأجر والثَّواب، وإذا لم يحصل المقصود الثاني - وهو هداية الخلق -، أو حصل منهم معارضة، أو أذيَّة له بالقول أو بالفعل؛ فليصبر ويحتسب، ولا يوجب له ذلك ترك ما ينفعه، وهو القيام بالدَّعوة علىٰ وجه الكمال، ولا يضيق صدره بذلك؛ فتضعف نفسه، وتحضره الحسرات، بل يقوم بجدٍّ واجتهاد، ولو حصل ما حصل من معارضة العباد.

وهذا المعنىٰ تضمنَّه إرشادُ الله بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، فأمره بالقيام به بجدٍّ واجتهاد، مكمِّلًا لذلك، غير تارك لشيء منه، ولا حرج صدره لأذيَّتهم، وهذه وظيفته التي يُطالَب بها؛ فعليه أن يقوم بها، وأمَّا هداية العباد ومجازاتهم، فذلك إلىٰ الله الذي هو علىٰ كلِّ شيء وكيل».

❁ ❁ ❁

عبودية الله بالقلب السليم

القلب السليم هو الذي تألَّه لله وحده لا شريك له، وسلم من التألُّه لهوىٰ النفس والشيطان، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «فمن جعل ما يألهه هو ما يهواه فقد ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]؛ أي: جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه، فهم يتَّخذون ﴿أَندَادًا﴾ من دون الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولهذا قال الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

فإنَّ قومه لم يكونوا منكرين للصَّانع، ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنُّه نافعًا له، كالشمس، والقمر، والكواكب.

والخليل بيَّن أنَّ الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب، فلا يرىٰ عابده، ولا يسمع كلامه، ولا يعلم حاله، ولا ينفعه ولا يضرُّه بتسبُّب ولا غيره، فأيُّ وجه لعبادة من يأفل؟!».

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٥٨٤).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «القلب السليم، وهو النقي من الغِلِّ والدَّغل، والعيب، وحقيقته: الذي قد سلم لله تعالىٰ وحده، فخلص من دغل الشرك وغِلِّه، ودغل الذنوب والمخالفات، بل هو المستقيم علىٰ صدق حبِّه، وحسن معاملته؛ فهذا هو الذي ضَمِن – الله – له النجاة من عذابه والفوز بكرامته، ومنه أُخذ الإسلام؛ فإنَّه من هذه المادَّة؛ لأنَّه الاستسلام والانقياد لله، والتخلُّص من شوائب الشرك، فسَلِم لربِّه وخَلَص له».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حكم الله الشرعي[٢]: «هذا حقُّه أَن يُتلقَّىٰ بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة، فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرىٰ إِلىٰ خلافه سبيلًا البتة، وإِنَّما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول.

فإذا تلقىٰ بهذا التسليم والمسالمة إقرارًا وتصديقًا؛ بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إِرادةً وتنفيذًا وعملًا، فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له شبهة تعارضُ إيمانه به وإِقراره.

وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحقَّ وشهوة تعارض الأَمر، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتَّبعون الشهوات، ولا خاض في الباطن خوض الذين يتَّبعون الشبهات، بل اندرج خلاقُه تحت الأَمر، واضمحلَّ خوضه في معرفته بالحقِّ، فاطمأنَّ إِلىٰ الله معرفةً به ومحبَّةً له، وعلمًا

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٠٠).

(٢) طريق الهجرتين (١/ ٧٤، ٧٥).

بأَمره، وإِرادةً لمرضاته».

وتقديم حكم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ حكم كلِّ مخلوق من الأمراء والعلماء هو من توحيد الله وتعظيمه والتألُّه له سبحانه وحده لا شريك له.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الربَّ والإله هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وهو الذي يؤلَّه ويُعبَد وحده لا شريك له، ويُطاع طاعةً مطلقة، فلا يُعصىٰ، بحيث تكون الطاعات كلُّها تبعًا لطاعته، فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء علىٰ هذا الوجه، وجعل طاعتهم هي الأصل، وطاعة الله ورسوله تبعًا لها؛ فقد اتَّخذهم أربابًا من دون الله يتألَّههم ويتحاكم إليهم، ويقدِّم حكمهم علىٰ حكم الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، فهذا هو الكفر بعينه؛ فإنَّ الحكم كلَّه لله، كما أنَّ العبادة كلَّها لله.

والواجب علىٰ كلِّ أحد أن لا يتخذ غير الله حكمًا، وأن يردَّ ما تنازع فيه الناس إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وبذلك يكون دين العبد كلُّه لله، وتوحيده خالصًا لوجه الله».

القلب السليم هو الذي فرح بالله وبوحيه وبالإسلام والقرآن، وأقام شُعب الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ومادة زيادة الفرح بالله وقوَّته: دوام الذكر لله، وصدق المحبَّة له، وإحسان

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص ١١٨).

العمل[١].

والله يجازي بالإحسان إحسانًا، فمن فرح بالله أذاقه الله نعيم ذلك سرورًا وانشراح صدر يزيد من إيمانه بالله، ويجعله مطمئنًا في دوام سيره إلىٰ الله حتىٰ يوافيه وهو راضٍ عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الله يعجِّل للمؤمنين من الرحمة في قلوبهم، وغيرها بما يجدونه من حلاوة الإيمان ويذوقونه من طعمه، وانشراح صدورهم للإسلام، إلىٰ غير ذلك من السرور بالإيمان، والعلم والعمل الصالح، بما لا يمكن وصفه».

القلب السليم هو الذي امتلأ من نور الوحي، وتغذَّىٰ بحقائقه، واستنار بعلومه، واستغنىٰ به عن كلِّ ضلال وشبهة وعلم غير نافع، وإرادة غير صالحة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إذا صارت النفس حرَّةً مطمئنَّة غنيَّةً بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب، ففاض منه إليها؛ استقامت بذلك الغنىٰ علىٰ الأمر المرغوب، وسلِمتْ به عن الأمر المسخوط، وبرئت من المراءاة، ومدار ذلك كلِّه علىٰ الاستقامة ظاهرًا وباطنًا؛ ولهذا كان الدِّين كلُّه في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]».

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٧٥)، ط: دار الفضيلة، ط: الأولىٰ.

(٣) طريق الهجرتين (١/ ٨٣).

سياسة الشعوب والأمم

رعىٰ النبيُّ ﷺ الغنم، وأخبر أنَّ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قبله جميعًا رعوا الغنم، ومن الحكمة في ذلك أن يتدرَّج بذلك إلىٰ رعاية البشر والأمم.

وقد أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن عن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه رعىٰ الغنم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه: ١٧، ١٨].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** كنَّا مع رسول الله ﷺ، فقلنا: أكنت ترعىٰ الغنم؟ قال: «**وهل من نبيٍّ إلا وقد رعاها**»، رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الذي قاله الأئمَّة: أنَّ الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم: ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم بالخلوة، ويترقَّوا من سياستها إلىٰ سياسة الأمم».

وقال شيخنا العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام - رعوا الغنم، والحكمة في ذلك أنَّ في رعي الغنم رفقًا بها، وتعاهدًا لها؛ لأنَّها ضعيفة لا تحتمل الشدائد كالإبل، الإبل أصبر، فتحتاج - الغنم - إلىٰ عناية في المرعىٰ، وحفظها في المرعىٰ من الذئاب والسرَّاق، فاستفاد معرفة

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٣٤).

(٢) الحلل الإبريزية من التعليقات البازية علىٰ صحيح البخاري (٣/ ٨١).

رعاية الناس والمكلَّفين لتدرُّبه علىٰ الرعاية والصيانة والمعاهدة، فينتقل من رعي البهائم إلىٰ رعي المكلَّفين والعقلاء».

وقال العلَّامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبيِّنًا ما يستفاد من رعي الغنم وما يجب علىٰ الولاة من تدبّر معنىٰ ذلك:** «أن ينتقي لها أفضل وأخصب المراعي فترعىٰ فيها».

وذكر رعي الأنبياء للغنم لا غضاضة فيه، فالله عَزَّوَجَلَّ كمَّلهم في أحوالهم، أمَّا مَن ذَكَر ذلك علىٰ سبيل تنقُّصهم فهو آثم وغالط.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن القاضي عياض**(١): «وقد قال عليه السلام مخبِرًا عن نفسه باستئجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله، وقال ﷺ: «**ما من نبيٍّ إلَّا وقد رعىٰ الغنم**»، وأخبرنا الله بذلك عن موسىٰ عليه السلام، وهذا لا غضاضة فيه جملة واحدة لمن ذكره علىٰ وجهه، بل كانت عادة جميع العرب.

نَعَمْ، في ذلك للأنبياء حكمةٌ بالغةٌ، وتدريج من الله تعالىٰ لهم إلىٰ كرامته، وتدريب برعايتها لسياسة أممهم من خلقه بما سبق لهم من الكرامة في الأزل ومتقدم العلم بذلك في الأزل.

وكذلك قد ذكر الله تعالىٰ يتمه وعيلته علىٰ طريق المنَّة عليه والتعريف بكرامته له، فذكر الذَّاكر لها علىٰ وجه تعريف حاله والخبر عن مبتدئه، والتعجُّب من منح الله قبله، وعظيم منن الله عنده، ليس فيه غضاضة، بل فيه دلالة علىٰ نبوَّته ﷺ، وصحَّة دعوته؛ إذ أظهره الله تعالىٰ بعد هذا علىٰ صناديد العرب ومن ناوأه».

---

(١) الإخنائية (ص ١٥٦، ١٥٧).

وسياسة الدول والشعوب تكون بشرع الله، فهو شرع عدل، وسياسة حق، وصراط مستقيم، به تنتظم مصالح الدنيا والآخرة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الشريعة مَبْنَاها وأساسُهَا علىٰ الحِكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عَدْلٌ كلُّها، ورحمةٌ كلُّها، ومصالحُ كلُّها، وحكمةٌ كلُّها؛ فكلُّ مسألة خرجت عن العدل إلىٰ الجَوْر، وعن الرحمة إلىٰ ضدِّها، وعن المصلحة إلىٰ المفسدة، وعن الحكمة إلىٰ العبث؛ فليست من الشريعة، وإن أُدخلت فيها بالتأويل.

فالشريعة عَدْل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظلُّه في أرضه، وحكمته الدالَّة عليه وعلىٰ صدق رسوله - ﷺ - أتَمَّ دلالةٍ وأصدَقَها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهُدَاه الذي به اهتدىٰ المهتدون، وشفاؤه التامُّ الذي به دواء كلِّ عليل، وطريقُه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام علىٰ سواء السبيل؛ فهي قرَّة العيون، وحياة القلوب، ولذَّة الأرواح؛ فهي لها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكلُّ خيرٍ في الوجود فإنَّما هو مستفاد منها، وحاصل بها، وكلُّ نقص في الوجود فسببه من إضاعتها».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «من له ذَوْق في الشريعة، واطلاع علىٰ كمالها وعدْلها، وسعتها ومصلحتها، وأنَّ الخلق لا صلاح لهم بدونها البتَّة؛ علم أنَّ السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأنَّ من أحاط علمًا

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٤٢٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٣٦، ١٠٣٧).

بمقاصدها، ووضعها مواضعها؛ لم يحتج معها إلىٰ سياسة غيرها البتَّةَ».

ومن تحقق بأن النبيَّ ﷺ ما ترك خيرًا إلا دلَّ أمَّته عليه؛ علم استغناء الخلق بما بعثه الله به عن سياسة كل مخلوق لا تتبعها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذا الفصل هو فَرْقُ ما بين ورثة الأنبياء وغيرهم، وأصله مبنيٌّ علىٰ حرف واحد، وهو عموم رسالة النبيِّ ﷺ بالسُّنَّة، إلىٰ كلِّ ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم، وأنَّه لا حاجة إلىٰ أحد سواه البتَّة، وإنَّما حاجتنا إلىٰ من يُبلِّغُنا عنه ما جاء به، فمن لم يستقرَّ هذا في قلبه لم يرسخ قدمه في الإيمان بالرسول ﷺ، بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك، كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلىٰ المكَلَّفين، فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتة، فكذلك لا يخرج حقٌّ من العلم والعمل عمَّا جاء به.

فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمَّةِ إلىٰ سواه، وإنَّما يحتاج إلىٰ غيره من قلَّ نصيبه من معرفته وفهمه، فبحسب قلَّة نصيبه من ذلك تكون حاجته، وإلَّا فقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يُقلِّب جناحيه في السَّماء إلَّا وقد ذكر للأمَّة منه علمًا، وعلَّمهم كلَّ شيء، حتىٰ آداب التَّخلِّي وآداب الجماع والنوم، والقيام والقعود، والأكل والشرب، والرُّكوب والنزول.

ووصف لهم العَرْش والكرسيَّ والملائكة، والجنَّة والنَّار، ويوم القيامة وما فيه، حتىٰ كأنَّهم رأي عين، وعرَّفهم بربِّهم ومعبودهم أتمَّ تعريف، حتىٰ كأنَّهم

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٩٢ – ١٠٩٤).

يَرَوْنه بما وصفه لهم من صفات كماله ونعوت جلاله، وعَّرفهم الأنبياء وأممهم، وما جرىٰ لهم معهم حتىٰ كأنهم كانوا بينهم، وعرَّفهم من طرق الخير والشرِّ، دقيقها وجليلها، ما لم يُعَرِّفْهُ نبيٌّ لأمَّته قبله.

وعرَّفهم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للرُّوح والبَدَن ما جلَّىٰ لهم ذلك، حتىٰ كأنَّهم يعاينوه.

وكذلك عرَّفهم من أدلَّة التوحيد والنُّبوَّة والمعاد، والرَّدِّ علىٰ جميع طوائف أهل الكفر والضَّلال، ما ليس لمن عرفه حاجةٌ إلىٰ كلام أحد من الناس البتَّة.

وكذلك عرَّفهم من مكائد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يحترزون به من كَيْدِه ومكره، وما يدفعون به شَرَّه ما لا مزيد عليه.

وكذلك أرشدَهم في معاشهم إلىٰ ما لو فعلوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

وبالجملة، فقد جاءهم بخير الدنيا والآخرة بحذافيره، ولم يجعل الله بهم حاجة إلىٰ أحد سواه، ولهذا ختم الله به ديوان النُّبُوَّة، فلم يجعل بعده رسولًا، لاستغناء الأُمَّة به عمَّن سواه، فكيف يُظَنُّ أن شريعته الكاملة المكملة محتاجة إلىٰ سياسة خارجة عنها، أو إلىٰ حقيقة خارجة عنها، أو إلىٰ قياس خارج عنها؟

فمن ظنَّ ذلك فهو كمن ظنَّ أنَّ بالناس حاجةً إلىٰ رسول آخر بعده، وسبب هذا كلِّه خفاء ما جاء به علىٰ من ظَنَّ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]».

❁ ❁ ❁

الخوف من الشرك وفروعه

إبراهيم الخليل - عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام - من تحقيقه للتوحيد، وتواضعه لله، ومعرفته وتحقُّقه بأنَّ الله مولاه هو الذي تولَّاه هدايةً للتوحيد، واصطفاءً للخلة، سأل الله أن يحفظ عليه توحيده وإسلامه، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ العبد لا يستغني عن تثبيت الله طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانها، وقد قال تعالىٰ لأكرم خلقه عليه وعبده ورسوله ﷺ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]».

وأسباب التثبيت هي من توفيق الله وعمل المسلم، فمن حفظ علىٰ نفسه توحيده، وسعىٰ في زيادة إيمانه، وداوم السير إلىٰ الله، وتدارك الخلل في سيره وجدَّد إيمانه؛ حفظ الله عليه إسلامه وإيمانه.

قال تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الخلق كلُّهم قسمان: موفَّق بالتثبيت، ومخذول

(١) الأمثال في القرآن الكريم(ص ٣٦٤).

(٢) الأمثال في القرآن الكريم (ص ٣٦٥، ٣٦٦).

بترك التثبيت، ومادة التثبيت وأصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أُمر به العبد، فبهما يثبِّت الله عبده، فكلُّ ما كان أثبت قولًا وأحسن فعلًا كان أعظم تثبيتًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولًا، والقول الثابت هو القول الحقُّ والصدق، وهو ضدُّ القول الباطل الكذب. فالقول نوعان: ثابت له حقيقة وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبِّت الله بها عباده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترىٰ الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوِّيًا وأقلِّهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاختبار وشجاعته ومهابته ويعرفون كذب الكاذب بضدِّ ذلك، ولا يخفىٰ ذلك إلَّا علىٰ ضعيف البصيرة».





تعلُّم العربية

إسماعيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تعلَّم العربيَّة بمكَّة، وفي حديث ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال النبيُّ ﷺ: «**أنَّ جرْهم عندما رأوا طيرًا يدور علىٰ ماء بوادي مكَّة، قالوا: لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأقبلوا عند الماء، فوجدوا أُمَّ إسماعيل عنده، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم. وشبَّ إسماعيل وتعلَّمَ العربية منهم**»، رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: «**وتعلم العربية منهم**» فيه إشعار بأنَّ لسان أمِّه وأبيه لم يكن عربيًّا وفيه تضعيف لقول من روىٰ أنَّه أوَّل من تكلَّم بالعربية وقد وقع ذلك من حديث ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عند الحاكم في «المستدرك» بلفظ: «**أوَّل من نطق بالعربية إسماعيل**» وروىٰ الزبير بن بكَّار في «النسب» من حديث عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بإسناد حسن قال: «**أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل**»، وبهذا القيد يُجمع بين الخبرين فتكون أوَّليَّته في ذلك بحسب الزيادة في البيان لا الأولية المطلقة فيكون بعد تعلُّمه أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة فنطق بها ويشهد لهذا ما حكاه ابن هشام عن الشرقي بن قطامي: «أنَّ عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم»، ويحتمل أن تكون الأولية في الحديث مقيَّدة

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٨٨).

بإسماعيل بالنسبة إلىٰ بقيَّة إخوته من ولد إبراهيم فإسماعيل أوَّل من نطق بالعربية من ولد إبراهيم.

وقال ابن دريد في «كتاب الوشاح»: أوَّل من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ثم إسماعيل.

قلت: وهذا لا يوافق من قال: إنَّ العرب كلَّها من ولد إسماعيل».

فاللغة العربية شعار الحنيفية، لغة القرآن، التي يحصل بالعلم بها فهم القرآن وتلقِّي أحكام الإسلام.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤]، قال العلَّامة ابن هُبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «القرآن هنا هو البيان»، وقال ابن هُبيرة[٢]: «ذكر بعض العلماء أنَّ البيان أفضل العلوم، من حيث إنَّ كل العلوم لا تُدرك إلَّا به».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ الله تعالىٰ لمَّا أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله ﷺ مبلِّغًا عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلىٰ هذا الدين متكلِّمين به لم يكن سبيل إلىٰ ضبط الدين ومعرفته إلَّا بضبط اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتبار التكلُّم به أسهل علىٰ أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلىٰ إقامة شعائر الدين، وأقرب إلىٰ مشابهتهم للسابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، في جميع أمورهم».

(١، ٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٤/ ٢٣٩).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٦٨، ٢٦٩).

فالعربية لغة القرآن وشعار الحنيفية، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وسمع سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قومًا يتكلَّمون بالفارسية، فقال: «**ما بال المجوسيَّة بعد الحنيفية؟!**» رواه ابن أبي شيبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميَّزون».



(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣١١).

عبودية الله بالحبِّ والرغبة والرهبة

حقيقة الحنيفية ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي إسلام الوجه لله عبوديةً، ورغبةً ورهبةً إليه، ومحبَّة له، قال تعالىٰ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٤].

والحنفاء الموحِّدون يتألَّهون لله حبًّا ورغبةً ورهبةً وهذا حال النبيِّين جميعًا - عليهم الصلاة والسلام -، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

والمؤمنون الحنفاء هم الذين يخشون ربَّهم، وخشيتهم لربِّهم تسوقهم إلىٰ أسباب الأمن من سخطه بالعمل بمراضيه وطاعته وعبوديَّته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وأصل عبودية الله إنَّما تتأسَّس بمحبَّته وخوفه ورجائه، وهذا كما أنَّه حقُّ الله الخالص، فإنَّه ما يستلزمه كماله وحده، فله صفات الكمال، وهو وحده الذي يهدي وينصر ويرزق وينفع ويضرُّ.

والقلوب مفطورة علىٰ التألُّه لله وحده لا شريك له لكماله سبحانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «عبادة الله تتضمَّن كمال محبَّة الله

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ١٠٢، ١٠٣).

وكمال الذُّلِّ لله، وأصل الدين وقاعدته يتضمَّن أن يكون الله هو المعبود الذي تحبُّه القلوب وتخشاه، ولا يكون لها إله سواه، والإله ما تألهه القلوب بالمحبَّة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام، ونحو ذلك.

والله سبحانه وتعالىٰ أرسل الرسل بأنَّه لا إله إلا هو، فيخلو القلب عن محبَّة ما سواه بمحبَّته، وعن رجاء ما سواه برجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله، وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به؛ ولهذا كان وسط الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

وعبوديَّة الله تكون تألُّهًا له عن محبَّة له وخوفه ورجائه، فخوف المسلم من الله يجعله يفرُّ إليه فيطمئنُّ بذلك من سخطه، ولا يشرد عن ربِّه، ولا يقنط من رحمته، بل يرجوها، فانتظمت عبودية الله حبَّه وخوفه ورجاءه.

قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ المحبَّة لا تنفكُّ عن الرجاء - كما تقدَّم -، فكلُّ واحد منهما يمدُّ الآخر ويقوِّيه.

ومنها: أنَّ الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكلُّ راجٍ خائف، وكلُّ خائف راجٍ، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف، قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسِّرين: المعنىٰ: ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنىٰ الخوف.

والتحقيق: أنَّه ملازم له، فكلُّ راجٍ خائف من فوات مرجوه، والخوف بلا

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥٢).

رجاء يأس وقنوط».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الخوف والرجاء وَغَيرهمَا يسْتَلْزم الْمحبَّة وَيرجع إِلَيْهَا؛ فَإِنَّ الراجي الطَّامع إِنَّمَا يطْمع فِيمَا يُحِبُّهُ لَا فِيمَا يبغضه، والخائف يفرُّ من الْخَوْف لينال المحبوب.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وَقَالَ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وَرَحمته: اسْم جَامع لكلِّ خير، وعذابه: اسْم لكلِّ شَرٍّ، وَدَار الرَّحْمَة الْخَالِصَة هِيَ: الْجنَّة، وَدَار الْعَذَاب الْخَالِص: هِيَ النَّار، وَأما الدُّنْيَا فدار استدراج».

ومحبة الله وخوفه ورجاؤه هو من تحقيق توحيد الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «تحقيق التوحيد تألُّه العبد ربَّه، وتعلُّق رجائه به وحده لا شريك له، وهي لفظ خبر يتضمَّن الطلب.

والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم: «لا إله إلا الله»، فقول العبد لها مخلصًا من قلبه له حقيقة أخرىٰ، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله».

والصلاة التي هي شعار الحنيفية، وأخصُّ هيئاتها تحقيقًا للحنيفية بإسلام القلب والوجه لله، فالسجود يحقِّق فيه الحنفاء عبودية الحبِّ والرغبة والرهبة لله لا شريك له.

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص ٣٣٩).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٥٨٣).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ النعم نوعان: مستمرَّة ومتجدِّدة، فالمستمرَّةُ شكرها بالعبادات والطاعات، والمتجدِّدة شُرِع لها سجود الشكر، شكرًا لله عليها، وخضوعًا له وذلًّا، في مقابلة فرحة النعم وانبساط النفس لها، وذلك من أكبر أدوائها؛ فإنَّ الله لا يحبُّ الفَرِحين ولا الأَشِرين، فكان دواء هذا الداء الخضوع والذلَّ والانكسار لربِّ العالمين، وكان في سجود الشكر من تحصيل هذا المقصود ما ليس في غيره.

ونظير هذا السجود عند الآيات التي يخوِّف الله بها عباده، كما في الحديث: «**إذا رأيتم آية فاسجدوا**»، وقد فَزِع النبيُّ ﷺ عند رؤية انكساف الشمس إلىٰ الصلاة، وأمر بالفَزَع إلىٰ ذكره، ومعلوم أنَّ آياته سبحانه لم تزل مشاهدةً معلومة بالحسِّ والعقل، ولكن تجدُّدها يُحدِث للنفس من الرهبة والفزع إلىٰ الله ما لا تحدثه الآيات المستمرَّة، فتجدُّد هذه النعم في اقتضائها لسجود الشكر كتجدُّد تلك الآيات في اقتضائها للفزع إلىٰ السجود والصَّلاة».

❁ ❁ ❁

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٤٠٤).





صحف إبراهيم

وفي معرفة صحف إبراهيم تحقيق للإيمان برسالته وما أُوحي إليه، وصحف إبراهيم وإن ورد ذكرها مجملًا، إلَّا أنَّ تفاصيل ملَّته وردت أكثر تفصيلًا في القرآن وفي سنَّة النبيِّ ﷺ.

ومن تفاصيل أحوال الخليل ما وردت به السنَّة أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أُلقي في النار، كان كلُّ شيء يطفئ النار، إلَّا الوزغ، فإنَّه كان ينفخ النار علىٰ إبراهيم؛ لذلك أمر النبيُّ ﷺ بقتله. رواه البخاري.

والقرآن هو آخر ما أوحي من الله لآخر وخاتم النبيين والمرسلين محمَّد ﷺ، وهو خطاب الله لخلقه كافَّةً، وهو مصدِّق لأخبار الله في الكتب السَّابقة، ومبيِّنٌ لما حُرِّف منها، وناسخ لبعض ما فيها، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هكذا القرآن؛ فإنَّه قرَّر ما في الكتب المتقدِّمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بيانًا وتفصيلًا، وبيَّن

(١) تفسير شيخ الإسلام ابن تيميَّة (٢/ ٤٨٩).

الأدلَّة والبراهين علىٰ ذلك، وقرَّر نبوَّة الأنبياء كلِّهم، ورسالة المرسلين، وقرَّر الشرائع الكليَّة التي بُعثت بها الرسل كلُّهم، وجادل المكذِّبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين، وبيَّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتَّبعين لها، وبيّن ما حُرِّف منها وبُدِّل، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدِّمة، وبيَّن أيضًا ما كتموه ممَّا أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت به النبوَّات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن، فصارت له الهيمنة علىٰ ما بين يديه من الكتب من وجوه متعدِّدة، فهو شاهد بصدقها، وشاهد بكذب ما حُرِّف منها، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريَّات».

والذي اتَّفقت عليه الشرائع كلُّها هو توحيد الله وما هو من الإيمان به سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

واتفقت الشرائع علىٰ أركان الإسلام، وقاعدة ما اتَّفقت عليه الشرائع هو التعبُّد لله بما هو مصلحة في كلِّ زمان ومكان.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «تنوُّع شرائع الأنبياء كتنوع الشريعة الواحدة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ فالشرعة: الشريعة، والمنهاج: الطريق والسبيل.

فالشرعة كالباب الذي يدخل منه، والمنهاج كالطريق الذي يسلك فيه، والمقصود هو حقيقة الدين بأن تعبد الله وحده لا شريك له، وهذه الحقيقة الدينية التي اتَّفق عليها الرسل هي دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره، والشرك الذي حرَّمه علىٰ ألسن رسله أن يعبد مع الله غيره».

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٤٩٠).



تعبُّد النبيِّ ﷺ بملَّة إبراهيم قبل البعثة

كان الناس في جزيرة العرب بمكَّة وما حولها علىٰ ملَّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبعد أن جلب عمرو بن لحي الخزاعي الأوثان من أرض البلقاء من الشام، وأحدث في الحنيفية تحريم الحلال؛ تحرَّفت الحنيفية في أصلها وهو التوحيد، وفي التحريم والتحليل، وبقي مع النَّاس من ملَّة إبراهيم ما تمسَّكوا به منها ممَّا لم يحرِّفوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «روىٰ ابن أبي حاتم وغيرُه من التفسير الثابت عن قتادة، تفسير ابن أبي عَرُوبةَ عنه، قال: الحنيفية شهادةُ أن لا إله إلَّا الله، يدخلُ فيها تحريمُ الأمَّهاتِ والبناتِ والأخواتِ والعمَّاتِ والخالاتِ، وما حَرَّمَ الله، والختانُ، وكانت حنيفية في الشرك، وكانوا يُحرِّمون في شركِهم الأمَّهاتِ وما تقدَّم من القرابات، وكانوا يحجُّون البيتَ وينسكون المناسكَ.

فذكرَ قتادةُ أنها التوحيدُ واتباعُ ملَّةِ إبراهيم بتحريم ما حرَّم الله والخِتان، وأنَّهم في شِركِهم كانوا ينتحلونَ الحنيفيةَ، فيُحرِّمون ذواتِ المحارمِ، ويحجُّون ويَختَتِنونَ، وهذا مما تَمسَّكوا به من دينِ إبراهيم مع شِركِهم الذي فارقوا به أصلَ الحنيفية، لكن كانوا ينتحلونها.

---

(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص ١٨٣، ١٨٤).

وكان هذا فارقًا بينهم وبين المجوسِ، ومن لا يُحرِّم ذواتِ المحارم، وبين النصارىٰ ومن لا يرىٰ الخِتانَ، وبين سائر أهل الملل ممَّن لا يرىٰ حجَّ البيت؛ فإنَّ الحجَّ كان من الحنيفية، لكن كان من مستحبَّاتها لا من واجباتها».

وفرقٌ بين موسىٰ وعيسىٰ وإبراهيم - عليهم الصلاة والسلام - معلوم، فموسىٰ وعيسىٰ - عليهما السلام - بُعث كلٌّ واحد منهما إلىٰ قومه خاصَّة، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُمر الناس كافَّة باتباعه.

والذي يدلُّ علىٰ أنَّ محمَّدًا ﷺ خاتمَ النبيين والمرسلين لم يؤمر باتباع عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإن كان هو آخر رسول قبله: أن شريعة عيسىٰ «الإنجيل» جاءت متممة لشريعة موسىٰ «التوراة»، وكانت شريعة موسىٰ فيها آصار وتشديد عقوبة من الله لبني إسرائيل لشدة تعنتهم وعنادهم لأمر الله؛ قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا يجوز لنا اتباع ما اختص به أهل التوراة والإنجيل من الشرع المنسوخ، فكيف بالمبدل؟!

بل نتبع ملَّة إبراهيم - وهي عبادة الله وحده بما أمر به -، وهي التي كان عليها موسىٰ وعيسىٰ، لكن كان لهم شرع اختصوا به دون إبراهيم، وكان من الدِّين في حقِّ أولئك الذين أُمروا به خاصَّة، وإبراهيم ومن كان قبله لم يؤمروا به، وكذلك محمَّد ﷺ ومن آمن به لم يؤمروا بتلك الآصار والأغلال، بل رُفعت عنهم كما كانت مرفوعةً عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ولهذا قال ﷺ: «**بُعثت بالحنيفية السمحة**»، وقال: «**لا رهبانية في الإسلام**»، وقال: «**إيَّاكم والغلوَّ في الدين، فإنَّما**

(١) تفسير القرآن (١/ ٣٤٩، ٣٥٠).

أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدِّين»».

والنبيُّ ﷺ بعد البعثة أُمر باتباع ملَّة إبراهيم، قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: ١٢٣].

قال الحافظ العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في هذه الآية إعلامٌ بتعظيم منزلة نبيِّنا ﷺ وإجلال محلِّه، والإيذان بأنَّ من أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اتباع نبيِّنا ﷺ إيَّاه واقتداءه به، فهذا وجه تعلُّق المعطوف بالمعطوف عليه.

وذكر بعض المفسِّرين أنَّ أمر النبيِّ ﷺ في هذه الآية باتباع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أُريد به اتباعه إيَّاه في مواقف الحجِّ، وذكر في ذلك حديثًا في إسناده ضعفٌ، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «جاء جبريل إلىٰ إبراهيم ﷺ فراح به إلىٰ منًىٰ، فذكر كيفية مناسك الحجِّ...»، وقال في آخره: «فأوحىٰ الله إلىٰ محمَّد - ﷺ - أن اتبع ملَّة إبراهيم حنيفًا»، وهذا الحديث غير ثابت لِمَا بيَّنا من ضعف إسناده.

والأقرب حمل الأمر هنا علىٰ العموم في اتباع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في كلِّ شيء إلَّا ما نسخه الله من ذلك».

❁ ❁ ❁

(١) تفسير ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ (ص ٦٥، ٦٦).



الشكر

شكر الله يكون بعبوديَّته وحده لا شريك له، فهو مبدي النِّعم، وحافظها، وهو الذي تأذَّن بالزِّيادة لمن شكر، وقام سيِّد الحنفاء خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام بشكر الله وعبوديَّته علىٰ أتمِّ ما يكون.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أثنىٰ سبحانه علىٰ خليله إبراهيم ﷺ بشكر أنعمه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر عنه سبحانه بأنَّه أمَّة؛ أي: قدوة يؤتمُّ به في الخير، وأنَّه قانت له، والقانت: هو المطيع المقيم علىٰ طاعته، والحنيف: هو المقبل علىٰ الله المعرض عمَّا سواه، ثم ختم له هذه الصفات بأنَّه شاكرٌ لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أنَّ الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨]».

والشكر هو حقيقة العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، وهو الذي اصطفىٰ عباده المؤمنين لتحقيقه، فرضي عنهم وشكر لهم شكرهم ثوابًا معجَّلًا في الدنيا، وشكرًا مزيدًا في الآخرة لا ينقطع ولا ينفد.

---

(١) عُدَّةُ الصَّابرين وذخيرةُ الشَّاكرين (ص٢٢٢، ٢٢٣).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد قَرَنَ - تعالىٰ - ذكره الذي هو المراد من الخلق بشكره، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر خادم لهما، ووسيلة إليهما، وعون عليهما، قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنَّه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]؛ أي: قد وفَّيتم ما خُلقتم له، وهو الشكر والإيمان، فما أصنع بعذابكم بعد هذا؟!

وأخبر سبحانه أنَّ أهل الشكر هم المخصوصون بمنَّته عليهم من بين عباده، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقسَّم الناس إلىٰ شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحبُّ الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالىٰ في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقال نبيُّه سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧].

وهذا كثير في القرآن يقابل سبحانه بين الشكر والكفر، فهو ضدُّه، وقال

---

(١) عُدَّةُ الصَّابرين وذخيرةُ الشَّاكرين (ص ٢١٩، ٢٢٠).

تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشَّاكرون هم الذين ثبتوا علىٰ نعمة الإيمان، فلم ينقلبوا علىٰ أعقابهم. وعلَّق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره».



شرائع وشعائر الحنيفية

شعائر الله عباداته، وسُميت شعائر الإسلام لأنَّها أعلام عليه، وكان من أشهر شعائر ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحجُّ، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من الدَّلائل الشَّعائر، مثل شعائر الإسلام الظاهرة، التي تدلُّ علىٰ أنَّ الدَّار دار الإسلام، كالأذان والجُمع والأعياد».

والشريعة التي بُعث بها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي الإسلام، وتوحيد الله يكون بالعمل بشريعته وهي الملَّة الحنيفية، وهكذا شرائع سائر النبيِّين والمرسلين – عليهم السلام –، هي الإسلام، والعمل بها هو دين الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّما تكون عبادتُه بطاعته؛ وهو طاعة رسله؛ فَمَنْ يُطع الرسول فقد أطاع الله؛ فكلُّ رسول بُعث بشريعة، فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام.

وأمَّا ما بُدِّل منها فليس من دين الإسلام، وإذا نُسخ منها ما نُسخ لم يبقَ من دين الإسلام».

شرائع الحنيفيَّة أساسها التَّوحيد، فكلُّ ما شرعه الله من عبوديَّته من أنواع

---

(١) النبوات (٢/ ٧٦٠).

(٢) النبوَّات (١/ ٤١٧، ٤١٨).

العبادات، وما شرعه من أحكام الأمر والنَّهي فإنَّه تفصيل لكلمة التَّوحيد.

والخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بُعث بالتَّوحيد، وبإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة والصَّوم والحجِّ، ونحر الأضاحي، وبإباحة الطيِّبات، قام بها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وورَّثها بنيه من بعده، فكان إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يأمر بما أمر أبوه من شرائع الحنيفيَّة، وهكذا خاتم الرُّسل محمد ﷺ الذي جدَّد ملَّة أبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وشرائع الحنيفيَّة كلُّها ترجع إلىٰ معنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فبها تتألَّه القلوب والجوارح إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وحده لا شريك له، وبها تزكو النُّفوس، وتصلح أحوال الحنفاء.

شرائع الحنيفيَّة هي منازل العبوديَّة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وهذه هدانا ربنا إليها برسله الذين بعثهم ببيان صراطه المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البيِّنة: ٥]، وأوَّل منازل العبوديَّة - وهي الأساس لعبوديَّة الجوارح - تألُّه القلوب لله محبَّة ورغبة ورهبة وإنابة.

شرائع الحنيفيَّة هي صراط الله المستقيم الذي قام الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهداية الخلق إليه في السير إلىٰ الله، فتكون عبوديَّة الخلق بحنيفيَّة الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والاتِّباع لرسوله ﷺ، قال إبراهيم عَزَّوَجَلَّ لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

شرائع الحنيفيَّة هي توحيد العبادة، وقد بُعث الرُّسل جميعًا عليهم الصلاة والسلام بالهداية إلىٰ شرائع الله ليعبده الموحِّدون؛ لأنَّه لا يمكن أن يتحقَّق إسلام الخلق بلا عبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن جميع الولايات في الإسلام مقصودها أن يكون الدين كلُّه لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنما خلق الخلق لذلك، وبه أنزل الكتب، وبه أرسل الرسل، وعليه جاهد الرسول والمؤمنون، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد أخبر عن جميع المرسلين أن كلًّا منهم يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وعباداته تكون بطاعته عَزَّوَجَلَّ وطاعة رسوله ﷺ، وذلك هو الخير والبر والتقوىٰ، والحسنات والقربات، والباقيات الصالحات، والعمل الصالح».

والحنفاء هم المقيمون لشرائع الإسلام بالعبوديَّة لله بإقامة دينه وشعائره وأركانه، الذين انقادوا لأمر الله ونهيه، والمشركون هم الذين استكبروا عن عبادة الله وطاعته والانقياد لأمره ونهيه.

قال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورىٰ: ١٣].

فشرائع وشعائر الحنيفيَّة هي التي يقوم عليها الدِّين، وهي العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ وحقيقة الإسلام.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٦١).

ومن الحنيفيَّة السَّمحة التي بُعث بها نبيُّنا محمد ﷺ، والتي جدَّد بها ملَّة إبراهيم، إباحةُ المنافع التي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]؛ قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أباح منها جميع المنافع سوىٰ ما ورد في الشَّرع المنع منه لضرّه».

وحاجة الإنسان إلىٰ نوعين من الغذاء ضروريَّة؛ النَّوع الأوَّل: قوت القلوب، وهو التألُّه لله وذكره، وهو سبب قوَّة الجوارح في طاعة الله، والثَّاني: قوت الأبدان، وهو الغذاء الحسِّي الذي يحفظ صحَّة البدن، فمن لم يتغذّ بالأوَّل عاش كالبهائم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢]، ومن لم يتغذ بالطَّعام هلك.

وكان سيد الحنفاء محمد ﷺ هديه أكمل هدي ينال به حفظ صحَّة البدن والقلب، وحياة الدُّنيا والآخرة[٢].

وكان يتناول من الغذاء ما جمع ثلاثة أوصاف: كثرة نفعها وتأثيرها في القوىٰ، الثاني: خفَّتها علىٰ المعدة، وعدم ثقلها عليها، والثالث: سرعة هضمها[٣].

وقد نهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عباده الحنفاء عن تحريم الحلال والطيِّبات، فقال سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ

(١) القواعد والأصول الجامعة (ص٣٠).

(٢) زاد المعاد (ص٦٧١).

(٣) زاد المعاد (ص٦٧٢).

مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «المسلم المتَّبع لشريعة الإسلام هو المحرِّم ما حرَّمه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ؛ فلا يحرِّم الحلال، ولا يسرف في تناوله».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا في التضييق علىٰ أنفسكم بتحريم المباحات عليكم؛ كما قاله من قاله من السلف. ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تُحرِّموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بِقَدْر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحدَّ فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧]. فشرعُ الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراط ولا تفريط؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

ثم قال: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ أي: في حال كونه حلالًا طيِّبًا، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واتركوا مخالفته وعصيانه، ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨]».

الحنيفيَّة هي عبوديَّة الله عَزَّوَجَلَّ وحده بإقامة شرائع العبادات، والتألُّه لله وعبوديَّته بفعل المباحات، ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٥٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٣١).

والخليل محمد ﷺ قد أخذ من هذه الحنيفيَّة بأوفر حظٍّ ونصيب، فكان يتعبَّد لله بفعل المباحات، ويتَّخذها أسبابًا لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، من ذلك اتِّخاذه التنزُّه في البستان سببًا لإجمام النَّفس للتقوِّي علىٰ طاعة الله، فقد كان - صلوات الله وسلامه عليه - يتنزَّه في بيرحاء ويشرب من مائها؛ رواه البخاري من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ **في فوائد الحديث**(١): «فيه اتِّخاذ الحوائط والبساتين، ودخول أهل الفضل والعلم فيها، والاستظلال بظلِّها، والأكل من ثمرها، والرَّاحة، والتنزُّه فيها، وقد يكون ذلك مستحبًّا يترتَّب عليه الأجر إذا قصد به إجمام النَّفس من تعب العبادة وتنشيطها للطَّاعة».

ومتىٰ تعبَّد الحنفاء لله عَزَّوَجَلَّ بفعل المباحات؛ ثقلت موازين حسناتهم بما لا يحصيه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، من ذلك النَّوم الذي نقضي فيه ثلث أعمارنا، متىٰ احتسب المسلم فيه العبادة أدرك خيرًا كثيرًا، وقد كان الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ موفَّقين للتَّعبُّد لله بذلك، قال معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنِّي لأحتسب نومتي»، رواه البخاري.

فمن نام ليجمَّ بدنه من تعب السَّعي في النَّهار؛ ليريح بدنه، وليقوم بتسبيح الله وذكره في الليل، ويعود لعبوديَّة الله في نهاره بإقامة أمور دينه ودنياه؛ فنومه طاعة وعبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «المؤمن إذا كان له نيَّة أثيب علىٰ عامة أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله؛ لصلاح قلبه ونيَّته».

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٩٨).

(٢) السياسة الشَّرعيَّة (ص١٨١).

ومن أخصِّ وأهم شعائر الحنيفيَّة التي حرص إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ إقامتها، هو وبنوه: الصَّلاة، فقد دعا ربَّه مبتهلًا إليه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وهكذا قام إسماعيل بأخص شرائع الحنيفيَّة، مهتديًا بملَّة أبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وصفه بالمشهور من خصاله، تشريفًا له وتكريمًا».

وقال الحافظ الرَّسعني[٢]: «﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يريد: قومه، كأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أُمر أن يبدأ بأهله في الأمر بالمعروف؛ لأنهم قادة الناس وأئمتهم، فكان الابتداء بهم أهَمَّ وأولىٰ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقال الزجاج: أهله: أمّته.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة التي افترض الله تعالىٰ عليهم، وهي الحنيفية التي افتُرضت علينا».

وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعا ربَّه بإقامة الصلاة، حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وذلك لتكون الصلاة من شعائر

---

(١) رموز الكنوز (٤/ ٤٣٠).

(٢) رموز الكنوز (٤/ ٤٣٠، ٤٣١).

الإسلام الظاهرة.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «[أقيموا] أبلغ من قوله: «افعلوها»؛ فإنَّ هذا أمر بفعلها، بتكميل أركانها وشروطها ومكملاتها ظاهرًا وباطنًا، وبجعلها شريعة ظاهرة قائمة من أعظم شعائر الدِّين».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يعني: أدوا الصَّلاة علىٰ وجه الكمال؛ لأنَّ إقامة الشيء جعله قيِّمًا معتدلًا مستقيمًا، فمعنىٰ ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتوا بها كاملة بشروطها، وواجباتها، وأركانها، ومكمِّلاتها».

والمسلم إنَّما يُدرك بركة الصلاة ومغانمها وثوابها بإقامة أركانها وشروطها وواجباتها ومستحبَّاتها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذىٰ، مطردة للأدواء، مقوِّية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مُذهبة للكسل، مُنشطة للجوارح، مُمدَّة للقوىٰ، شارحة للصدر، مُغذِّية للروح، مُنوِّرة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقرِّبة من الرحمن».

والصَّلاة من أخصِّ وأهمِّ وأعظم شعائر الحنيفيَّة، فالله أمر عباده بالصَّلاة

---

(١) تيسير اللَّطيف المنان (ص٨٥).

(٢) تفسير سورة البقرة (١/ ٣٦٢).

(٣) زاد المعاد (ص٧١٤).

مستقبلي الكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

والصَّلاة من أعظم شعائر الحنيفيَّة، وقد شُرعت في جميع الملل؛ لأنَّها الصِّلة بين العبد وربِّه، وهي تحقيق لعبوديَّة الله.

قال العلَّامة محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ذكر عَزَّوَجَلَّ الأنبياء؛ نبيًّا نبيًّا، فوصفهم ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨] فأخبر عن جميع الأنبياء أنَّ مفزعهم كان إلىٰ الصلاة، يعبدون الله، ويتقرَّبون إليه بها».

والصَّلاة شعار الحنفاء الموحِّدين، قال النبيُّ ﷺ: «من صلَّىٰ صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم»، رواه البخاري.

فالصَّلاة أعظم وأفضل ما يتألَّه به الحنفاء لربِّهم، وهي قرَّة عيون الموحِّدين، قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّها أعظم عبادة يحصل فيها الخضوع والذُّلُّ لله، وامتلاء القلب من الإيمان به وتعظيمه، وذلك مادَّة سعادة القلب الأبديَّة ونعيمه».

الصلاة شعار الحنيفية، قال سيد الحنفاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

---

(١) تعظيم قدر الصَّلاة (١/ ١١٣).

(٢) مجموع مؤلَّفات العلَّامة عبد الرحمن السَّعدي (٢٢/ ٧٣).

ولذلك كانت الصلاة هي الحدَّ الفاصل بين المسلم الحنيف والكافر، قال النبيُّ ﷺ: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»، رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ومن أحبِّ الأعمال إلىٰ الله وأعظم الفرائض عنده الصَّلوات الخمس في مواقيتها، وهي أوَّل ما يحاسب عليها العبد من عمله يوم القيامة، وهي التي فرضها الله تعالىٰ بنفسه ليلة المعراج، لم يجعل فيها بينه وبين محمَّد واسطة، وهي عمود الإسلام الذي لا يقوم إلَّا به، وهي أهم أمر الدين كما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يكتب إلىٰ عماله: «**إنَّ أهمَّ أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها كان لِمَا سواها من عمله أشدَّ إضاعة**».

وقد ثبت في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة**»، وقال: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»».

وفي الصلاة من تحقيق التوحيد والإعانة علىٰ كلِّ خير ما جعلها ضرورة أن تُشرع في كلِّ الملل.

قال الحافظ العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الصلاة سبب لكل خير، ورادع عن كلِّ سوء، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهي مقتضية لحضور القلب بين يدي الله تعالىٰ، والخشوع له، والخضوع، ودوام المراقبة.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٤٣٣، ٤٣٤).

(٢) الأربعون المغنية بفنونها (ص ٤٦٧).

ومشتملة من أعمال القلوب والألسن والجوارح، فرضًا وندبًا علىٰ ما لا يشتمل عليه غيرها.

وقد نُهي فيها عن أعمال وأقوال لم يُنْهَ عنها في غيرها، كلُّ ذلك ليتوفَّر المكلَّف علىٰ الإقبال عليها، وإحضار قلبه بين يدي الله تعالىٰ فيها؛ ولهذا كانت أفضل أعمال البدن عند الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكثير من أهل العلم».

ومحمد ﷺ جدَّد ملَّة إبراهيم بنحو ما دعا إليه الخليل وابنه إسماعيل، فكان يأمر بالصَّلاة والزَّكاة، وهكذا فعل الصَّحابة الحنفاء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

ونصوص القرآن كثيرة في الأمر بالزَّكاة مقرونة مع الأمر بالصَّلاة؛ لتكون هذه الشَّعائر قائمة بين المسلمين، ولأمرهما بأداء حقِّ الله وحقِّ عباده.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد جمع الله في كتابه في آيات كثيرة بين الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنهما مشتركتان في أنهما من أهم فروض الدين، ومباني الإسلام العظيمة، والإيمان لا يتمُّ إلا بهما، ومن قام بالصلاة وبالزكاة كان مقيمًا لدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما من دينه أضيع، فالصلاة فيها الإخلاص التام للمعبود، وهي ميزان الإيمان، والزكاة فيها الإحسان إلىٰ المخلوقين، وهي برهان الإيمان، ولهذا اتفق الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ قتال مانعي الزكاة، وقال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة»».

والحدُّ الفاصل بين الحنفاء الموحِّدين والكفَّار المشركين في تحقيق

---

(١) تيسير اللطيف المنان (ص٩١).

التَّوحيد، والقيام بحقائقه ولوازمه؛ فالمسلمون تزكَّوا بالتَّوحيد وأخلصوا صلاتهم لربِّهم، وأدَّوا حقَّ المال الذي استخلفهم الله فيه، والكفَّار كفروا حقَّ الله وحقَّ عباده.

قال تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾ [فُصِّلَت: ٦، ٧].

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «دنَّسوا أنفسهم، فلم يزكُّوها بتوحيد ربِّهم والإخلاص له، ولم يصلوا، ولا زكَّوا؛ فلا إخلاص للخالق بالتَّوحيد والصَّلاة، ولا نفع للخلق بالزَّكاة وغيرها».

والزَّكاة مفهومها لا ينحصر في بذل المال للخلق، بل يعمُّ معناها كل نفع وإحسان للمخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كل نفع وخير يوصله إلىٰ الخلق هو من جنس الزكاة، فمن أعظم العبادات سد الفاقات، وقضاء الحاجات، ونصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف، وهو الأمر بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ورسوله ﷺ من العدل والإحسان».

ومن أخصِّ وأهم وأظهر شعائر الحنيفيَّة الحجُّ والعمرة.

مناسك الحجِّ هي مقامات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المشاعر، وآيات باقيات لم تنقضِ بموته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بخلاف سائر النبيِّين - عليهم السَّلام -، فإنَّ آياتهم قد

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧١١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٢٤٣).

انقضت بموتهم، ولا تزال الكعبة التي بناها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائمة مطهَّرة للطَّائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الكعبة فإنها بيت من حجارة بوادٍ غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من عدو، ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها؛ فليس عندها رغبة ولا رهبة، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة، فكلُّ من يأتيها يأتيها خاضعًا ذليلًا متواضعًا في غاية التواضع، وجعل فيها من الرغبة أن يأتيها الناس من أقطار الأرض محبة وشوقًا من غير باعث دنيوي، وهي علىٰ هذه الحال من ألوف من السنين، وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية غيرها».

ولا يزال البيت العتيق يقصده المسلمون لأداء مناسك الحجِّ والعمرة، ويجيب فيه المسلمون نداء الخليل كما أمره الله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

والحنفاء هم من أقاموا ملَّة إبراهيم وشعائرها وشرائعها: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

---

(١) النبوَّات (١/ ٥١٠، ٥١١).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَنُسُكِي﴾ قد ذكروا في تفسيره: الذبح لله، والحج إلىٰ بيت الله.

وذكروا أنَّ لفظ «النسك» يتناول العبادة مطلقًا.

والله سبحانه قد بيَّن في القرآن أنَّ الذبح والحجَّ كلاهما منسك، قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٣٤]، وقال النبيُّ ﷺ: «**من ذبح بعد الصلاة فقد أصاب النسك، ومن ذبح قبل الصلاة فإنَّما هو شاة لحم عجَّلها لأهله، ليس من النسك في شيء**».

وقال تعالىٰ عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨]، فأرىٰ الله إبراهيم وابنه إسماعيل المواضع التي تُقصد في الحجِّ والأفعال التي تفعل هناك: كالطَّواف والسعي والوقوف والرمي، كما ذكر ذلك غير واحد من السلف».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فوائد الحجِّ**[(٢)]: «هو تذكرة بحال إبراهيم الخليل، والمصطفين من أهل بيته، وتذكير بحال سيِّد المرسلين وإمامهم، ومقاماته في الحجِّ التي هي أجلُّ المقامات.

وهذا التذكير أعلىٰ أنواع التذكيرات؛ فإنَّه تذكير بأحوال عظماء الرسل: إبراهيم، ومُحمَّد – صلىٰ الله عليهما وسلم –، ومآثرهم الجليلة، وتعبُّداتهم

(١) تفسير شيخ الإسلام (٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٢) الرِّياض النَّاضرة (ص٣٠).

الجميلة. والمتذكِّر - بذلك - مؤمن بالرُّسل معظِّم لهم، متأثِّر بمقاماتهم السامية، مُقتدٍ بآثارهم الحميدة، ذاكر لمناقبهم وفضائلهم؛ فيزداد به العبد إيمانًا ويقينًا».

والمقصود من التذكير بمقامات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الحجِّ هو التأسي به في إقامة شعائر الحجّ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أمَّا الحجُّ فشأنٌ آخر، لا يدركه إلَّا الحنفاء، الذين ضربوا في المحبَّة بسهْم، وشأنه أجلّ من أن تحيط به العبارة، وهو خاصَّةُ هذا الدِّين الحنيف، حتىٰ قيل في قوله تعالىٰ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [الحج: ٣١] أي: حجَّاجًا.

وجعل الله بيته الحرام قيامًا ،للنَّاس فهو عمود العالم الذي عليه بناؤه، فلو ترك النَّاسُ كلُّهم الحجَّ سنةً لخرَّت السَّماءُ علىٰ الأرض؛ هكذا قال ترجمان القرآن ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فالبيت الحرامُ قيامُ العالم، فلا يزال قيامًا ما دام هذا البيت محجوجًا.

فالحجُّ هو خاصَّةُ الحنيفة، ومعونة الصلاة وسرُّ قول العبد: لا إله إلا الله، فإنَّه مؤسَّسٌ علىٰ التَّوحيد المحض والمحبَّة الخالصة، وهو استزارةُ المحبوب لأحبابه، ودعوتهم إلىٰ بيته، ومحلِّ كرامته، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم: لبَّيك اللهمَّ لبَّيك؛ إجابة محبٍّ لدعوة حبيبه؛ ولهذا كان للتَّلبية موقع عند الله، وكلَّما أكثر العبدُ منها كان أحبَّ إلىٰ ربِّه وأحظىٰ، فهو لا يملك نفسه أن يقول: لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، حتىٰ ينقطع نفسه.

وأمَّا أسرار ما في هذه العبادة من الإحرام، واجتناب العوائد، وكشف

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٨٦٨، ٨٦٩).

الرأس، ونزع الثِّياب المعتادة، والطَّواف، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، وسائر شعائر الحجِّ فمما شهدت بحُسْنه العقول السَّليمة والفطرُ المستقيمة، وعَلِمَت بأنَّ الذي شرع هذا لا حكمة فوق حكمته».

وأقام النبيُّ ﷺ في الحجِّ آكد شعائر ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو المخالفة للمشركين؛ فإنَّ المشركين قد حرَّفوا وبدَّلوا ملَّة إبراهيم في المشاعر وكلِّ الدِّين، وأوَّل ذلك توحيد ربِّ العالمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ مبيِّنًا بعض معاني أمر الله بالحج[1]: «مخالفة للمشركين، وتعظيم لشعائر الله؛ فإن اليهود والنصارىٰ لمَّا أعرضوا عن تعظيم الكعبة قال الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وأوجب حجَّها.

فإذا كانت الصفا والمروة ممَّا أعرض عنه بعض المشركين، وهو من شعائر الله، كان الأظهر إيجاب العبادة عنده كما وجبت العبادة عند البيت؛ ولذلك سنَّ النبيُّ ﷺ مخالفة المشركين حيث كانوا يفيضون من المزدلفة، فأفاض من عرفات، وصارت الإفاضة من عرفات واجبة، ووقف إلىٰ غروب الشمس، فصار الوقوف بها واجبًا.

فقد رأينا كل مكان من الشعائر أعرض المشركون عن النسك فيه أوجب الله النسك فيه».

والحجُّ شعار الحنيفيَّة لأنَّه غاية الخضوع لله بالنُّسك في أماكن معظَّمة وفي أوقات معظَّمة.

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (١/ ٣٨٨) باختصار.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الحجَّ والنُّسُك عبوديَّة محضة لله وذُلٌّ وخضوع لعظمته».

عن مجاهد عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** قام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ الحجر، فقال: يا أيُّها النَّاس! كُتب عليكم الحجُّ. فأسمع من في أصلاب الرِّجال وأرحام النِّساء، فأجابه من آمن، ومن كان سبق في علم الله أنَّه يحجُّ إلىٰ يوم القيامة: لبَّيك اللَّهُمَّ لبيك. رواه الفاكهي[٢].

وأقام النبيُّ ﷺ في الحجِّ آكد شعائر ملَّة إبراهيم؛ وهو البراءة من الشِّرك والمشركين، فأرسل النبيُّ ﷺ أبا بكر وعليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في حجِّ السنة التاسعة: أن لا يحجَّ بعد العام مشرك، وأن لا يطوف بالبيت عريان.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «العبادات التي شرعها الله كلُّها تتضمَّن إخلاص الدين كلِّه لله، تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

فالصَّلاة لله وحده، والصَّدقة لله وحده، والصِّيام لله وحده، والحجُّ لله وحده، وإلىٰ بيت الله وحده، فالمقصود من الحجِّ: عبادة الله وحده، في البقاع التي أمر بعبادته فيها؛ ولهذا كان الحجُّ شعار الحنيفية، حتىٰ قال طائفة من السلف: «حنفاء لله؛ أي: حُجَّاجًا»، فإنَّ اليهود والنصارىٰ لا يحجُّون البيت».

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٤٠).

(٢) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ «بإسناد صحيح»، فتح الباري (٦/ ٤٩٢).

(٣) اقتضاء الصِّراط المستقيم (ص٥٥٦).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «جعل بيته هدًىٰ للناس، ونبيَّه إمامًا وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلىٰ خلقه، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيَّته وربوبيَّته فمن اعتبر حال بيته وحال نبيِّه وجد ذلك من أظهر أدلَّة التوحيد والربوبية».

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ١-٣].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «تضمَّن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالَّة عليه، وعلىٰ علمه وحكمته؛ عنايته بخلقه، بأن أرسل منها رسلًا أنزل عليهم كتبه، ويعرفون العباد بربِّهم وحقوقه عليهم، وينذرونهم بأسه ونقمته، ويدعونهم إلىٰ كرامته وثوابه».

ومن دلالة البيت علىٰ ربوبيَّة الله عَزَّوَجَلَّ ونبوَّة رسوله ﷺ الذي جدَّد ملَّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نصرة الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ علىٰ من كذَّبهُ وجحد ما جاء به بالوحي وبالسَّيف.

وهذا الظُّهور للنَّبيِّ ﷺ هو ظهور لأمَّته إذا اعتصمت بالوحي الذي أُوحي إلي نبيِّها عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكان سببًا في نصرة الله له، فالأمَّة إذا أخذت بأسباب النصر تولَّاها الله حفظًا ونصرًا وهداية ورزقًا.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٥٩).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص٧٣).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا تيسيرٌ بالفرقان المتضمِّن للنَّجاةِ، والنَّصرِ، والعلمِ، والنُّورِ الفارق بين الحقِّ والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير».

وأقام النبيُّ ﷺ في الحجِّ آكد شعائر ملَّة إبراهيم، فطاف بالكعبة التي لا يُطاف بغيرها في أيِّ مسجد أو مكان، وأتىٰ بعد الطَّواف إلىٰ المقام الذي قام عليه الخليل لبناء البيت عندما ارتفع، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة: ١٢٥]؛ تذكيرًا بمقاماته في بناء البيت وإقامة لشعائر الله فيه، وصلَّىٰ ركعتين والمقام بينه وبين الكعبة وهو مستقبل البيت، وتلا في الرَّكعتين من السُّور ما هو حقيقة ملَّة إبراهيم، وهو البراءة ممَّا يُعبد من دونه، والإخلاص لله في عبوديَّته علمًا واعتقادًا وإرادةً وعملًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾ [الكافرون: ١، ٢]، إلىٰ آخرها، وهي كلمة تقتضي براءته من دينهم، وأنَّ ديني لي وأنتم بريئون منه، ودينكم لكم وأنا بريء منه، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، فقوله: ﴿لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾ [يونس: ٤١]، هو نظير قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وقرنه بمقتضاه وموجبه فقال: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٩٠).

(٢) الصفدية (٢/ ٣١٥، ٣١٦).

ولهذا قال النبيُّ ﷺ في هذه السورة: «**هي براءة من الشرك**»؛ ولهذا كان يقرؤها كثيرًا مع ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] في ركعتي الفجر وركعتي الطواف، وغيرهما؛ لأنَّ فيهما التوحيد: هذه فيها توحيد العمل والإرادة، وتلك فيها توحيد القول والعلم، وإذا قال في تلك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، فأمره أن يقول ما هو خبر عن الله بأنَّه الأحد الصمد، وقال في هذه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١، ٢]، فأمره أن يقول أنَّه لا يعبد ما يعبدون من دون الله، إذ لا يعبد إلَّا الله وحده».

والتَّلبية شعار الموحِّدين، قبل الحجِّ، وفي الحجِّ، وبعد الحجِّ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولًا، فلا بدَّ من الإجابة حالًا تصدق به المقال، فإنَّ الأحوال تصدِّق الأقوال أو تكذِّبها وكلُّ قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلىٰ الله إجابةً بالمقال فارجع إليه إجابةً بالحال.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ابن آدم لك قول وعمل، وعملك أولىٰ بك من قولك، ولك سريرة وعلانية، وسريرتك أملك بك من علانيتك».

ومن شعائر الحنيفيَّة الطَّواف بالكعبة، قال تعالىٰ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وهذه العبادة من أخصِّ شعائر الحنيفيَّة، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو باني الكعبة التي لا نطوف بشيء غيرها، وهو ركن نسك الحجِّ والعمرة لا تصحُّ إلَّا به.

---

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٣٣٨).

والمسجد الحرام أحد المساجد الثَّلاثة التي تشدُّ إليها الرحال، ويُطاف بالكعبة، وذلك من عمارة المسجد الحرام بالذِّكر والدُّعاء في الطَّواف، وصلاة ركعتين خلف المقام بعد انتهاء الطَّواف.

والطَّواف بالكعبة عبادة في نسك الحجِّ والعمرة، وهو عبادة مستقلَّة في غيرهما، قال النبي ﷺ: «يا بني عبد مناف! لا تمنعوا أحدًا طاف بالبيت وصلَّىٰ ركعتين متىٰ شاء».

وخصوصيَّة عبادة الطَّواف بالكعبة تُبيِّن ما ضلَّ به المتَّبعون لدعاة الشِّرك، المخالفون للملَّة الحنيفيَّة، المطوِّفون بقبور الموتىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الطَّواف بغير البيت العتيق لا يجوز باتِّفاق المسلمين، بل من اعتقد ذلك دينًا وقربة عُرِّف أنَّ ذلك ليس بدين باتِّفاق المسلمين، وأنَّ ذلك معلوم بالضَّرورة من دين الإسلام».

وقال العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أمَّا الطَّواف بالقبر، وطلب البركة منه؛ فهو لا يشكُّ عاقل في تحريمه، وأنَّه من الشِّرك؛ فإنَّ الطَّواف من أنواع العبادات، فصرفه لغير الله شرك».

ومن شعائر الحنيفيَّة الصِّيام، وهو عبادة مشروعة في كلِّ المِلَل، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٦/ ٢٥٠).

(٢) فتاوىٰ ورسائل سماحة العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ١٢٢).

فالصَّوم شرعه الله في كل المِلَل؛ لأنَّه من أسباب التَّقوىٰ.

قال الحافظ أحمد بن حجر الهيتمي[(١)]: « التشبيه في قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٣] فيه قولان:

أحدهما: أنه عائد إلىٰ أصل إيجاب الصوم، فعليه تكون هذه العبادة مكتوبة علىٰ سائر الأنبياء وأممهم قبلنا، من لدن آدم إلىٰ آخر الدهر. وحَسَّنَ التشبيه حينئذ أن الشيء الشاق إذا عمَّ سهل تعاطيه علىٰ النفوس، وكانت طمأنينتها به أكثر.

ثانيهما: أنه عائد إلىٰ وقت الصوم وقدره».

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف الحنفاء: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والصوم لا يعدله شيء من الأعمال، كما قال النبي ﷺ؛ لأنَّه من أسباب الإقبال علىٰ الله، ولأنَّه يستفرغ القلب من الأخلاط التي تُضعفه عن عبوديَّة الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لما كان صلاحُ القلب واستقامته علىٰ طريق سيره إلىٰ الله تعالىٰ متوقِّفًا علىٰ جمعيَّته علىٰ الله، ولَمّ شعثه بإقباله بالكليَّة علىٰ الله تعالىٰ، فإن شعث القلب لا يلُمُّه إلا الإقبال علىٰ الله تعالىٰ، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام؛ مما يزيده شعثًا ويشتِّته في كل وادٍ، ويقطعه عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ، أو يضعفه أو يعوقه ويوقفه؛ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يُذهِبُ فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوِّقة

---

(١) إتحاف أهل الإسلام بخصوصيَّات الصِّيام (ص٧٤).

(٢) زاد المعاد (ص٢٠٣).

له عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ، وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضرُّه ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة».

ومن شعائر الحنيفيَّة الاعتكاف، قال تعالىٰ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من فوائد الآية فضيلة هذه العبادات الأربع: الطَّواف، والاعتكاف، والرَّكوع، والسُّجود».

والاعتكاف كان من العبادات التي توارثها العرب في مكَّة من ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهو من الشَّعائر التي ما اندرست، قال الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنبيِّ ﷺ: إنِّي نذرت أن اعتكف ليلة في الجاهلية؛ فقال له النبيُّ ﷺ: «**أوف بنذرك**»، رواه البخاري ومسلم.

والاعتكاف عبادة مقصودها عظيم، ومن تحقَّق بمقصودها كان ذلك من أسباب صلاح قلبه وإقباله علىٰ الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «شرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب علىٰ الله تعالىٰ، وجمعيَّته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذِكْره وحبُّه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته؛ فيستولي عليه بدلها، ويصير الهمُّ كلُّه به، والخطرات كلُّها بذكره، والتفكُّر في تحصيل مراضيه وما يقرِّب منه؛

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٥٠).

(٢) زاد المعاد (ص٢٠٣).

فيصير أنسه بالله بدلًا عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرحُ به سواه؛ فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم».

ومن أعظم شعائر الحنيفيَّة الأضحية، فإنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُري في المنام أنَّه يذبح ابنه إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورؤيا الأنبياء وحي من الله؛ فانقاد الخليل لأمر الله، وقصد ذبح ابنه؛ ففداه الله بذبح عظيم، وصار هذا الفداء نسكًا وأضحية للمسلمين إلىٰ يوم القيامة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أما الضحايا والهدايا فقربان إلىٰ الخالق سبحانه، تقوم مقام الفدية عن النفس المستحقَّة للتلف فدية وعوضًا، وقربانًا إلىٰ الله، وتشبُّهًا بإمام الحنفاء، وإحياءً لسنته أن فدىٰ الله ولده بالقُربان، فجعل ذلك في ذريته باقيًا أبدًا».

وقوله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن فداء إسماعيل - الذي جعله قربانًا لإبراهيم، ونسكًا لأمَّته، وشعيرة من شعائر الحنيفيَّة: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٧]، تنويه بمكانة الأضحية في الملَّة الحنيفيَّة.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٧١).

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم؛ فكان عظيمًا من جهة أنه كان فداءً لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانًا وسُنَّة إلىٰ يوم القيامة».

هذه بعض شرائع وشعائر الحنيفيَّة التي بُعث بها الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وما لم يذكر مفصَّلًا ممَّا أمره الله من أنواع العبوديَّة في القرآن والسُنَّة؛ فإنَّه مجمل في قول الله عَزَّوَجَلَّ لإبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

قال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يعني: أي: استسلم، وأخلص عبادتك لله».

وشرائع الإسلام وشعائره كلُّها من حقوق وحقائق ولوازم كلمة التَّوحيد، وكلمة التَّوحيد جعلها الله باقية فيمن هداهم من عقب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قال - إبراهيم - امتثالًا لربه: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١]، إخلاصًا وتوحيدًا، ومحبَّة وإنابة؛ فكان التَّوحيد لله نعته، ثم ورَّثه في ذريَّته ووصَّاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم.

والحنيفيَّة ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبوديةُ الله بما شرع، بالاتِّباع لأمر

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٨).

(٢) تفسير القرآن (١/ ١٤٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٥).

الله بذلك من غير ابتداع؛ فالعبادات توقيفيَّة في الحنيفية.

قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال العلامة المحقق المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّ الأصل في العبادات أنَّها توقيفيَّة – يعني: الإنسان لا يتعبَّد لله بشيء إلَّا بما شرع –؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨].

ومنها – فوائد الآية – تحريم التَّعبُّد بما لم يشرعه الله؛ لأنَّهما دَعَوا الله عَزَّوَجَلَّ أن يريهما مناسكهما، فلولا أنَّ العبادة تتوقَّف علىٰ ذلك لتعَبَّدا بدون هذا السُّؤال».



(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٦٤).



نصرة الحقِّ

بُعث إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالحقِّ، ودعا إليه، وصبر علىٰ الدعوة إلىٰ الحقِّ، وجاهد في الله في نصرة الحقِّ والثبات عليه، وكان حريصًا علىٰ ظهور الحق واستمراره في الخلق، لا ينقطع عن الأرض، وكان من قيامه بالحقِّ دعاء الله أن يجعل في ذريته من يقوم بالحقِّ من بعده، فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

قال العلَّامة أبو المظفَّر السَّمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يقال: إنَّ معناه: اجعل في ذريَّتي من يقوم بالحقِّ إلىٰ قيام السَّاعة».

وقال العلَّامة أبو محمَّد مكِّي بن أبي طالب القيسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قيل: معنىٰ سؤاله؛ هو أن يجعل الله من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق، ويدعو إليه، وهذا الدعاء هو لمحمد ﷺ؛ لأنه الذي قام بذلك في آخر الزمان وهو من ولد إبراهيم، فأجاب الله دعاءه، وبعث محمدًا ﷺ من ولده، فأقام الحق وبيَّن الدين، فهو اللسان الصادق الذي أتىٰ في الآخرين».

والحقُّ الذي نصره سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ هو توحيد الله وشرعه وأمره ونهيه، وقد اصطفىٰ الله من ذريَّته من يقوم بهذا الحقِّ إلىٰ يوم

---

(١) تفسير القرآن (٤/ ٥٤).

(٢) الهداية إلىٰ بلوغ النِّهاية (٨/ ٥٣٢١).

القيامة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٢٦-٢٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخَلْعُ ما سواه من الأوثان، وهي: لا إله إلا الله؛ أي: جعلها دائمة في ذريَّته يقتدي به فيها من هداه الله من ذريَّة إبراهيم عليه السلام».

واصطفىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لأمَّة الخليل محمد ﷺ خيار خلقه من حنفاء الطَّائفة المنصورة التي تنصر الحقَّ، وهم - ولله الحمد والمنَّة - فئة في كل طبقة إلىٰ يوم القيامة، وذلك من أسباب حفظ الدِّين.

قال النبيُّ ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين علىٰ الحقِّ، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله**»، رواه البخاري ومسلم.

والدِّين ينصره أصفياء الله من الولاة والعلماء وعامَّة المسلمين، فالدِّين ينصره الكتاب الهادي والسَّيف النَّاصر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «من قبلنا كان الحقُّ يُغلب فيهم حتىٰ لا تقوم به طائفة ظاهرة منصورة، ولهذا كان العدوُّ يسلَّط عليهم فيجتاحهم، كما سُلِّط علىٰ بني إسرائيل، وخرَّب بيت المقدس مرَّتين، فلم يبق لهم ملك.

ونحن - ولله الحمد - لم يزل لأمَّتنا سيف منصور، يقاتلون علىٰ الحقِّ،

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٠٧).

(٢) منهاج السُّنَّة (٦/ ٣٦٦).

فيكونون على الهدى ودين الحقِّ الذي بعث الله به الرَّسول ﷺ».

وفي عصرنا هذا نصر ملَّة إبراهيم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ بالكتاب الهادي، والإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ اللَّهُ بالسَّيف الناصر.

ونصرة الحقِّ هو من الجهاد في سبيل الله، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «لا ريب أنَّ بيان الحقِّ وإظهاره، وإبطال الباطل وبيانه من الجهاد بالعلم».

ونصرة الحقِّ الذي دلَّ عليه القرآن والسُّنَّة، هو من التَّصديق والإيمان بالوحي، فالله يقول الحقّ ويهدي إليه، ورسول الله ﷺ داعية إلى ذلك بأمر الله، والحنفاء آمنوا بذلك وردُّوا ما خالفه، قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

وحفظ الدِّين وعلومه وشرائعه، وأداؤه إلى الخلق، وصيانته من الضَّلالات والبدع والتَّحريفات؛ هو من أعظم الجهاد العلمي.

قال العلَّامة أبو العبَّاس القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «بسبب طاعة العلماء لله تعالى بضبط شرائعه، وتعظيم شعائره التي من جملتها الجهاد، وهداية الخلق إلى الحقِّ، وتوصيل معالم الأديان إلى يوم الدِّين، ولولا سعيهم في ذلك من فضل الله تعالى؛ لانقطع أمر الجهاد وغيره، ولم يبقَ على وجه الأرض من يقول: الله.

وكلُّ ذلك من نعمة الله تعالى عليهم».

---

(١) فتاوى في أمور الحسبة ومسائلها (ص٢٣٣).

(٢) الفروق (٢/ ٣٧٥).

ونصرة الدِّين الحقِّ هو من أجلِّ الطَّاعات، وهو من أسباب خيريَّة الأمَّة وصلاح الأرض والخلق؛ فصلاح الدُّنيا بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ واتِّباع الرَّسول ﷺ، وورثة الأنبياء ينصرون الحقّ الذي دعا إليه سادات الحنفاء رسل الله، صلواته وسلامه عليهم.

قال العلَّامة عبد اللَّطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فصاروا خير أمة بثلاثة شروط: الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والإيمان بالله، وأساسه: إخلاص العبادة لله، والبراءة من عبادة كل ما يُعبد من دون الله».

فحفظ الدِّين من التَّحريف والتَّبديل أو الكتمان؛ هو من أفضل العبادات وأجلّ الطَّاعات.

قال أبو عثمان سعيد بن العبَّاس القرشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٤٣٣هـ)**[(٢)]: «قوام الدُّنيا والآخرة بثلاثة نفر:

قوم في نحر العدو، فينام النَّاس ليسهر أولئك، ويأمنون لخوفهم، وقوم قد أخلصوا إيمانهم، وفرَّغوا أبدانهم، وجانبوا فضول الدُّنيا وغمومها؛ فقرَّبهم الله تعالىٰ، وأعطاهم المنزلة العلياء؛ فهم في عبادتهم ودعائهم، يسألونهم حفظ النَّاس والتعطُّف عليهم، فإذا أراد الله بقوم بلاءً نظر إليهم، ودفع عن العباد

(١) الدُّرر السنيَّة (١٢/ ٣٠٤).

(٢) فوائد حسان لأبي محمد عبد القادر الرهاوي الحنبلي (ص١١٤).

والبلاد منهم. وقوم قد عُنوا إما بحفظ وإما بكتب، فقاموا علىٰ حديث رسول الله ﷺ بحفظ أو كتب، علىٰ أن لا يُدخلوا أهل الزيغ في حديث رسول الله ﷺ.

فكل الخلق عيال علىٰ أهل الحديث من أهل السُّنَّة، الذين حفظوا وعرفوا، والصِّنفان جميعًا لا يستغنون عن علم الحلال والحرام، والأمر والنَّهي».

وقد أمر الله الحنفاء جميعًا بنصرة الحقِّ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]؛ لأنَّ الدِّين يُحفظ بمن يقوم بأدائه، ويردُّ زيف من يريد تحريفه أو مضادَّته، ولذلك اصطفىٰ الله للأنبياء عليهم الصلاة والسلام حواريين ينصرون دين الله، ويحفظونه من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

فالله عَزَّوَجَلَّ ينتدب أولياءه ويحثُّهم لنصرة دينه، وهذا من معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢].

والحنفاء أولياء الله، قاموا بتحقيق التَّوحيد بالدَّعوة إلىٰ ملَّة إبراهيم، والردِّ علىٰ من خالفها من المشركين والمبتدعين.

قال العلَّامة عبد اللَّطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من المعلوم عند العقلاء وأهل البصائر: أنَّ من دعا النَّاس إلىٰ توحيد ربِّهم وطاعته؛ أنَّه النَّاصح لهم حقًّا، وأما من حسَّن الشرك والبدع، ودعا إليها، وجادل بالباطل، وألحد في أسماء الله وصفاته؛ فهو الظَّالم الغاشُّ لعباد الله؛ لأنَّه يدعوهم إلىٰ ضلالة».

ونصرة الحقِّ هو من النَّصيحة لله عَزَّوَجَلَّ ولكتابه ولرسوله ﷺ وسنَّته وأئمَّة

---

(١) الدُّرر السنيَّة (١/ ٤٤١، ٤٤٢).

المسلمين وعامَّتهم، عن تميم الدَّاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الدِّين النَّصيحة**»، قلنا: لمن؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله** ﷺ، **ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم**»، رواه مسلم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «من أنواع النُّصح لله تعالىٰ وكتابه ورسوله ﷺ، وهو ما يختصُّ به العلماء؛ ردُّ الأهواء المضلَّة بالكتاب والسُّنَّة علىٰ موردها، وبيان دلالتها علىٰ ما يخالف الأهواء كلَّها».

وسُئل ابن المبارك: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله[2].

ومَن نصر الحقَّ الذي بُعث به الخليل محمد، الذي جدَّد ملَّة أبيه الخليل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فقد أحسن إلىٰ الخلق، خصوصًا في تبيين التَّوحيد والسُّنَّة وردِّ الشِّرك والبدع؛ لأنَّ من تعبَّد لله وهو مشرك فقد حبط عمله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]. ومن تعبَّد لله بالبدع كان عمله مردودًا عليه؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»، رواه البخاري ومسلم، وفي لفظ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»، رواه مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ونصرة الحقِّ هو من وسطيَّة هذه الأمَّة، حيث تعتقد الحقَّ وتدعو إليه، وتحذِّر من الباطل الذي في خلافه، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص٨٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٥).

والدَّعوة إلىٰ الحقِّ تثقل بها موازين الحسنات، والدَّعوة إلىٰ الباطل من الشِّرك والكفر والبدع والذُّنوب تثقل بها موازين السيِّئات، قال النبيُّ ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدًىٰ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالة؛ كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»، رواه مسلم.

ونصرة الحقِّ تكون بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ وبالعلم النَّافع، وهذا من حنيفيَّة التَّوحيد، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أمر بالعمل بعد العلم».

ونصرة الحقِّ هي حقيقة إخلاص التَّوحيد لله وحده، وذلك لا يكون إلَّا بالكفر بالطَّاغوت، والبدع والذُّنوب كلُّها من فروع الكفر، وهي بريده، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ونصرة الحقِّ هو من توحيد الله بموالاته ونصرة شرعه ووحيه ونوره الذي جعله هداية ورحمة للمؤمنين، وهو من شكر الله علىٰ نعمة الإسلام، فمن شكرها الهداية إليها وإبطال ما خالفها.

وردُّ الضلالات يكون بالهدىٰ والحقِّ والسُّنَّة، لا تُردُّ الضَّلالات بالباطل ولا بالبدع.

قال الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «ردُّوا الجهالات إلىٰ السُّنَّة».

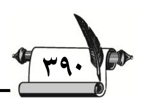
---

(١) التَّوضيح شرح الجامع الصَّحيح (٣/ ٣٢١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «بيان من غلط في رأي رآه في أمر الدين من المسائل العلمية والعملية، فهذا إذا تكلم فيه الإنسان بعلم وعدل، وقصد النصيحة؛ فالله تعالىٰ يثيبه علىٰ ذلك، لا سيما إذا كان المتكلِّم فيه داعيًا إلىٰ بدعة، فهذا يجب بيان أمره للناس؛ فإن دفع شرِّه عنهم أعظم من دفع شر قاطع طريق».

❁ ❁ ❁

(١) منهاج السُّنَّة (٥/ ١٤٦).



إباحة الطَّيِّبات

الرُّسل جميعًا عليهم الصَّلاة والسَّلام خصوصًا الخليلين بعثهم الله بإباحة الطيِّبات، قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]»، رواه مسلم.

وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سأل الله الرِّزق الطيِّب الحلال للمؤمنين بمكَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦].

والثِّمار هي من أطيب ما أحلَّ الله من الطَّعام، والله عَزَّوَجَلَّ حرَّم الخبائث من لحم الخنزير والميتة، أو ما ذُبح لغير الله من بهيمة الأنعام، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمٗا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذه الآية تتضمَّن الإعلام أنَّ التَّحليل والتَّحريم يُتلقىٰ من جهة الوحي».

والمشركون في الجاهليَّة غيَّروا وحرَّفوا ملَّة إبراهيم؛ فعبدوا الأصنام، وأشركوا بالله، وحرَّموا طيِّبات ما أحلَّ الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رموز الكنوز (٢/ ٣٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية، منسوبة إلىٰ الجهل، فإنَّ ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل. وكذلك كلُّ ما يخالف ما جاء به المرسلون: من يهودية ونصرانية؛ فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد ما بعث الله الرسول ﷺ فالجاهلية المطلقة قد تكون في مِصْرٍ دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ عمرو بن لحي هو أول من نصب الأنصاب حول البيت، ويقال: إنه جلبها من البلقاء من أرض الشام متشبهًا بأهل البلقاء، وهو أول من سيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمىٰ الحامي؛ فأخبر النبيُّ ﷺ أنه رآه يجر قصبه في النار، وهي الأمعاء، ومنه سمي القصاب بذلك؛ لأنها تشبه القصب.

ومعلوم أن العرب قبله كانوا علىٰ ملة أبيهم إبراهيم، علىٰ شريعة التوحيد والحنيفية السمحة دين أبيهم إبراهيم».

فبعث الله محمدًا ﷺ ليجدِّد ملَّة إبراهيم، ويدعو إلىٰ التَّوحيد، ويحلّ الطيِّبات ويُحرِّم الخبائث.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «روىٰ الإمام أحمد في «مسنده» عنه ﷺ: «**بُعثت**

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٥٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٠٩).

(٣) إغاثة اللَّهفان (١/ ٣٠٢، ٣٠٣).

بالحنيفية السمحة»، فجمع بين كونها حنيفية وكونها سمحة؛ فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل. وضد الأمرين: الشرك وتحريم الحلال، وهما اللَّذان ذكرهما النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ أنه قال: «**إِنِّي خلقت عبادي حنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**».

فالشرك وتحريم الحلال قرينان، وهما اللذان عابهما الله تعالىٰ في كتابه علىٰ المشركين في سورة الأنعام والأعراف».

وما حرَّمه الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ بني إسرائيل من الحلال كان تحريم عقوبة، لا تحريم لخبث ومضرَّة في الحلال، قال تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الله حرَّم علينا كل ما يضرُّنا، وأباح لنا كل ما ينفعنا، بخلاف أهل الكتاب؛ فإنَّه بظلم منهم حرَّم عليهم طيِّبات أحلَّت لهم، فحرَّم عليهم طيِّبات عقوبة لهم، ومحمَّد ﷺ لم يحرِّم علينا شيئًا من الطيِّبات».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هذا تحريم عقوبة، بخلاف التَّحريم علىٰ هذه الأمَّة؛ فإنَّه تحريم صيانة وحماية».

وقال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «هذا تحريم عقوبة، بسبب

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٣١٣).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ١٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٢١).

ظلمهم واعتدائهم، وصدِّهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدىٰ، وبأخذهم الربا وقد نُهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممَّن يبايعونه عن العدل؛ فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلِّها؛ لكونها طيبة. وأما التحريم الذي علىٰ هذه الأمة فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرُّهم في دينهم ودنياهم».

وبعث الله خليله محمدًا ﷺ بتجديد ملَّة إبراهيم؛ ليرفع الله به آصار وأغلال العقوبات التي كانت علىٰ بني إسرائيل بسبب ظلمهم، قال تعالىٰ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الآصار ترجع إلىٰ الإيجابات الشَّديدة، والأغلال هي التَّحريمات الشَّديدة، فإنَّ الإصر هو الثِّقل والشدَّة، وهذا شأن ما وجب، والغلّ يمنع المغلول من الانطلاق، وهذا شأن المحظور».

❁ ❁ ❁

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٩٣).



الخاتمة

أحمد الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ تيسيره تبيين حنيفيَّة ملَّة إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام، جعلني الله وإيَّاكم من الحنفاء الموحِّدين المخلصين لله عَزَّوَجَلَّ، الدَّاعين إلىٰ ملَّة إبراهيم بالعلم والحكمة.

وما ذكرته من علوم وعقائد وشرائع وشعائر وأخلاق الحنيفيَّة لا يحيط بكل ما فيها من خصال الخير، وحسبي أنِّي ذكرت جملًا نهتدي بها جميعًا في عبوديَّة الله، ونصرة دينه، وهداية الخلق إلىٰ الحقِّ.

والله عَزَّوَجَلَّ يهيئ أسباب من يشرح هذه الملَّة شرحًا تفصيليًّا، يكون من أسباب تجديد الملَّة ونفع المسلمين.

وعلوم علماء المسلمين ومشايخنا قد شرحت الملَّة شرحًا تفصيليًّا، ومن جمع شروحاتهم لها من مجموع مؤلَّفاتهم فقد أعان علىٰ تيسير مدارستها وتقريب فهمها للمسلمين، وهذا من أفضل أعمال البرِّ والتَّقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، وهو من الشَّفقة بالمسلمين والرَّحمة بهم.

ملَّة إبراهيم هي حنيفيَّة التَّوحيد، والبراءة من الشِّرك والمشركين، وموالاة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ والذين آمنوا.

ملَّة إبراهيم هي العلوم والاعتقادات والإرادات والأعمال الزكيَّة، التي هي

توحيد الله وحده وعبوديَّته بما شرع.

فالحمد لله علىٰ نعمة الإسلام، وعلىٰ عبوديَّة الله، والحنفاء حظُّهم من الحنيفيَّة بمقدار ما قاموا به من ملَّة إبراهيم، وفَّق الله الجميع للعلم النَّافع والعمل الصَّالح.

والحمد لله رب العالمين



قائمة المحتويات

